

# إزالة الأوهام عن دين الإسلام

دليلك إلى فهم آخر الأديان السماوية  
التي يُساء فهمها في القرن الحادي والعشرين

إعداد  
الدكتور: علي شحاتة

تحرير  
جولي ساميا مير، دكتوراه في القانون وماجستير في الصحة العامة

ترجمة

مجموعة الأندلس للترجمة الإسلامية

Al-Andalus Group LTD  
[www.alandalusgroup.co.uk](http://www.alandalusgroup.co.uk)

السنة 2022

## الفهرس

- 1..... مقدمة المؤلف
- 3..... أدلة وجود الله
- 9..... الله — اسمه ﷺ الذي معناه المحبة
- 13..... التوحيد - عماد الإسلام
- 18..... القرآن — كلام الله المنطوق
- 21..... القرآن الكريم والعلم الحديث
- 27..... حفظ القرآن من التحريف
- 35..... الحديث الشريف والسنة النبوية — المصدر الثاني للتشريع الإسلامي
- 38..... هل يمكن الوثوق بصحة الحديث الشريف؟
- 42..... نماذج من أحاديث النبي محمد ﷺ
- 45..... محمد — رسول الله ﷺ
- 47..... شخصية النبي محمد ﷺ وتعاليمه
- 52..... هل بشرت الكتب المقدسة السابقة بنبوته محمد ﷺ؟
- 59..... محمد ﷺ نبي أم مدعٍ للنبوته؟ النظر في مسألة النبوته
- 68..... أهمية النبي محمد ﷺ في عصرنا الحاضر
- 69..... المسيح عيسى ابن مريم المبارك في النصوص القرآنية
- 69..... لماذا لا يؤمن المسلمون بألوهية عيسى ﷺ؟
- 71..... لماذا لا يؤمن المسلمون بأن عيسى ﷺ ابن الله؟
- 74..... ما وجهة نظر المسلمين في مسألة النجاة "الخلاص"؟
- 75..... إيمان أعمى؟
- 76..... عيسى ﷺ من منظور الإسلام
- 78..... الشريعة الإسلامية: أسلوب حياة متكامل لا يخلو من سوء الفهم
- 80..... السمات المميزة للشريعة الإسلامية
- 83..... نظام الحدود في الإسلام
- 92..... مسألة "جرائم القتل بدعوى الشرف"
- 94..... دولة إسلامية أم دولة مسلمة — هل ثمة فرق؟

- 95..... موقف الإسلام من الإرهاب والحرب - إجابات مباشرة من المصادر
- 96..... هل هناك آيات قرآنية تحرّض على القتال والحروب؟
- 98..... هل الإسلام الدين الوحيد الذي يجيز القتال والحروب؟
- 106..... هل يُدين الإسلام الإرهابَ في النصوص الدينية؟
- 108..... هل الإسلام دين تسامح؟
- 112..... كلمة موجزة عن أحداث 11 سبتمبر.....
- 115..... المرأة في الإسلام: بين الماضيين الدفين والمجيد، والحاضر الغامض
- 120..... المرأة في المجتمعات العلمانية المعاصرة
- 122..... النظرة السلبية الغالبة للمرأة في النصوص اليهودية المسيحية
- 136..... مسائل خاصة بالمرأة: مقارنات تفصيلية
- 136..... التعليم
- 141..... تعدد الزوجات
- 143..... ضرب الزوجة
- 148..... الطلاق
- 151..... تغطية شعر المرأة- هل هو فرض ديني مقصور على النساء المسلمات؟
- 162..... بعض قضايا المرأة المثيرة للجدل في عصرنا الحاضر – أسئلة وأجوبة
- 165..... لماذا تدخل الكثير من الأمريكيات في الإسلام؟
- 167..... العقيدة الإسلامية حول الحياة الآخرة
- 172..... حُسن الخلق — طريقك إلى الجنة

## مقدمة المؤلف

### الرغبة

صحيح أنه من غير المعهود التقديم لكتاب ديني، لكن الرغبة أحد العوامل الرئيسة التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب. فكما هو معلوم أنّ الناس تنتابهم الرغبة من الأمور التي لا تبلغها أفهامهم وعقولهم، وحينها قد تقود هذه الرغبة إلى إحداث ردود فعل سلبية قد تكون هدامة، أو تؤدي- في بعض الحالات- إلى العداء الدائم. ويبدو أن هذا النوع من الرغبة هو الذي يستحوذ على العديد من الغربيين في الوقت الحاضر كلما حاولوا تقبل أعمال الإرهاب المرّوعة التي يرتكبها أناس ضد بلدانهم ممن يدّعون أنهم مسلمون، بل ويتمادون في الادّعاء بأنّ الإسلام يحث على أفعالهم الخبيثة الشريرة، ولكن الحقيقة عكس ذلك تمامًا، ومن هنا يستمد هذا الكتاب أهميته.

من الناس في عالمنا المعاصر من يوجج نار الكراهية التي تنشأ بين المسلمين والعالم الغربي، ما يدفع الفريقين إلى خوض مواجهة قد لا يخرج منها طرف منتصرًا. وتستطيع التعرف على هؤلاء الناس من خلال خطابهم وكتاباتهم؛ حيث إنهم يعملون دون كللٍ على ترسيخ الأسباب الداعية إلى الرغبة، وإثارة الكراهية في أذهان مستمعيهم وقرّائهم، ولا يكاد يخلو مكان حولك من دُعاة الكراهية هؤلاء؛ في البلدان المسلمة، وكذلك في الدول الغربية. فهؤلاء الأشخاص يمثلون مجموعة تكافؤ الفرص؛ حيث ستجدهم يتحدثون جميع اللغات، وينتمون إلى الأعراق والجنسيات المختلفة؛ فمنهم المثقفون وغير المثقفين، بصرف النظر عن النوع والعمر، ففكر الكراهية هو ما يجمعهم تحت راية واحدة، تتمثل في تحقيق أهدافهم الشيطانية، من إشعال نيران الحروب، وبت الفرقة بين شعوب العالم.

ولا شك أن المعرفة هي السلاح الوحيد الذي يمتلكه العالم لمحاربة هذا السم؛ فلا سبيل إلى تحقيق التفاهم والتسامح بين الشعوب والثقافات إلا بالمعرفة الحقيقية، حينها نصل إلى حالة من الاحترام المتبادل، مع العلم أنّ الأمور التي توحدنا أكثر بكثير من تلك التي تفرّقنا. فهذا الكتاب يهدف إلى مساعدتك على تعميق فهم الإسلام من النصوص المستمدة من مصادره الأساسية، القرآن الكريم كلام الله ﷻ المسطور، وأحاديث النبي محمد ﷺ. وقد صدر هذا الكتاب ونحن على ثقة تامة بأننا من خلال التعارف سنتغلب على قوى الكراهية والخوف؛ لتحقيق عالم مثالي ينعم بالمحبة والسلام.

### السلام العالمي

كلا، ليس هذا مجرد شعار أجوف،  
فالسلام العالمي هو ما نناضل في سبيل تحقيقه  
نضالاً يهدف إلى التغلب على مخاوفنا وعنصريتنا إزاء الآخرين،  
بالتواصل معهم بهدف التعلّم والفهم والإدراك؛  
لاكتشاف صداقات جديدة، وأساليب الزمن الغابر  
عندها فحسب، يمكننا التحول ...

من الإرهاب إلى الأمن،

ومن الكراهية إلى المحبة،

ومن الحرب إلى السلام.

## ما أهمية هذا الكتاب؟

عند إلقاء نظرة فاحصة على أرفف مكتبك الخاصة أو محل بيع الكتب المفضل لديك، ستجد عددًا من الكتب المعنية بالإسلام، والتي تزرخ بكل وجهات النظر والآراء التي تعبر عن مختلف المذاهب الفكرية الإسلامية، ومع ذلك، يشترك السواد الأعظم من هذه الكتب في عدد من أوجه القصور التي يعاني منها الذين يسعون إلى فهم العالم الإسلامي والمسلمين. زد على هذا أن كثيرًا من هذه الكتب قد ألفها كُتَّاب غير مسلمين أو مسلمون غير ملتزمين؛ ممن يتبنون أو يمثلون آراء الأقلية التي لا تمثل جمهور الإسلام، وفي كثير من الأحيان تُتناول الأفكار من وجهة نظر المؤلف، وليس من منظور النصوص الدينية الإسلامية. وهنا، يجب على أي كاتب مسلم أو غير مسلم يزعم أنه "باحث" أن يدعم أقواله وتفسيراته للمبادئ الإسلامية بأدلة واضحة مستمدة من المصادر الإسلامية الرئيسية. ومع ذلك، عادةً ما نفقد هذه الأدلة أو نجدتها شحيحة في العديد من الكتب الأخرى؛ ومن ثم، شكّل هذا الأمر معضلة للعديد من المسلمين الجدد الذين يسعون إلى فهم الإسلام على نحو أفضل؛ ومعضلتهم هي: "ماذا أقرأ؟". صحيح أن بعض المساجد ساعدت في حل هذه المعضلة جزئيًا من خلال تقديم مجموعة من الكتب التي تقدم موضوعات معينة إلى الساعين إلى فهم الإسلام فهمًا عميقًا. وبطبيعة الحال، هذه الفكرة رائعة إذا كنت تمتلك مكتبة، لكنها صعبة المنال على الشخص الذي لا يريد سوى فهم بعض المعتقدات الإسلامية الأساسية.

علاوة على ذلك، كثيرًا ما يشكو العديد من المسلمين الجدد أنّ الكتب التي تناقش القضايا والمعتقدات الإسلامية الأساسية ألفها مهاجرون أو أناس يعيشون خارج العالم الغربي؛ ومن ثم، يلتبس الأمر على المسلم الغربي في بعض الأحيان، ويجد نفسه في حيرة، ولا يفهم كيف تنطبق عليه بعض المبادئ في الغرب. وهذا أمر مؤسف؛ نظرًا إلى تزايد عدد المسلمين الذين يعيشون اليوم في الغرب؛ حيث يُعد الإسلام في الوقت الراهن ثاني أكبر ديانة في معظم دول أوروبا<sup>1</sup>، هذا فضلًا عن وجود عدد كبير من المسلمين في دول أخرى، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية<sup>2</sup>، والمملكة المتحدة البريطانية. فالمسلمون في هذه البلدان يشكلون مجموعة غير متجانسة للغاية، ويضمون أعدادًا كبيرة من معتنقي الإسلام الجدد، لا سيما في الولايات المتحدة وأوروبا، فضلًا عن المهاجرين، وتزايد عدد المواطنين المسلمين من الجيل الأول في هذه الدول الغربية.

إن الإسلام يقدم الخير الكثير إلى هذا العالم الذي نعيش فيه، لكن لا تظن أن غرض الكتاب هو "إدخالك في الإسلام"؛ فقد كفل الإسلام حرية العقيدة؛ إذ لا إكراه على اعتناق دين معيّن دون غيره؛ فالهداية بيد الله وحده. وإنما نُشر هذا الكتاب لمساعدتك على فهم المزيد عن تعاليم هذا الدين من نصوصه المقدسة، ولم يقتصر تأليفه على منظور الذين عاشوا حياتهم بأسرها في الغرب، وإنما راعى كذلك من يسلم منهم ويمارس شعائر الدين. وقد بُدّل في سبيل كتابته كل جهد لدعم الآراء الواردة بالدليل الصحيح المناسب، بدلاً من إبداء آراء شخصية؛ فالجمع بين كل هذه العناصر هو ما يميّز هذا الكتاب عن غالبية الكتب الأخرى المعنية بالإسلام، والتي قد تصادفها في خضم سعيك لفهمه، وفقنا الله جميعًا للحق، وجمعنا برحمته وفضله في سلام وأمن... اللهم آمين.

د. علي شحاتة، فلوريدا الوسطى، أبريل 2007

<sup>1</sup> <https://berkleycenter.georgetown.edu/essays/demographics-of-islam>

<sup>2</sup> ويلينجهام، ألكسندرا جا (Willingham, AJ). (11 يناير، 2028). "الطول عام 2040، قد يصبح الإسلام ثاني أكبر ديانة في الولايات المتحدة" (By )  
مُقتبس من: (2040, Islam could be the second-largest religion in the US

<https://edition.cnn.com/2018/01/10/politics/muslim-population-growth- second-religious-group-trnd/index.html>

## أدلة وجود الله

مما لا شك فيه أن إثبات وجود الله من الأسئلة الكبرى التي دائماً ما تُطرح أثناء النقاشات الدينية، فبعض الذين يدعون إيمانهم بوجود الله كقوة عليا يعترفون أنه خلق الكون، ولكنهم يزعمون أن الله لا يدبر شؤون خلقه، وإنما خلقهم ثم تركهم هملاً ليواجهوا مصيرهم؛ ولذا، سأقدم في هذا الفصل بعض الأدلة على وجود الله وتدبيره لشؤون خلقه؛ على نحو ما أثبت الله ﷻ صراحة، وبأوضح العبارات في رسالته إلى البشرية، ألا وهي القرآن الكريم.

يظن بعض الناس في عصرنا الحاضر أن هذا العالم نتاج المصادفة، وأن الانتقاء العشوائي قادنا إلى هذا الوجود. أما الجانب المؤسف حقيقة في هذا الادعاء؛ فهو أنه لا يصدر عن بعض قاطني الكهوف البائسين الجهلاء، ممن ابتلوا بعمى البصيرة وقلة المعرفة، ومن ثم العجز عن إدراك مدى عظمة هذا الكون، بل يصدر عن بعض المفتونين بالعلم الحديث الذين يرفضون الاعتراف بعظمة العنصر الذي يعكفون على دراسته والغاية المميزة له؛ ألا وهو الكون؛ ولذا، تجدهم يحييدون عن الطريق، ليس في هذه المسألة فحسب، وإنما يحييدون عن المنطق الذي يحتكمون إليه في جميع أعمالهم وأنشطتهم اليومية.

وحتى نوضح كلامنا، دعونا نضرب هذا المثال من مجال علم الآثار: عندما ينقب علماء الآثار عن القطع الأثرية في التربة، ويكتشفون واحدة منها، كأن يعثروا- مثلاً- على قطعة فخارية أو نصل سلاح أثري، نتساءل في دهشة واستغراب: كيف تسنى لهم التوصل إلى نتائج تفصيلية لا تقتصر على الأبعاد الأصلية للقطعة الأثرية وخصائصها فحسب، بل تتعلق أيضاً بالأشخاص الذين استخدموها؛ بما في ذلك عصرهم، وثقافتهم، ومعتقداتهم، ومجتمعهم؟! فيا للعجب أن يصدر كل هذا الفهم بسبب قطعة من الحجارة أو المعدن الباهت!

والمنطق ذاته ينطبق أيضاً على الله ﷻ؛ فأنتى لك أن تنكر وجوده ﷻ في الوقت الذي ترى حولك "عجائب" صنعه التي تدل على وجوده ﷻ؛ النجوم، والكون، والمحيطات، والنباتات، والحيوانات، وتنوع الأعراق التي يتألف منها الجنس البشري وجمالها.

وقد ذكر الله ﷻ ذلك في القرآن، فقال ﷻ: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ.

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ { (سورة الروم: 21-24).

ففي هذه الآيات، يأمر الله ذوي الأبواب والبصيرة بالتفكير في جميع الخلائق التي تُقدم الدليل القاطع على وجوده ﷻ، وبالإضافة إلى التفكير في الكون والخلق، دعانا الله ﷻ إلى التفكير في أنفسنا التي خلقها.

قال الله ﷻ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} (سورة الطور: 35-36).

بعبارة أخرى، هل التعقيد الذي تتسم به بنية الإنسان والوظائف التي تميّز الجسم والعقل البشري وليدة المصادفة المحضة كما يزعم البعض؟ وهل يُسوِّغ المنطق أو العقل تلك الفكرة أصلاً؟

لا يسوّغ المنطق هذه الفكرة على الإطلاق! لكن ينبغي على من يؤمن بهذا الأمر إجراء هذه التجربة البسيطة: أحضر كوباً من الطلاء، ورشه على قطعة من الورق أو القماش، سيكوّن الطلاء على الورقة شكلاً معيناً بصورة عشوائية. أما إذا سكبنا كوباً آخر من الطلاء على ورقة علوية أخرى؛ فسيختلف الشكل الجديد تماماً. ولو كررنا هذه التجربة ألف مرة، فلن يتطابق شكلان أبداً؛ ويرجع ذلك إلى أن هذه الأشكال قد تكوّنت بالمصادفة ومن المحال أن تتطابق، ويحدث أمر مشابه حينما نمعن النظر في نُدف الثلج؛ حيث تبدو كلُّ ندفة فريدةً ومختلفةً عن غيرها.

وعلى غرار ذلك، لو أتى كل البشر إلى الوجود بالمصادفة، فلن يكون ثمة تشابه بين شخصين في الشكل أو الملامح، بل سيختلف كل شخص عن الآخر اختلافاً تاماً، فستجد- مثلاً- من له ثلاث عيون، ومن له عين واحدة، أو من له أنف كأنوف الأبقار، أو من له خرطوم كخراطيم الفيلة، أو من يزحف على بطنه كالثعابين، أو من يطير بأجنحة، ولكننا نلاحظ تشابهاً كبيراً بين السواد الأعظم من البشر، ورغم كل هذا التشابه، فقد جعل الخالق ﷻ ملامحنا مختلفة؛ حتى نتمكن من التعارف، ونقدّر الاختلاف والتنوع في حياتنا.

ولو كان خلق الإنسان مجرد مصادفة كما يزعم البعض، لما وُجد جنسا الذكور والإناث، ولأتى كل البشر من جنس واحد أو من أجناس متباينة، لكنّ الله خلق جنسين متطابقين ومتكاملين فيما بينهما، كما عرس ﷻ الحبّ بينهما، والذي لولاه ما عمّر الجنس البشري الأرض.

ولا يمكن أبداً لمن يزعمون أن الحياة ليست أكثر من مجرد مصادفة تفسير الغريزة الطبيعية للرضيع حين يبدأ في النقام ثدي أمه، فأنتي لجميع الأطفال الصغار أن يعرفوا كيف يرضعون، بل كيف يهرعون بالفطرة إلى أئداء أمهاتهم للرضاعة؟ أم أنّه من المصادفة أيضاً أن يبدأ ثدي الأم في إدرار الحليب فور ولادة الطفل؟ هذه الأمثلة ليست سوى غيض من فيض العديد من البراهين الواضحة التي ترشد بطبيعة الحال من يتحلى بالحكمة ويعمل عقله إلى النتيجة التي مفادها: أن الخلائق بأسرها لم تأت إلى الوجود بمحض المصادفة، وأن لهذا الكون خالقاً؛ لم يخلقه لمجرد أن يتفكر البشر في آياته ﷻ ويشاهدوها فحسب، بل ليشاركوا في عمارة هذا الكون أيضاً.

إذن، نلاحظ كيف أن الخلائق بأسرها لا تشوبها شائبة منذ نشأتها حتى نهايتها؛ فأينما نظرنا حولنا، ننبهر بجمال الخلق بمختلف أطيافه وبعظمته، لكن على الجانب الآخر، تستند الاختراعات التي صنعها الإنسان إلى البحث، وتخضع لمراحل التحسين المستمر، بل يُعاد تصميمها بالكامل في بعض الأحيان؛ ومن ثم لا نستطيع إضفاء صفة الكمال على أي اختراع من صنّع الإنسان.

وفي معرض الحديث عن كمال الخلق وتمامه، قال الله ﷻ في كتابه العزيز:  
**{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ}** (سورة الملك: 3-4).  
بعبارة أخرى، من المحال أن تكتشف أي خلل أو شائبة في خلق الله ﷻ.

ومع هذا، يدعو الله ﷻ في قرآنه الكريم أن يتفكر المتشككون في آياته التي خلقها لهم في الكون، فيقول ﷻ في الآية الكريمة:

**{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** (سورة الأنبياء: 30).

يطلق أحياناً على هذه الآية القرآنية البديعة ذات المعنى العميق آية "الانفجار العظيم"؛ لأنها تصف بجلاء النظرية الحديثة للانفجار العظيم، وتقول هذه النظرية: إنه قبل نشأة الكون الحالي، حدث انفجار لكتلة المادة العظيمة، ونتيجة لهذا الانفجار العظيم نشأت الكواكب، والنجوم، وكل ما يحويه هذا الكون الفسيح. وهنا نلاحظ كيف يلفت خالق الكون انتباه الملحدین المرتابين إلى التدبير في هذا الأمر، ومن ثم العودة إلى الإيمان بوجود الله وتدبيره لشؤون الخلق من حولنا.

ودعونا نتأمل جميعاً هذه الأسئلة البسيطة، أولاً: من الذي خلق كتلة المادة الضخمة التي كانت موجودة قبل حدوث الانفجار العظيم؟ ثانياً: من الذي تسبب في انفجارها، وأنشأ مجرات وأنظمة شمسية مرتبة بصورة بديعة؟ أخيراً: كيف يمكن لرجل أمي (النبي محمد ﷺ) عاش في الصحراء العربية قبل أكثر من 1400 عام أن يصف أمراً لا يستطيع تفسيره إلا العلماء المعاصرون باستخدام الأدوات التكنولوجية المتقدمة والمعادلات الرياضية المعقدة؟

إن الإجابة الواضحة الصريحة عن هذه الأسئلة المثيرة للفضول هي أن من خلق السموات والأرض هو ذاته من فتقهما؛ ومن ثم نشأ الكون بالصورة التي نعرفها اليوم، بل إنه ﷻ هو من أوحى بديع صنعه إلى رسوله محمد ﷺ، وقد تجسد في القرآن الكريم باعتباره آية ودليلاً على وجود الله خالق هذا الكون وربّه، فضلاً عن كونه إثباتاً لا يدع مجالاً للشك على تدبيره شؤون جميع خلقه.

فمن رحمة الله ﷻ بخلقه أنه لم يدعهم يتحيرون أو يرجمون بالغييب، بل يخبرنا القرآن الكريم أن الله خالق كل شيء، وقد أوحى الله ﷻ تفاصيل ذلك إلى رسوله الكريم ﷺ، ثم اختتم كلامه بسؤال وجيه مباشر؛ إذ يقول ﷻ: **{أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** (سورة الأنبياء: 30).

إن من السمات الفريدة المميّزة للإسلام، مقارنةً بالديانات الأخرى، التوصل إلى معرفة وجود الله بإعمال العقل والتفكير؛ ومن ثم لا يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان الأعمى بمسائل العقيدة [وجود الله، والرسول والوحي، وما إلى ذلك]، وإنما يهدي الله البشرية جمعاء، من خلال الأدلة العقلية إلى الوصول إلى حقيقة وجوده ﷻ وقيامه على تدبير شؤون خلقه.

وبهذا يتميّز الإسلام بأنه دين إعمال العقل والفكر الذي يؤدي إلى المحصلة النهائية، وهي الإيمان المستند إلى الأدلة، لا الإيمان المقلد الأعمى.



ومن الأدلة القاطعة الأخرى إرسال الأنبياء بالهداية للبشرية كافة؛ فالله ﷻ يقول في مواضع عديدة في القرآن الكريم: إنه لن يحاسب أي أمة حتى يبعث فيها رسولاً.

وثمة دليل أخير يجب مناقشته، وهو الشعور الفطري بالعجز والرغبة في اللجوء إلى الخالق ﷻ، وهو ما يفعله جميع البشر في أوقات المحن والشدائد، مثلما يحدث عند مواجهة الكوارث الطبيعية، أو عند التعرُّض للمخاطر في عرض البحار، وقد دفعت هذه الحقيقة ونستون تشرشل (Winston Churchill) إلى القول ذات مرة: "لا مكان للملحدين في ساحة المعركة".

وقد وصف الله ﷻ هذا الشعور الإنساني الفطري في الآية القرآنية الآتية، فقال: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (سورة يونس: 12).

وأختم هذا الفصل بقصة شيقّة تصوّر مواجهة عميقة حدثت بين ملحد، يستند في دعوى إنكاره لوجود الله ﷻ على أسس "علمية محضة"، وطالب مؤمن يقدم لأستاذه منظوراً حول طبيعة الإيمان بالله ﷻ.

يتحدث أستاذ الفلسفة الملحد إلى طلابه في المحاضرة عن إشكالية العلم ووجود الله ﷻ. يطلب الأستاذ من أحد طلابه المسلمين الوقوف.

الأستاذ: "أنت مسلم، أليس كذلك أيها الشاب؟"

الطالب: "بلى، سيدي".

الأستاذ: "إذن أنت تؤمن بوجود الرب أو كما تدعونه "الله"؟".

الطالب: "بالتأكيد، سيدي".

الأستاذ: "هل الله رؤوف؟".

الطالب: "بالتأكيد".

الأستاذ: "هل الله قدير؟".

الطالب: "نعم".

الأستاذ: "حسنٌ، أودّ أن أقول لك إنّ أمي تُوفيت بالسرطان على الرغم أنّها كانت تدعو الرب أن يشفيها، فمعظمنا كبشر يحاول مساعدة غيره من المرضى أو المحتاجين، ولكنّ الرب لم يفعل ذلك مع أمي، فكيف يكون الله رؤوفاً إذن؟ ما ردك؟"

(هنا يلتزم الطالب الصمت).

الأستاذ: "لا يمكنك الإجابة، أليس كذلك؟ لنبدأ من جديد، أيها الشاب. "هل الله رؤوف؟"

الطالب: "نعم".

الأستاذ: "هل إبليس طيب؟"

الطالب: "لا".

الأستاذ: "من أين أتى الشيطان؟"

الطالب: "من ... الله؟"

الأستاذ: "هذا صحيح، ولكن أخبرني يا بُني، هل هناك شر في هذا العالم؟".

الطالب: "نعم".

الأستاذ: "الشر موجود في كل مكان، أليس كذلك؟ والله قد خلق كل شيء، أليس هذا صحيحًا؟"  
الطالب: "بلى".

الأستاذ: "فمن خلق الشر؟"  
(الطالب لا يجيب).

الأستاذ: "هل يوجد مرض؟ فجور وخلاعة؟ ضغينة؟ قُبْح؟ كل هذه الآفات الكريهة موجودة في العالم، أليس كذلك؟"

الطالب: "بلى، سيدي".

الأستاذ: "فمن خلق هذه الأشياء؟"  
(الطالب يعجز عن الإجابة).

الأستاذ: "يقول العلم إنك تتمتع بخمس حواس تستخدمها للتعرف على العالم من حولك والتأمل فيه، فأخبرني ... هل رأيت ربك يوماً؟"

الطالب: "لا، يا سيدي".

الأستاذ: "أخبرنا إذا كنت قد سمعت ربك من قبل؟"

الطالب: "لا، يا سيدي".

الأستاذ: "هل سبق لك أن لمست ربك أو دُقته أو شممته؟ وهل سبق لك أي تصوّر حسي عن الله؟"  
الطالب: "كلا، سيدي. للأسف لم يسبق لي هذا الأمر".

الأستاذ: "نعم للأسف، لم يسبق لأحد التعرض لهذا التصوّر، ومع ذلك، فأنت لا تزال تؤمن به؟"  
الطالب: "أجل".

الأستاذ: "وفقاً للمنهجية التجريبية القابلة للاختبار والملاحظة، يقول العلم: إنّ إلهك غير موجود. فما رأيك؟"  
الطالب: "لا شيء، إنما أؤكد على إيماني بوجوده فحسب".

الأستاذ: "أجل، الإيمان، وهذه هي الإشكالية التي يواجهها العلم.  
لم لا تجلس إذن، أظن أنك قد قلت ما يكفي".

فور انتهاء هذه المناقشة، وقف طالب آخر على نحو غير متوقع، وأخذ يخاطب الأستاذ بجرأة.

الطالب (2): "أستاذ، هل هناك ما يُسمى بالحرارة؟"

الأستاذ: "نعم، بكل تأكيد".

الطالب (2): "وهل هناك ما يُسمى بالبرودة؟"

الأستاذ: "نعم..."

الطالب (2): "كلا، سيدي. لا يوجد شيء من هذا القبيل".

(يعمّ الهدوء أرجاء قاعة المحاضرات مع هذا التطور المتسارع في الأحداث).

الطالب (2): "سيدي، قد تجد الحرارة المتوسطة أو الحرارة المرتفعة أو الحرارة المفرطة أو الحرارة البيضاء أو الحرارة المنخفضة أو قد تنعدم الحرارة مطلقاً، وفي الوقت ذاته ليس لدينا شيء يُسمى البرودة، فقد نصل إلى 458 درجة تحت الصفر، حيث تنعدم كل مظاهر الحرارة، ولكن لا يمكننا تجاوز هذا الحد، فلا يوجد شيء اسمه البرودة؛ لأن البرودة مجرد كلمة نستخدمها لوصف غياب الحرارة، ولا يمكننا قياسها؛ أما الحرارة، فهي شكل من أشكال الطاقة، والبرودة ليست نقيض الحرارة، سيدي؛ إنما تمثل غياب الحرارة".

(الصمت يسود أرجاء قاعة المحاضرات من جديد).

الطالب (2): "وماذا عن الظلام، يا أستاذ؟ هل هناك ما يُسمى بالظلام؟".  
أجاب الأستاذ بتأنٍ وحذرٍ: "نعم، فما حقيقة الليل إن لم يكن للظلام وجود؟".  
الطالب (2): "هذا ليس صحيحًا يا سيدي، فالظلام يمثل غياب شيء معين، وقد يكون لديك ضوء خافت وضوء متوسط وضوء ساطع...، ولكن إذا لم يكن لديك ضوء بصورة مستمرة، فهذا يُسمى الظلام، أليس كذلك؟ في الواقع، ليس الظلام شيئًا مميزًا، ولو كان كذلك، لكنت قادرًا على جعل الظلام أكثر قتامة، أليس كذلك؟".

الأستاذ: "إذن، ما الفكرة التي تريد توصيلها، أيها الشاب؟".  
الطالب (2): "سيدي، ما أودّ قوله: هو أنّ فرضيتك الفلسفية معيبة".  
الأستاذ: "معيبة! هل توّد أن توضح لي فقط طبيعة هذا العيب؟".  
الطالب (2): "نعم، أنت تبني نظريتك على أساس مبدأ الازدواجية، فأنت تؤمن بالحياة والموت، وإله الخير وإله الشر، وتنظر إلى مفهوم الله على أنه كيان محدود قابل للقياس. سيدي، قد يعجز العلم عن تفسير فكرة أو خاطرة معيّنة؛ فالعلم يستخدم مفهوم الكهرباء والمغناطيسية، لكنه لم يثبت إمكانية رؤيتهما، فضلًا عن مساعدتنا على الفهم التام لأيّ منهما، والنظر إلى الموت على أنه نقيض الحياة- يعدل الجهل بعدم وجود الموت ككيان منفصل؛ فالموت ليس نقيض الحياة، إنما هو مجرد حالة انعدامها. فأخبرني الآن يا أستاذ، هل تعلم طلابك أنهم تطوروا من قردة؟".  
الأستاذ: "إن كنت تشير إلى عملية التطور الطبيعي، فنعم، أفعل ذلك".  
الطالب (2): "فهل سبق لك أن شاهدت التطور بأم عينيك، سيدي؟".

(يهزّ الأستاذ رأسه، ويبتسم ابتسامة ماكرة، بعدما بدأ يدرك المسار الذي تتجه إليه المناقشة).

الطالب (2): "بما أنه لم يسبق لأحد أن شاهد عملية التطور، ولم نجد أحدا يثبت استمراريتها، ألسنت بذلك تعلم الطلاب وجهة نظرك الشخصية يا سيدي؟ ألا تكون حينئذ مبشرًا، ولست عالمًا؟"

(يسود الضجيج الفصل).

الطالب (2): "هل سبق لأحد في الفصل أن رأى عقل الأستاذ؟".  
(ينفجر الفصل بالضحك).  
الطالب (2): "هل سمع أحد هنا عقل الأستاذ أو أحسّ به أو تلمّسه أو شمّه؟ لم يفعل أحد ذلك، إذن، وفقًا للقواعد المتبعة في المنهجية التجريبية القابلة للملاحظة، يقول العلم: إن عقلك غير موجود، سيدي. ومع كامل احترامي لك، سيدي، كيف لنا أن نتق بعد ذلك بمحاضراتك؟".

(يسود الصمت أرجاء القاعة، ويحدّق الأستاذ ببرود إلى الطالب (2)، ووجهه خالٍ من أي تعبير).  
الأستاذ: "أظنّ أنه ما عليك إلا أن تُسلم بوجود هذه الأمور، يا بني".

## الله — اسمه ﷻ الذي معناه المحبة

عندما تُجرى بحثاً سريعاً على شبكة الإنترنت عن أصل لفظ الجلالة "الله"، ستصل إلى نتائج باهرة، ولكنك ستُصدَم بأناس يريدونك أن تعتقد أن "الله" هو اسم إله القمر الوثني الذي كان يعبده عرب الجاهلية؛ وهؤلاء لديهم أيضاً أساليب جذابة وفكاهية في عرض المواد التي تقنع الأطفال أن "المسلمين" يعبدون إله القمر هذا. ومن هذا المنطلق، يُفترض أن يشعر النصارى العرب بالإهانة الكبيرة جرّاء هذا الوصف الخاطئ؛ وذلك لأن لفظ الجلالة "الله" مُستخدم كمقابل لكلمة "God" في النسخة العربية للكتاب المقدس، والتي تسبق الكتاب المقدس المخطوط باللغة الإنجليزية بعدة قرون. وعلى كل حال، حتى نفهم اسم "الله" على نحو أفضل، يجب أن ننتعمق قليلاً في اللغة العربية وعلم اللغة؛ للوقوف على المعنى الدقيق لهذا الاسم الجليل. كلمة "الله" لفظ عربي يجمع بين تركيبين عربيين، وهما: "لام التعريف" وكلمة "إله" على التوالي، وتُعد "لام التعريف" في اللغة العربية أداة التعريف التي تمثل:

نوعاً من المحدّات التي تقيد الاسم أو تخصّصه، وتقابلها "the" في اللغة الإنجليزية.

إذن عند استخدام هذه الأداة على النحو الوارد أعلاه، فإنّها لا تعني الإله فحسب، بل تعني أيضاً الإله الواحد الأحد. ومن خلال تحليل الكلمة بصورة أكثر عمقاً، يتعين على المرء أن يفهم معنى كلمة "إله" التي غالباً ما تُترجم ترجمة سطحية وغير دقيقة إلى God/god، هذا رغم أن جميع الأسماء في اللغة العربية تُشتق من الفعل الثلاثي؛ ما يساعد في توضيح معناها الأساسي، ومن ثمّ فإنّ اسم "إله" مشتق من الفعل الثلاثي "أله". وعند البحث عن هاتين اللفظتين في معجم "مد القاموس" لإدوارد لين؛ المعجم الأفضل لفهم اللغة العربية، ولا سيّما على النحو الذي استخدمه العرب خلال العصر الذي بزغ فيه نجم الإسلام، سنجد المعاني التالية:

أله: عَيَدَ، لجأ، آمن، حمى.  
إله: مَنْ يُعبد.

إذن عندما تقترن أداة التعريف بلفظة "إله"؛ نجد أنها تقصرها على كيان واحد، وبالتالي نتوصل إلى معنى لفظ الجلالة "الله" على النحو الذي يفهمه المسلمون: الإله الواحد الأحد، المعبود وحده دون غيره، الذي تُصرف له العبادة مع كمال الإذعان والاستسلام والحب لوجهه الكريم. فهذا التعريف الشامل الذي سقناه آنفاً يلخص أيضاً المنهج الإسلامي في العبادة.

وليست العبادة في الإسلام مجرد واجبات أسبوعية أو فروض يومية، وإنما هي تعبير مستمر عن إظهار خالص المحبة والتوقير أو الشوق إلى الله ﷻ خالقنا ورازقنا، ولا تقتصر على السجود له ﷻ إجلالاً وتعظيماً، بل تشمل طاعة أوامره والانصياع التام لها. ففي الديانات الأخرى، عادةً ما يُنظر إلى هذه الأوامر على أنها مجموعة من القواعد الثقيلة الجامدة، هذا على عكس نظرة المسلمين لها! فهم يعتبرونها إرشادات محبة صادرة عن الله الذي نحبه وحببنا؛ عسانا أن نهتدي إلى طريق الفلاح والعزة والسعادة، وحتى لا نقع فريسة لليأس، أو فتنة المصائب، أو الغواية والضلال. وينطبق الأمر ذاته على الآباء الذين يفرضون قواعد وقيوداً صارمة أحياناً على أبنائهم؛ فهذا ليس بغرض قمعهم أو الشق عليهم، ولكنه لغاية مُغايرة تماماً تتمثل في حمايتهم وتأمينهم وهدايتهم إلى طريق النجاح والفلاح.

ولهذه المحبة الأثر الإيجابي على علاقة المسلمين بربهم حينما يرفعون إليه أكفهم بالدعاء؛ فهم يناجون رباً يهتم بأمرهم، ويرعاهم، ويسمع دعاءهم، ويتغمدهم بلطفه ورحمته؛ فهو ﷺ القريب المجيب، وحينما سأل الصحابة النبي ﷺ عن الله ﷻ، أجابهم الله ﷻ بنفسه في الآية الكريمة الآتية، فقال ﷺ:

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (سورة البقرة: 186).

يعلم المسلمون في قرارة أنفسهم أنهم يعبدون إلهاً يحبهم ويحب الخير لهم؛ حيث تتجلى محبة الله ﷻ لعباده في صفتي الرحمة والمغفرة، اللتين وعدهما لمن يؤمن به ويعمل الصالحات؛ وعليه، ليس من المنطقي أن يُتهم المسلمون بعبادة إله يجسد الانتقام والغضب، في حين أن الله ﷻ قال عن نفسه على لسان رسوله ﷺ:

"لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" (رواه مسلم).

لم يكتفِ سبحانه بمغفرته الواسعة لعباده المخلصين، بل وعدهم أن يملأ قلوبهم بمحبته، كما ورد في هذه الآية القرآنية؛ إذ يقول ﷻ:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} (سورة مريم: 96).

ومما يثير الدهشة أننا إذا بحثنا في القرآن الكريم عن عبارة "إن الله يحب"، وجدنا سبع عشرة نتيجة منفصلة عن المرتين اللتين وصف الله نفسه فيهما بـ"الودود"؛ أي: المُحِبِّ. وبالإضافة إلى ذلك، ذُكرت محبة الله لعباده أربع أو خمس مرات أخرى في القرآن الكريم، ليصل مجموع الإشارات القرآنية التي تتحدث عن تلك المحبة إلى نحو خمس وعشرين إشارة، هذا إلى جانب الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على محبة الله للمؤمنين. ومن بين هذه الأحاديث هذان الحديثان اللذان يأسران القلب والعقل؛ من سحر معانيهما، وعبق محتواهما، وإليك الحديثين:

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فَلَانَا فَأَجِبْهُ، قَالَ: فُجِبْهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانَا فَأَجِبُوهُ، فَيُجِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ". (متفق عليه)

وروي عن عائشة ﷺ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقَوْلِ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ: سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ". (متفق عليه)

ومن ثم فإن المحبة من المفاهيم الشائعة والمتكررة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكل ذلك يبين مدى حرص الله ﷻ على هداية عباده إلى ما يجلب لهم الفلاح والسعادة، ويزيد من محبته لهم. وإليك هذا المثال الأخير الذي يشير إلى محبة الله لعباده، كما في هذا الحديث الذي رواه النبي ﷺ عن ربه ﷻ قائلاً:

قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاعَتَهُ" (رواه البخاري).

إن المحبة عاطفة عظيمة شاملة تتنوع وسائل التعبير عنها، والرحمة من أعظم مظاهرها، وقد وردت في الكتاب المقدس: "...وَتَرَأْفٌ عَلَيَّ حَسَبَ كَثْرَةِ رَحْمَتِكَ" (سفر نحemia 13: 22). وإذا نظرنا في أعظم رباط للحب بين البشر، اتفق الجميع على أنه الرباط الموجود بين الأم وأولادها، وقد أشار النبي ﷺ ذات مرة إلى هذا الأمر؛ حيث بين لأصحابه عظمة رحمة الله التي تشمل من يذعن له ويعبده:

"قَدِمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَبِي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَبْتَعِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا" (البخاري ومسلم).

ونجد في الإسلام أن لله تسعة وتسعين اسمًا مشتقًا من صفاته العليا، ومن بين هذه الأسماء اسمان يحب الله ﷻ أن يُذكر بهما: الرحمن والرحيم. ومن ثم، فإن أول آية في القرآن الكريم - فاتحة الكتاب - هي: {يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (سورة الفاتحة: 1). وقد قتل العلماء هذين الاسمين بحثًا، وأجمع الجمهور على أنه لا فرق بينهما؛ فكلاهما يشتمل على صفة الرحمة ويستلزمها. ومن الملاحظ هنا أن الله ﷻ وصف نفسه باسمين يحملان المعنى نفسه؛ وهو الرحمة؛ ليؤكد على رحمته، ويبين أنها وسعت جميع مخلوقاته؛ لدرجة أنه لا يسعها اسمٌ واحد.

ومن هنا، تكرر ذكر الرحمة الربانية في مواضع قرآنية عديدة؛ حيث وصف الله ﷻ نفسه بالرحمن أكثر من خمسين مرة، في حين ورد ذكر رحمته ﷻ أربعين مرة، وبلغت المواضع التي يصف فيها نفسه بالرحيم قرابة خمسة وخمسين، وهكذا نجد أن رحمة الله وردت في أكثر من 150 موضعًا في القرآن الكريم!

قارن هذا بالمواضع التسعة عشر التي ذكر الله ﷻ فيها سخطه أو غضبه في القرآن الكريم، فالله ﷻ لم يسم نفسه أبدًا باسم يحمل صفة السخط أو الغضب، بل يصف نفسه أيضًا بالغفور فيما يقرب من مائة موضع في القرآن الكريم!

قارن هذا بعملية بحث في الكتاب المقدس عن ورود محبة الله لعباده، وستجد نحو ستين موضعًا في الكتاب كله (وأكثر هذه المواضع قد وردت في العهد القديم). ففي كثير من الأحيان، لا سيما في العهد الجديد، لا ترد محبة الله في عبارات جديدة، بل تكون إما تكرارًا، وإما اقتباسًا لآيات أخرى غالبًا ما يكون مصدرها العهد القديم؛ (بغرض تحقيق نبوءة). وإذا بحثنا عن المواضع التي ذُكرت فيها رحمة الرب في الكتاب المقدس، لأسفر هذا البحث عن خمس وأربعين نتيجة فقط، ولكن العديد من تلك المواضع إما تكرار وإما اقتباسات لمواضع أخرى وردت في الكتاب المقدس. إذن يتبين لنا أن إجمالي عدد المرات التي ذُكرت فيها محبة الله ورحمته في الكتاب المقدس، عدا الحالات المتكررة، بلغ نحو مائة مرة.

وعند إجراء بحث بسيط عن عبارات: "غضب الله"، و"غضب الرب"، و"سخط الرب"، وما يماثلها من عبارات السخط، سنجد نحو سبعين نتيجة منفردة، هذا بالإضافة إلى ورود ذكر سخط الرب وغضبه بصيغ وتراكيب أخرى مختلفة على طول الكتاب المقدس.

ونقول ختامًا يبدأ المسلمون أعمالهم وأنشطتهم اليومية كلها بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم"؛ لتذكّرهم بمدى رحمة الله ﷻ ومحبته وفضله الذي وسع كل شيء، كما يفتتحون بتلك العبارة الأعمال كلها؛ على سبيل التبرّك والتيمّن، ولإظهار مدى إخلاص العمل لله وحده؛ إذ المسلمون مأمورون بتبادل هذه المحبة والرحمة فيما بينهم في جميع معاملاتهم، لا مع إخوانهم من بني جنسهم فحسب، بل مأمورون كذلك بإظهارها تجاه الحيوانات والبيئة التي يعيشون فيها؛ فالمحبة والرحمة، كما اتضح مما سبق- موضوعان مشتركان في المصدرين الرئيسيين للشريعة الإسلامية: القرآن الكريم، والحديث الشريف.

وخلاصة القول إذن أنه ليس من العدل والإنصاف وصف الإسلام بأنه دين الكراهية، أو وصف الله ﷻ بأنه إله الانتقام والغضب، في حين أنّ رحمته ومحبته سبقتا غضبه، سواءً من ناحية ذكرهما في النصوص الدينية أم من ناحية تطبيقهما في أرض الواقع.

## التوحيد - عماد الإسلام

بناءً على الأدلة والحجج التي سقناها في الفصل السابق، ننتقل الآن إلى الأساس الجوهرى الذي ترتكز عليه العقيدة الإسلامية؛ ألا وهو التوحيد. والتعريف الأمثل له من المنظور الإسلامى: هو صرف جميع أنواع العبادة لله الواحد الأحد دون غيره، وهو الإقرار بأن الله ﷻ واحد لا شريك له فى ملكه وحكمه، ولا مثيل له فى ذاته وصفاته، ولم يكن له كفواً أحد فى ألوهيته وعبادته، وقد لخص الخليل إبراهيم ﷺ هذه الركائز على أتم وجه بقوله (كما حكا الله ﷻ عنه فى القرآن الكريم):

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (سورة الأنعام: 162).

يحسب الكثير من الناس أنهم يتبعون عقيدة التوحيد الصحيحة، ولا يدركون أن عبادة الله الواحد الأحد تتضمن أبعاداً أخرى لم يفكروا فيها فى حياتهم اليومية، وخصوصاً غير المسلمين؛ والسبب الرئيس لهذه الإشكالية هو أنه على الرغم من أن معظم الناس يؤمنون بأن الله هو الخالق، فإنهم لا يزالون يتوجهون بعبادتهم جزئياً أو كلياً إلى مخلوقات أخرى؛ ولكن من خلال الدراسة المتأنية والدقيقة للقرآن الكريم، تتجلى العديد من هذه الجوانب، وتلفت انتباه القارئ إليها.

إن المفهوم الأساسى الأول لوحدايته ﷻ هو أنه ﷻ رب العالمين، ومدبر أمورهم؛ فالله ﷻ وحده هو الذى خلق كل شيء، وهو الذى يرزق جميع خلقه ويرعاهم، وهو الغنى عنهم وعن عبادتهم، وهو سيد الكون بكل ما يحويه؛ فلا أحد ينافس سلطانه ومملكه، ولا يحدث أمر إلا بإذنه وعلمه. فعندما تضيق السبل على المسلمين وتشتد الأمور عليهم، فإنهم (اتباعاً لسنة حبيبهم رسول الله ﷺ)، يرددون عبارة "لا حول ولا قوة إلا بالله". وتؤكد الآيتان القرآنيتان التاليتان هذا الجانب من وحدانية الله؛ إذ يقول ﷻ فيهما:

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (سورة الزمر: 62).

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...} (سورة التغابن: 11).

وفى الحديث النبوي الشريف، نرى كذلك أساساً لهذا المفهوم الذى أشرنا إليه آنفاً، فعلى سبيل المثال: علم النبي أمته هذا المفهوم قائلاً ﷺ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك" (أخرجه الترمذى وأحمد).

عند ترجمة هذه النقاط التى تضمنها الحديث أعلاه إلى فهم عملي، ندرك أن قدرتنا على توجيه حياتنا أو حياة الآخرين من حولنا محدودة؛ إذ إن كل ما يسعنا فعله هو تحقيق أقصى استفادة مما نملكه من مواهب وقدرات وموارد منحنا الله ﷻ إياها. ومهما سعى الإنسان وأخذ بكل الأسباب، فإن النتائج تتوقف على إرادة الله ﷻ ومشيتته؛ إما بتتويج جهودنا بالنجاح، وإما بعدم تحقيق النتيجة المنشودة. أما ما يُسمى بـ "الحظ السعيد" و"الحظ السيئ"؛ فكل ذلك من إرادة الله، ولا تأثير لما يطلقون عليه "التعاويذ الجالبة للحظ السعيد"؛ مثل حدوات الحصان، أو أقدام الأرناب، أو البرسيم الرباعي الورق، أو أرقام الحظ، فمن العبث وقلة الإيمان أن يعتقد الإنسان فى خرافات الحظ السيئ؛ مثل: كسر مرآة، أو رؤية قطة سوداء، أو المشى تحت سلم خشبي،



بل يُعد -من المنظور الإسلامي- الاعتقاد بتأثير التمام أو الطوالع في حد ذاتها نوعاً من اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله في ملكه وسلطانه؛ والشرك هو الكبيرة الوحيدة في الإسلام التي لا يغفرها الله ﷻ؛ إذ إنه ينطوي على إنكار وحدانية الله ﷻ جملة وتفصيلاً.

نلاحظ أيضاً أن وحدانية الله ﷻ تتجسد في أسمائه الحسنى وصفاته العلا، كما وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ومن بين العديد من تلك الآيات القرآنية التي تتحدث عن صفاته ﷻ الآيتان الآتيتان:

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...} (سورة الأعراف: 180).

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (سورة طه: 8).

أما فيما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته العلا، فعلى العبد أن يلتزم بمعايير وقواعد لا يجوز له تجاوزها بأية حال من الأحوال.

أولاً: لا يجوز لنا أن نثبت لله ﷻ صفة أو اسماً، إلا ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ، ولا يجوز لنا أن نفسر هذه الصفات إلا بما نص الله ﷻ عليه، ونص عليه رسوله ﷺ. فعلى سبيل المثال، حينما يقول الله ﷻ في القرآن الكريم:

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...} (سورة الأعراف: 54).

علّق العديد من العلماء والمفسرين القدامى على هذه الآية، لكنهم جميعاً تجنبوا تفسير المعنى الحقيقي لقوله ﷻ "استوى على العرش"؛ من منطلق أن الله ﷻ لم يفسرها بنفسه في كتابه.

وحينما سئل الإمام مالك، أحد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة، عن تفسير هذه الآية، أطرق وسكت ملياً، ثم علّته الرُحَضَاءَ (العرق)، ثم رفع رأسه وقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وهكذا ليس لنا بد إلا التوقف عند الحد الذي أراده الله ورسوله لنا عند تفسير صفات الذات الإلهية.

ومع ذلك، يصف الله ﷻ نفسه، في مواضع أخرى من القرآن الكريم، بصفات تتجسد في خَلْقِهِ؛ كالمحبة، والرحمة، والكرم، والغضب، والقوة. وإن اتصف الخلق بهذه الصفات، فإن التشابه يتوقف عند هذا الحد؛ حيث تقول القاعدة: إن أي تشابه محسوس بين صفات الله وصفات البشر لا يكون إلا في الاسم، وليس في الدرجة أو الكمال. فحينما يصف الله ﷻ نفسه بهذه الصفات، يجب أن تُؤخذ بالمعنى المُطلق؛ خالية من النقائص البشرية.

بالإضافة إلى ذلك، هناك بعض الصفات البشرية التي يستحيل إسنادها إلى الله ﷻ؛ بسبب ما تنطوي عليه من نقص وضعف وعجز لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، فعلى سبيل المثال: يُدعى في الكتاب المقدس والتوراة أن الله فرغ من خلق الكون في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع؛ ولهذا السبب، اتخذ اليهود والنصارى يومي السبت والأحد على التوالي عطلتين أسبوعيتين للراحة، واعتبروا العمل في هذين اليومين خطيئة وإثمًا. ومن اللافت للنظر أن هذا الادعاء يثبت لله صفات كصفات مخلوقاته، وهي صفات نقص وعجز لا تليق بذاته العليا؛ فالإنسان هو الذي يصيبه العي والتعب بعد العمل الشاق، ويحتاج إلى النوم والراحة ليسترده عافيته،

وليس الله ﷻ، كما أن كثيرًا من الناس في مجتمعاتنا المعاصرة يعملون لمدة أسبوعين أو ثلاثة، وفي بعض الأحيان أربعة أسابيع متتالية دون أخذ عطلة أو راحة؛ فهل هؤلاء الناس أقوى من رب العالمين وخالق الكون؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا!

يستخدم المسلمون قاعدة عامة عند التطرق إلى صفات الله ﷻ تتمثل في الآية القرآنية التالية:

{...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (سورة الشورى: 11).

نستنتج من هذه الآية الكريمة أنّ الإنسان لا يمكنه أن يعرف عن صفات الخالق وأسمائه إلا ما أنزله سبحانه على لسان أنبيائه أو ذكره في كتبه، ومن ثمّ يجب أن نلتزم بهذه الحدود؛ لأننا إذا لم نلتزم بها، أصبحنا عرضة للوقوع في الضلال، وربما الكفر والبدعة؛ بإسناد صفات الخلق المحدودة لله الخالق ﷻ.

ورغم أنّ جوانب التوحيد سالفة الذكر ضرورية جوهرية في عقيدة المسلم، فإنها في حد ذاتها لا تكتمل ولا توتي ثمارها بمعزل عن الجانب النهائي للتوحيد الإسلامي؛ ألا وهو الخضوع والإذعان التام لله في العبادة والعمل. ويشير الله ﷻ إلى هذه النقطة بوضوح، حينما سجل ردود عبدة الأوثان العرب في زمن النبي ﷺ وقت أن طرحت عليهم مجموعة من الأسئلة، قائلاً:

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ...} (سورة يونس: 31).

لقد أقر العرب الوثنيون جميعًا أن الله ﷻ هو خالقهم ورازقهم وربهم وسيدهم، ولكنّ هذا الإقرار لم يكُ كافيًا عند الله لوصفهم بالمؤمنين؛ حيث قال ﷻ:

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} (سورة يوسف: 106).

إذن كان عبدة الأصنام والوثنيون في ذلك العصر يقرون أن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم ويجب دعاءهم في أوقات الشدة والضيق، ولكنّ هذا الإقرار لم يمنعهم من الإشراف بالله في العبادة أو من دعاء غيره ﷻ لقضاء حوائجهم، بل تعمدوا تبرير اتخاذ الشركاء مع الله، وهو أكبر الكبائر، بقولهم:

{...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...} (سورة الزمر: 3).

ومن ثمّ فإن الركن الركين في عقيدة التوحيد الإسلامي هو تكريس عبادتك لله وحده، دون غيره من جميع الخلائق والموجودات؛ فالله ﷻ هو وحده المستحق للعبادة، وهو وحده القادر على نفعك عندما تخضع له، وتخلص له في عبادته وتفرداها له ﷻ، وهذه هي الغاية التي من أجلها خلق الله البشر وغيرهم:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (سورة الذاريات: 56).

وفوق كل هذا، يتلو المسلمون في صلواتهم اليومية الآية التالية؛ لتذكيرهم بحقيقة الوجدانية وتطبيقها عمليًا:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (سورة الفاتحة: 5).

فهذه الآية بسيطة المبنى عميقة المعنى تأمرنا أن نصرف جميع صور العبادة لله وحده؛ فهو الإله الواحد الأحد الذي يسمع ويحيب من يدعوه. كما يذكر الله عباده الذين يحبهم أنه قريب منهم، يلبي حاجتهم، ويدبر شؤونهم، ويفرح حينما يلجؤون إليه متضرعين ومستسلمين لسلطانه وعظمته، فيقول ﷻ:

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (سورة البقرة: 186).

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ} (سورة النمل: 62).

وقد أرسى النبي ﷺ هذا التصور للتوحيد الإسلامي عندما علم أصحابه ذلك المعنى، وغرسه في نفوسهم ليكون نبراساً لهم طوال حياتهم؛ حيث قال ﷺ: "...إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ..." (أخرجه الترمذي)، وعنه ﷺ أنه قال: "لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ" (أخرجه الترمذي).

وفيما يتعلق بموضوع العبادة من المنظور الإسلامي، نلاحظ أن هذا المصطلح شامل يتضمن أعمالاً تتجاوز مجرد الصيام، والزكاة، والصلاة؛ حيث يشمل أعمال القلوب؛ مثل: المحبة، والتوكل، والخوف، تلك الأعمال التي يجب أن تُصرف جميعها لله ﷻ وحده؛ بالمعنى الذي يرضاه الله ﷻ ويحبه، وقد ذكر ﷻ أعمال القلوب هذه، وحذر من الإفراط فيها أو التضليل بها؛ إذ قال ﷻ:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...} (سورة البقرة: 165).

{...وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (سورة المائدة: 23).

خلاصة القول إذن هي أن مفهوم العبادة في الإسلام ينطوي على الطاعة الكاملة لأوامر الله ﷻ، والانصياع التام لها، كما يُقر له الحاكمية المطلقة، ومن ثمَّ يعدُّ رفضُ الشرائع السماوية المنزلة من عند الله ﷻ وتطبيقُ قوانين وضعية (من صنع الإنسان) -ولا سيما إذا كان المرء يعتقد في قرارة نفسه أن هذه القوانين الوضعية تُفضّل شرع الله- كُفْرًا، بل صورة من صور الشرك بالله ﷻ؛ حيث قال ﷻ:

{...وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} (سورة المائدة: 44).

وقد روي في السيرة النبوية ما يلي:

"قَدِمَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَصْرَانِيٌّ، فَسَمِعَهُ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...} قَالَ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ ﷻ: أَلَيْسَ يَحْرَمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحْرَمُونَهُ، وَيَحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَحْلُونَهُ، قَالَ: بَلَى، قَالَ ﷻ: فَتَلِكْ عِبَادَتُهُمْ" (أخرجه الترمذي)؛ وعليه، نفهم من الآيات القرآنية والأحاديث

النبوية التي سبق ذكرها أن طاعة الخلق في معصية الخالق تعدل عبادتهم واتخاذهم أندادًا من دون الله ﷻ.

يجب أن تدفع هذه المفاهيم متعددة الأبعاد الكثيرَ منّا إلى التوقف وإعادة النظر في: معتقداتنا، وأعمال قلوبنا، وأعمال جوارحنا من المنظور الإسلامي، فهل من المنطقي أن ندعي حبنا لله ﷻ وعبادته وحده ونلجأ إلى غيره كوسطاء وشفعاء؟ أو عندما ننحّي شريعته الغراء جانبًا مقابل الدساتير والقوانين التي تمثل آراء وأهواء البشر الذين هم أنفسهم ليسوا بمأمن من الضلال والفتنة والفساد؟

علينا باختصار العودة إلى كلام الله الجليل في كتابه الكريم؛ لنفهم مراده ﷻ، ونستوعب مفهوم التوحيد الإسلامي حسبما أثبتته الله ﷻ لنفسه حين قال:

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (سورة الإخلاص: 1-4).

## القرآن – كلام الله المنطوق

عندما نقر بوجود الله ﷻ، فإن السؤال التالي الأكثر أهمية، والذي يدور في أذهان كثير من الناس- هو: ما موقعنا في مقادير الله ﷻ الكبرى؟ فهل ثمة رسالة يريد ﷻ أن ينقلها إلينا؟ وهل يدبر الله ﷻ شؤوننا وشؤون العالم الذي خلقه من أجلنا؟ وما الغاية من الحياة وما نراه وما نعانیه من مأسٍ ومصائبٍ وابتلاءاتٍ؟

لا شك أن المتأمل في الواقع القرآني يجد أنّ الله ﷻ قد أنزل رسالته إلى البشرية كافة للإجابة عن هذه الأسئلة، وغيرها من التساؤلات الأخرى التي لا تتوقف بمرور الزمن واختلاف الأجيال؛ وتلكم الرسالة هي القرآن الكريم؛ حيث يقول الله ﷻ مخاطباً نبيه ﷺ:

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} (سورة النساء: 163-165).

### ولكن ما القرآن؟

القرآن هو الكتاب المقدس الأكثر تلاوة والأوسع انتشاراً في العالم الحديث<sup>1</sup> وعلى مدار الألفية الماضية، وتعدُّ قراءته بنأى وتدبرُ معانيه العميقة نوعاً من العبادة في الإسلام. وهو الكتاب السماوي الذي غير-منذ نزوله- قلوب وعقول كثيرٍ ممن استمعوا لآياته الخالصة؛ إذ إنَّها ترغمك على التفكير، وتجبرك على الاختيار، وهو الكتاب المعجز والمُعظم بالقدر الذي يدفع الآلاف من الرجال والنساء والأطفال إلى حفظه كاملاً عن ظهر قلب، كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، والقرآن يتكون من آيات وليس مقاطع؛ وكل آياته معجزات مستمرة تزخر بمظاهر الهداية والجلال والجمال.

زد على ذلك أن القرآن الكريم أصح الكتب في العالم<sup>2</sup> على الإطلاق؛ ورغم أنه أصح كتاب مقدس في العالم، لم يسلم من الطعن والتشكيك على مر التاريخ؛ فمذَّ نزوله على النبي ﷺ، سعى كثير من المشركين إلى صد الآخرين عن سماعه أو قراءته، بل وصل الأمر إلى أن بعض الحكومات حاولت حظر تداوله في الآونة الأخيرة<sup>3</sup>. فلماذا استدعى القرآن كل هذه الإجراءات القاسية والحرب الشرسة؟

<sup>1</sup> ماكثير، أوليفر (McAteer, O) (15 يوليو 2015). الكتاب الأكثر شهرة على الإطلاق ليس هاري بوتر، بل القرآن (The most popular book) <https://metro.co.uk/2015/07/15/the-most-popular-book-of-all-time-isnt-harry-potter-5297319>

<sup>2</sup> كامسين، أمير الدين (Kamsin, Amirrudin) وآخرون. (2015). تطوير نظام صحة رواية القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. (Developing the novel Quran and Hadith authentication system) 10.1109/ICT4M.2014.7020640

<sup>3</sup> بارفيت، توم (Parfitt, T)، (27 أغسطس 2016). المرشح الأرجح لمنصب رئيس الوزراء الهولندي القادم يتعهد "بحظر" القرآن و"إغلاق" جميع المساجد (Favourite to be next Dutch PM vows to BAN the Koran and CLOSE all mosques). مُقتبس من: <https://www.express.co.uk/news/world/704172/Geert-Wilders-Islam-religion-Muslim-Koran-PVV-Dutch-Freedom-Party>

<sup>4</sup> هيفرون، كلير (Heffron, C)، (28 سبتمبر 2017)، أصدرت الشرطة الصينية أمراً للمسلمين بتسليم جميع نسخ القرآن وسجادة الصلاة وإلا واجهوا "عقوبة قاسية" (Chinese police order Muslims to hand in all copies of the Koran and prayer mats or face 'harsh punishment'). مُقتبس من: <https://www.dailymail.co.uk/news/china/article-4929064/Chinese-police-ask-Muslims-hand-copies-Koran.html>

على الرغم من أن إجراء الدراسة الكاملة أو المتعمقة حول القرآن الكريم تتجاوز نطاق هذا الكتاب، فإننا سنعطي إجابات شافية كافية عن هذه الأسئلة؛ حتى نساعد القارئ على تكوين تصور سليم، ليكون بمثابة نقطة الانطلاق لمواصلة الدراسة المتعمقة.

كلمة قرآن، أو الأصوب القرآن، لفظة عربية محضة تعني "التلاوة والقراءة"، وهو رسالة الله ﷻ ودستور الحياة الكامل الشامل الذي أنزله إلى البشرية كافة منذ بعثة النبي ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وأكثر ما يميّز القرآن أصالته وصحته؛ فكل كلمة فيه هي من كلام الله ﷻ.

فادعاء كثير من الناس أنّ محمداً ﷺ هو من ألف القرآن أبعد ما يكون عن الحقيقة، بل الخيال أيضاً؛ فالقرآن ليس كتاباً من تأليف النبي ﷺ أو أحد من البشر، بل هو منزلٌ من عند الله ﷻ؛ فهو كلامه ﷻ الذي تكلم به كما نزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل ﷺ. وحتى يعلق الله باب الافتراءات والتشكيك، وصف ﷺ رسوله ﷺ بأنه أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما في الآية الآتية:

{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (سورة العنكبوت: 48)

وكما قال ﷻ:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...} (سورة الأعراف: 157)

وفي الحقيقة، كانت أمية النبي ﷺ أولى المعجزات التي تضمنها القرآن الكريم، هذا إلى جانب أنه في حد ذاته معجزة خالدة وباقية أبد الدهر مُنحها النبي ﷺ، فعلى الرغم من أنه ﷺ كان معروفاً بين قومه بأميته، أتى بآيات من كتاب أقر الجميع ببلاغته وعظمته، ولو كان النبي ﷺ شاعراً أو ناثراً قبل الوحي، لظن الناس أنه اختلقه من عنده.

كان النبي ﷺ، على غرار الأنبياء السابقين، "الوسيط" الذي ينقل الرسالة الربانية والوحي إلى البشر، كما كان القدوة والنموذج الحي؛ ليحتذى به في توضيح معاني الآيات وفهمها، وتحويلها إلى واقع عملي في الحياة اليومية، كل ذلك من خلال الوحي الذي كان ينتزل عليه طيلة فترة البعثة النبوية.

وعليه، فإنّ القرآن هو المعجزة الباقية التي أُعطيها النبي ﷺ؛ فهو معجزة لم تقتصر على أهل عصره فحسب، بل تشمل كل الأجيال التي تلت، والأجيال اللاحقة إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. ولا يخفى على اليهود والنصارى أنه كلما أرسل الله ﷻ رسولاً إلى الأمم السابقة، كان ﷻ يؤيده بالمعجزات؛ لإثبات أن الرسالة التي يحملها للبشر من عند الله ﷻ خالق الكون، فعلى سبيل المثال: في زمان موسى ﷺ، كان قوم فرعون منغمسين في السحر والشعوذة، واغترتوا بأنهم وصلوا إلى ذروة هذا الفن المظلم؛ ومن ثم كانت الغاية من معجزات موسى ﷻ -مثل تحوّل عصاه الخشبية إلى حية تسعى، وتحوّل نهر النيل إلى دم، وانشقاق البحر الأحمر (من بين معجزات أخرى)-. إذلال المنكرين، وتذكيرهم بأن قوة الله ﷻ وسلطانه وقدرته حقيقة، وليست مجرد حيل يدوية أو خدع بصرية.

وبالمثل، أرسل المسيح عيسى ابن مريم ﷺ في زمن ظنّ فيه بنو إسرائيل والرومان أنهم اكتشفوا كل شيء عن الطب، وفاقوا كل الأمم التي عاصرتهم في هذا المجال، ومع ذلك، عندما واجهوا حالات مثل البرص والعمى، عجز "علمهم" مقارنة بقوة الله ﷻ وقدرته؛ فإله ﷻ لم يمنح المسيح القدرة على شفاء الأبرص والأكمه فحسب، بل منحه أيضاً القدرة على إحياء الموتى! وما كان لهذه المعجزات وغيرها أن تحدث إلا بإذن الله ﷻ وحده. وهكذا بات من الواضح لمن رزقهم الله عقولاً فطنةً وقلوباً خاشعة أن الله ﷻ هو القوي القدير، وأن قوة من سواه وقدرته مرهونة بإذنه ﷻ، ولا تأتي من تلقاء ذاتها.

ومن المنطلق ذاته، واجه النبي ﷺ قومه بوضع مماثل عند بعثته؛ فمع بداية القرن السابع الميلادي، ظن العرب في شبه الجزيرة العربية أنهم وصلوا إلى ذروة البلاغة والفصاحة، تلك التي تجلت بصورة أساسية في أشعارهم وكلامهم. وإذا أجرينا دراسة للشعر العربي في هذه الحقبة، اكتشفنا ثروة هائلة من الشعر البديع الذي يُظهر الفهم العميق والاستخدام العبقري لقواعد اللغة العربية وفنونها؛ عندئذ نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷻ.

أسلم عدد لا يحصى من الرجال والنساء، وحتى الأطفال، بعد سماع آياته الجليلة التي تسلب الأبواب والأسماع؛ فهؤلاء أدركوا أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو مختلف؛ فهو كلام عميق المعنى عظيم الأثر؛ حيث خاطبت الكلمات القرآنية أرواحهم، وناشدت طبائعهم، وتحدثت كبرياءهم، وغيّرت تفكيرهم، ولكن هل توقفت تلك المعجزة الخالدة عند هذا الحد؟ بالطبع لا.

فمع انتشار الإسلام متجاوزاً حدود شبه الجزيرة العربية إلى مناطق لم يسكنها العرب، سرعان ما فرضت معجزة القرآن نفسها على هذه المجتمعات الجديدة، فكان وقع القرآن في نفوس الذين أسلموا فريداً؛ فقد أسفر عن مستوى من الولاء والالتزام لم يعهده الناس في الديانات أو العقائد الأخرى، فضلاً عن أنه قدّم البراهين والأدلة التي غابت عن غيره من الكتب التي يدعي أصحابها أنها منزلة من عند الله ﷻ. لقد خاطب القرآن قلوب البشر، وأجاب عن أسئلتهم، ولم يأمرهم بـ"الإيمان الأعمى"، فعلى سبيل المثال: بعد أن تحدث الله ﷻ في القرآن عن حقيقة المسيح (ذاكراً أنه من بين الرسل الذين أكرمهم بالرسالة، وأنه ليس بأية حال من الأحوال ابن الله أو الله أو الأب كما يدعون)، قال ﷻ:

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} (سورة آل عمران: 61-60).

وقد واجه الرسول ﷺ -بأمر من الله ﷻ- وفد النصارى الذين قدموا من نجران -شمال اليمن- بهذا التحدي، ولكنهم امتنعوا عن قبوله بعد ليلة طويلة عجّت بالجدال والمناظرة، وفي الحقيقة، كان هذا التحدي -وهو دليل من نوع خاص- موجّهاً لمن يشك في معتقده. فإذا آمن شخص إيماناً جازماً بأن المسيح هو الله أو ابن الله، فلن يسعه إلا قبول هذا التحدي، والدعاء بإنزال لعنة الله على نفسه وأهله أو قومه إن كان على خطأ وضلال. ومثل هذه التحديات سمة تتميز بها الكتب الدينية، إلا أن القرآن يحتوي على عدد لا يُحصى من التحديات والذنر التي تُعد سمة من سماته الفريدة، ولكن هل توقفت المعجزة القرآنية عند هذا الحد؟ بالطبع لا.

## القرآن الكريم والعلم الحديث

ظل الإسلام ينتشر في ربوع الأرض عبر القرون حتى انتهى إلى عصر العلم الحديث؛ في القرن العشرين تحديداً، ففي هذا العصر، بدأت معجزات قرآنية جديدة، تتجلى عندما بدأت الاكتشافات العلمية تثبت العديد من الآيات التي تحمل إشارات علمية.

ورغم أنّ القرآن الكريم قد تميّز مؤخراً في مجال المعارف العلمية، فيجب ألا ننسى أنّه ليس كتاباً علمياً في الأصل، وإنما كتاب هداية وإرشاد؛ فالله ﷻ يدعو القارئ إلى عبادته إلهاً واحداً من خلال الآيات القرآنية التي تتضمن حقائق ومفاهيم علمية؛ وهو أسلوب تميز به هذا الكتاب المعجز دون غيره من الكتب السابقة، فعلى سبيل المثال: يقول الله ﷻ في معرض إثباته مسألة البعث يوم القيامة:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ} (سورة الحج: 5-7).

ففي تلك الآيات الكريمة السابقة، يستخدم الله ﷻ التصور العلمي الحالي لعلم الأجنة! بعبارات مفصلة لم تتبلور إلا في أواخر القرن العشرين، مع ظهور الإلكترونيات والفحص المجهرى فائق الدقة، ولا يهدف الله ﷻ بهذه المراحل إلى إرساء المعرفة العلمية المحضة، بل إلى التأكيد على أن يوم القيامة حقيقة واقعة لا محالة.

ولا شك أنه لم يسبق إلى هذه الحقائق العلمية المذهلة سوى الخالق نفسه ﷻ؛ فهو الذي أطلعنا على مراحل التطور البشري منذ أكثر من ألف عام، قبل أن نتصور هذه المراحل بأنفسنا عن طريق الأجهزة والوسائل العلمية الحديثة، وقد بيّن الله ﷻ لنا القيمة الروحية لهذه الآيات العلمية حين قال ﷻ:

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (سورة فصلت: 53).

ومن ثمّ، يتّضح لنا أنّ القرآن الكريم يدعو الإنسان في مواضع عديدة إلى التفكير، وإعمال العقل، وفهم الأسباب الداعية للإيمان، فضلاً عن أنه لا يطلب منه التحلي بالإيمان الأعمى الذي يخلو من التأمل والتدبر.

ومن اللافت للنظر أن كلمة "faith" في اللغة الإنجليزية تقابل لفظ "إيمان" في اللغة العربية، وهي مشتقة من الجذر الثلاثي "أمن"، وتعني: الأمان والأمن والثقة، وتلك المشاعر لا تقر في القلب إلا بعد المعرفة اليقينية بالشيء الذي تؤمن به، فعلى سبيل المثال: إذا قابلت شخصاً غريباً في الشارع، وطلب منك ركوب سيارته، فهل ستثق به؟ بالطبع لا؛ لأنّه لم يثبت أنه جدير بثقتك بعد؛ لكن إذا قابلت صديقك المقرب، وعرض عليك أن يوصلك بسيارته، لكان الأمر مختلفاً تماماً؛ لأنك تعرفه وتطمئن إليه.

<sup>1</sup> علم يهتم بدراسة تطور الإنسان من مضغة إلى جنين في رحم الأم.



وهكذا يعرض الله ﷻ هذه الأمثلة وغيرها في القرآن في إلماحة موجزة دالة على طلاقة علمه وقدرته؛ حتى يهيب لك كل الأسباب المقنعة القاطعة التي تدعوك إلى الإيمان به والإقرار برسالته المنزلة. وأنت حينما تثبت من كل هذه الحقائق، ستؤمن حتمًا بالأمر الغيبية، وستقطع بإمكانية حدوثها؛ أمور من قبيل: الجنة، والنار، ويوم القيامة... وما إلى ذلك. وهنا، يجب أن نلقي نظرة على أمثلة أخرى من الحقائق العلمية المذهلة في القرآن الكريم، ومن ثم نتدبر كيف يورد الله ﷻ هذه الآيات لدعوة الناس إلى عبادته.

## التوسّع المستمر للكون

ظل علماء الفلك قُبيل مطلع القرن العشرين يعتقدون أن الكون ثابت لا يتغير، وظنوا أنه عندما نشأ لم تتغير أبعاده تغيرًا كبيرًا، ولكن ثبت خطأ هذه النظرية في مطلع القرن العشرين.

ففي عام 1925، قدم إدوين هابل (Edwin Hubble) (الذي سُمي تلسكوب هابل الفضائي باسمه) أول دليل رسدي على توسّع الكون، وهذا يعني أن الكون منذ نشأته ظل يتسع بلا انقطاع. وفي هذا الصدد، يقول الراحل ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) (أحد كبار علماء الفيزياء الفلكية في العصر الحديث، ومؤلف كتاب "تاريخ موجز للزمان" (*A Brief History of Time*): "لم يكن الكون في حالة جمود وثبات، على عكس ما كان يراه الجميع في السابق، وإنما هو في حالة مستمرة من التمدد والتوسع"<sup>1</sup>.

ماذا يقول رب العزة ﷻ في القرآن قبل هذا الاكتشاف بنحو 1300 عام، وقبل إطلاق تلسكوب هابل الفضائي بنحو 1400 عام؟  
إنه يقول ﷻ: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (سورة الذاريات: 47).

## الجبال تشبه الأوتاد في الأرض

يُقصد بعلم الجيولوجيا دراسة الأرض؛ من حيث خصائصها وتكوينها وسلوكها، كالظواهر التي تشمل: الزلازل، والينابيع الساخنة، وحركة الصفائح التكتونية. ومن بين الاكتشافات الحديثة للجيولوجيا الحديثة ظاهرة تُسمى توازن القشرة الأرضية، والتي تقوم على الحقيقة التي مفادها أن الجبال تحتوي على جذور عميقة تحت قشرة الأرض تخترق طبقة الوشاح.

ولقد كان السير جورج بيدل إيرلي (George Biddell Airy)، عالم الفلك البريطاني الملكي، أول من ابتكر نظرية توازن القشرة الأرضية في عام 1855؛ وتنص على: أن السلاسل الجبلية لا بد أن يكون لها هياكل جذرية قليلة الكثافة تتناسب مع ارتفاعها، بهدف الحفاظ على التوازن الأيزوستاتي. وقد أكدت البيانات السيزمية وبيانات الجاذبية وجود الهياكل الجذرية هذه منذ ذلك الحين<sup>2</sup>.  
تضمن القرآن هذا الوصف الدقيق في الآيتين التاليتين؛ حيث يذكر الله ﷻ البشرية بِنِعْمَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِم،

<sup>1</sup> هوكينج، ستيفان وويليام (Hawking, S.W) (1988). نشأة الكون (*Origin of the Universe*). مُقتبس من:

<http://www.ralenz.com/old/astro/hawking-1.html>

<sup>2</sup> تاربولك، إدوارد (Tarbuck, E.J) ولوتجنز، فريدريك (Lutgens, F.K) (1982). علوم الأرض (*Earth Science*)، الطبعة الثالثة، كولومبوس: شركة تشارلز إي ميريل للنشر.

وكيف ينبغي لهم أن يشكروه عليها ويعبدوه وحده دون إشرارك الآلهة الباطلة في عبادته:  
{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} (سورة النبا: 6-7).

ونقول مكررين إن الأوصاف القرآنية تتفق تمامًا مع المعطيات الجيولوجية والرصد الجيولوجي الحديث، إلا أن القرآن الكريم احتوى على هذه الإشارات لما يزيد على ألف عام، قبل أن يتمكن علماء الجيولوجيا المعاصرون من وضع نظريات حول الاكتشافات الحالية؛ فهل ستظل بعد كل هذا تكذب الرسالة البليغة المعجزة المتضمنة في القرآن الكريم؟

## مستويات الظلام في المحيطات

تصف إحدى الآيات القرآنية بصورة تثير الدهشة مستويات الظلام في المحيطات، وتشبّهُها بمستويات حالة عدم الإيمان بالله ﷻ وتكذيب الإسلام.

قال الله ﷻ: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} (سورة النور: 40).

من المعروف حديثاً أن الظلام في لُجج البحار والمحيطات يتكون من مستويات مختلفة؛ حيث يحدث انفصال تدريجي للطيف الضوئي بين سطح الماء وعمق يبلغ نحو 100-200 متر (300-600 قدم)؛ ومن ثم يظهر لون واحد في كل مرة حتى بلوغ الظلام القريب<sup>1</sup>. ولتوضيح هذه النقطة باستفاضة، نقول: إن الطول الموجي للضوء الأحمر يُحجب (يُمتص) تمامًا عند عمق معين؛ ومن ثم لا يمكن رؤية اللون الأحمر بعد هذا العمق، كما يُحجب الطول الموجي للضوء الأخضر تمامًا عند عمق آخر، وتحدث الظاهرة نفسها لجميع الأطوال الموجية لألوان الطيف السبعة الأخرى لأشعة الشمس في طيف الضوء المرئي.

وبعد تجاوز عمق الـ 200 متر (600 قدم) هذا، وحسب موقع المُسطح المائي ذي الصلة، يكاد ينعدم الضوء؛ لأن الأطوال الموجية لجميع الألوان تقريباً، باستثناء اللون الأزرق، قد حُجبت بالكامل عند هذه النقطة، ومع ذلك لا يحل الظلام الدامس المطلق إلا بعد تجاوز عمق مقداره 1000 متر (أكثر من نصف ميل أسفل سطح البحر!)، بحسب ما ذكرته الإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوي<sup>2</sup>. وعلى الرغم من استمرار تحطيم الأرقام القياسية في الغوص، يعجز الإنسان عن الغوص على عمق يزيد على نحو 250 مترًا<sup>3</sup> (750 قدمًا) دون الاستعانة بالغواصات أو المعدات الخاصة للغوص في أعماق المياه<sup>4</sup>؛ نظرًا للزيادات التدريجية الهائلة في الضغط الذي يؤثر على الرنتين<sup>5</sup> ومخزون الهواء المتاح.

ومع ذلك، ساعد تطوير معدات الغطس والغواصات الخاصة في القرن الماضي علماء المحيطات وغيرهم من الباحثين على الغوص إلى أعماق لم يسبق للإنسان الوصول إليها من قبل، وعندها فحسب تمكنوا من وصف ظاهرة امتصاص الضوء والظلمة التدريجية بعد معاشتها معيشة حية، ومن ثم توافق الوصف القرآني لظاهرة الظلمات المتراكبة {... ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ...} تمامًا مع الحقائق سالفة الذكر، والتي

<sup>1</sup> <https://manoa.hawaii.edu/exploringourfluidearth/physical/ocean-depths/light-ocean>

<sup>2</sup> [https://oceanservice.noaa.gov/facts/light\\_travel.html](https://oceanservice.noaa.gov/facts/light_travel.html)

<sup>3</sup> في 6 يونيو 2012، نزل غواص حر، يُدعى هيربرت نيتش، على عمق 253 مترًا في اليونان.

<sup>4</sup> في عام 2014، حطّم الغواص والعالم الخبير، أحمد جبر، الرقم القياسي للغوص العميق على مسافة 1082 قدمًا (332 مترًا).

<sup>5</sup> يُقدّر الضغط الواقع على جسم الإنسان عند عمق 330 مترًا بنحو 485 رطلًا لكل بوصة مربعة.

يمكن ملاحظتها فيما يتعلق بانفصال الضوء التدريجي إلى الحد الذي يكاد يندمج فيه الضوء (على عمق 200 متر)؛ إذ يقول الله ﷻ: {...إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا...}، ثم الانتقال إلى الظلمة المطلقة؛ حيث يقول ﷻ: {...وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} (سورة النور: 40).

## الأمواج الداخلية في المحيطات

ثمة ظاهرة أخرى اكتشفت مؤخرًا في دراسة المحيطات، وهي الأمواج الداخلية في المحيطات أو أعماق البحار. فطبقًا للجزء الأوسط من الآية القرآنية المذكورة أعلاه، والتي يقول فيها الله ﷻ: {...يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ...}، اكتشف أن هناك أمواجًا داخلية في لجج البحار والمحيطات، وتعلو هذه الأمواج أمواجًا أخرى. ويتضح أن المجموعة الثانية من الأمواج المذكورة هي الأمواج السطحية التي تُرى بالعين البشرية المجردة؛ لأن الآية تقول: إن فوق الأمواج الثانية سحبًا؛ إذن، ما المجموعة الأولى من الأمواج؟

من المثير للاهتمام أن الدراسات الحديثة للمحيطات أثبتت وجود أمواج داخلية "تتكوّن على السطوح البيئية الفاصلة بين المياه العذبة والمالحة بين طبقات ذات كثافات مختلفة"<sup>1</sup>. ويعني هذا أنه يمكن العثور على هذه الأمواج الداخلية بين مناطق تركيز الأملاح في المحيط التي تتمتع بدرجات حرارة مختلفة. وقد اكتشف معظمنا ممن سبق لهم الذهاب للسباحة في المحيط مناطق معينة يكون فيها الماء لطيفًا ودافئًا، ولكن عند التعمّق قليلًا في المسطح المائي، يصبح الماء فجأة أكثر برودة، وتعد هذه إحدى الأسطح البيئية المذكورة سابقًا والتي تضم مجموعة من الأمواج المرصودة علميًا. ولا يمكن رؤية الأمواج الداخلية بالعين المجردة، ولكن يمكن اكتشافها من خلال دراسة تغيّرات درجات الحرارة أو تركيز الأملاح في أعماق مختلفة من المياه.

وبطبيعة الحال تثير المبادئ العلمية المذكورة أنفًا الفضول والتساؤل بلا شك، ولكن كما ذكرنا سابقًا، ليس المقصود من هذه الرسالة الإلهية عرض دروس علمية، بل الغاية منها هداية البشرية لعبادة الله ﷻ الواحد، وقد أوضح المغزى الذي تتضمنه هذه الآيات تلك الحقيقة تمامًا.

شُبّهت -في الآيات السالفة- بظلمة مياه البحار حالة نفوس الذين ينكرون القرآن الكريم وينبذونه وراء ظهورهم، وبطبيعة الحال تتفاوت مستويات الناس في الضلال والإنكار؛ ومن ثمّ جاء التشبيه بمستويات الظلمات المختلفة أو أعماقها. وتصور الآية حالة التخبط التي تنتاب بعض النفوس التي لبثت في ظلمة الإنكار والجحود، كما لو كان أصحابها عميًا؛ ولكن ليس العمى العمى البصر، وإنما عمى البصيرة؛ فلم يعد بإمكانهم التمييز بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل. وتختتم الآية ببيان أن النور، أي: الهداية الربانية التي تجعلك تميز بين الخطأ والصواب- ليس إرادة فردية فحسب (على عكس مستويات الظلام الكثيرة)، ولكنه يأتي من عند الله وحده؛ إذ لن ينال العبد هداية الله ﷻ إذا لم يلجأ إليه متضرعًا ومتذللًا يطلب منه هذه الهداية. أقر بعض العلماء الذين طبقت شهرتهم الأفاق أن هذا القرآن لا يصدر إلا عن الله ﷻ، لكنهم مع ذلك رفضوا الخضوع له ﷻ والانقياد لأمره، وأيقنوا أن من يزعم أن محمدًا ﷺ أُلّف القرآن من تلقاء نفسه جاهل أحمق.

<sup>1</sup> ماسل، ستانيسلاف (Massel, S.R) (2015). أمواج الجاذبية الداخلية في البحار الضحلة (Internal Gravity Waves in the Shallow Seas). مُقتبس من: [https://www.springer.com/cda/content/document/cda\\_downloaddocument/97\\_83319189079-c2.pdf?SGWID=0-0-45-1516574-p177380738](https://www.springer.com/cda/content/document/cda_downloaddocument/97_83319189079-c2.pdf?SGWID=0-0-45-1516574-p177380738)

فهذا الزعم يفترض أنّ محمداً ﷺ كان لا بد أن يسافر عبر الزمن ليشهد الانفجار العظيم ليصفه لنا، ثم يرصد توسع الكون ويخبرنا عنه، ثم يسافر إلى أعماق لب الأرض المنصهرة لكي يصف لنا "جذور" الجبال.

بل على حد زعم هؤلاء، كان لا بد لهذا النبي العظيم من الذهاب إلى أبحر المحيطات للغوص في أعماق لم يستطع أحد من البشر البقاء فيها على قيد الحياة دون الاستعانة بالوسائل والأجهزة المادية، ورصد مبادئ الضوء والأمواج المذكورة فيما سبق، ثم إيجاد منسج من الوقت لتقديم وصف تفصيلي مذهل عن المراحل التكوينية لنمو الإنسان في الرحم بعينين أقوى من المجهر الإلكتروني الحديث؛ فمن هذا الذي يصدق مثل هذه الحكايات الخيالية ويتجاهل قدرة الخالق ﷻ؛ فهو القادر على إطلاعنا على كل هذه المعلومات بل ما هو أكثر من ذلك؟ وبرغم حماقة الصارخة التي تشوب طريقة التفكير هذه، خدع الكثير من الناس أنفسهم على هذا النحو. وهكذا يذكرنا الله ﷻ مرة أخرى قائلاً: {...وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ} (سورة النور: 40).

### الإعجاز العددي في القرآن الكريم

ثمة معجزة مذهلة أخرى للقرآن، وهي الرمز أو التركيب العددي لآياته، وهذا المجال من أحدث الدراسات ذات الصلة؛ لأنه يعتمد بصورة رئيسة على التحليلات الحاسوبية للآيات لكشف الأنماط، ومن ثم كانت العديد من الاكتشافات المذهلة، فسبحان الله العظيم!

على غرار مناقشة الآيات العلمية أعلاه، هناك الكثير من جوانب الإعجاز التي تستلزم البحث والتفصيل، ولكنني سأركز على نقطة واحدة مثيرة للعجب والدهشة، وقبل أن أبدأ في تفصيلها، أود أن أنبه القارئ إلى أن هناك عدداً من الأشخاص ضلوا طريق الحق؛ نتيجة اعتقادهم أن كل شيء في الحياة نابع من أرقام أو رموز معينة.

ومن غريب المفارقات أن إحدى الجماعات التي ضلت طريق الحق اتبعت رجلاً أشاع أن الرقم 19 هو مفتاح بعض الأنماط في القرآن الكريم، بعد ذلك ادعى ذلك الرجل النبوة، ثم بدأ يحرف في الإسلام والقرآن الكريم ليتناسبا مع أفكاره؛ ولأن الله ﷻ هو الحافظ لدينه حفظاً مطلقاً، فقد فشل هذا الرجل وأمثاله في الماضي في تحقيق مآربهم ونواياهم الخبيثة، بل إن أي شخص آخر ستسول له نفسه، ويحيك مثل هذه المخططات المنهورة في المستقبل- سيصل بلا شك إلى النتيجة ذاتها.

لا تكمن معجزة القرآن في الحقائق العلمية، أو الأعداد، أو البلاغة، أو اللمحات التاريخية فحسب، بل جعله الله ﷻ نبراساً يرفع به شأن الصالحين الذين يعبدونه حق عبادته، ويسيرون العدل، وينشرون الفضيلة. وعلى كل حال، صحيح أنه ينبغي أخذ الموضوعات الجانبية بعين الاعتبار، ولكن لا يجب اعتبارها الرسالة الأساسية أو الغاية القصوى للقرآن.

يكتشف الدارس للإعجاز الرياضي في القرآن الكريم الوارد في هذا الكتاب أن هذا الجانب الإعجازي يتعلق بعيسى ﷺ. وبما أن صور الإعجاز العلمي لم تنزل لغاية العلم، وإنما لهداية البشرية، فإن هذه الحقائق الرياضية القرآنية تؤكد الغاية نفسها؛ ألا وهي الهداية، قال الله ﷻ: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (سورة آل عمران: 59).

إذن، بالنظر إلى هذه الآية المثيرة للاهتمام من الناحية الرياضية، يستطيع المرء أن يقول إن عيسى = آدم عند الله ﷻ؛ لأن كليهما خلق بكلمة الله "كُن"؛ فأدم خلق من تراب، من غير أب أو أم؛ حيث قال الله ﷻ له: "كُن"، وبالمثل، حملت مريم بعيسى ﷺ دون أن يمسه بشر (الحبل البتولي) عندما قال الله ﷻ له "كُن"، فكان عيسى ﷺ بحول الله وقوته.

وفي سياق الرد على الذين يزعمون أن المسيح عيسى هو الله أو ابن الله، بسبب الحمل البتولي للسيدة مريم ﷺ، فإن الله يذكرهم بأن خلق آدم معجزة أشد غرابة من خلق عيسى نفسه؛ فأدم ﷻ وُلد من غير أب ولا أم، فأجسادنا المادية في الأصل مخلوقة من التراب، وعيسى ﷺ عند الله ﷻ كمثل آدم الذي خلقه من تراب، وإذا كانت هذه أهم الدروس الدينية المستفادة من هذه الآية الكريمة، فأين المعجزة إذن؟

### النقطة الرياضية الأولى

لو بحث المرء في القرآن الكريم بأكمله، لاكتشف أن اسم "عيسى" ورد في خمسة وعشرين موضعًا، ووجد أن اسم "آدم" ذُكر كذلك في خمس وعشرين آية قرآنية، ومن ثم، لا يقتصر التشابه بين آدم وعيسى في طبيعتهما الخلقية، ولكن يتشابهان أيضًا في الناحية الرياضية في عدد المواضع التي ذُكر فيها كل منهما.

### النقطة الرياضية الثانية

عند التعمق في الآية المذكورة أعلاه، يتبين لنا أن الاسمين (آدم وعيسى ﷺ) لم يُذكرَا معًا في أي موضع آخر إلا في قوله ﷻ: { **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...** } (سورة آل عمران: 59)، وباحتساب عدد المرات التي ذُكر فيها اسم كل نبي منهما من بداية القرآن، سنتعجب حين نكتشف أن هذه هي المرة السابعة التي يُذكر فيها كلاهما. وباحتساب عدد المرات من نهاية القرآن، تمثل هذه الآية أيضًا المرة التاسعة عشرة التي ذُكر فيها كلا النبيين؛ فهما متساويان في عدة أوجه.

### النقطة الرياضية الثالثة

تتوافق المرة التاسعة عشرة التي ذُكر فيها "آدم" مع المرة التاسعة عشرة التي ذُكر فيها "عيسى"؛ فكلاهما ذُكر في السورة التاسعة عشرة (سورة مريم)، وبالمقارنة مع النقطة الرياضية الثانية السابقة، نلاحظ أنها أيضًا المرة السابعة لذكرهما من نهاية القرآن.

### النقطة الرياضية الرابعة

ذُكر اسم "عيسى" للمرة التاسعة عشرة في السورة 19 في الآية 34، وفي الآية 58 من نفس السورة ذُكر اسم "آدم". ومن الآية (34) حتى الآية (58)، نجد 25 آية (باحتمساب الآية 34 على أنها الآية الأولى من الآيات الخمسة والعشرين "25")، ونحن نعلم أن الرقم 25 يمثل عدد المرات التي ذُكر فيها الاسمان في القرآن الكريم.

هذا مجرد مثال واحد على الإعجاز الرياضي المحير للعقول في آية واحدة من آيات القرآن الكريم! فالله ﷻ يبين لنا أن عيسى و آدم لا يتشابهان في نشأتهما الخلقية المعجزة التي صارت بكلمة "كُن" فحسب، بل في الناحية الرياضية كذلك.

## حفظ القرآن من التحريف

تقودنا هذه النقطة الأخيرة من مقدمتنا للقرآن إلى واحدة من أهم خصائصه العملية؛ ألا وهي حفظه من التحريف والتبديل. فمن المنظور المنطقي، إذا أراد الله ﷻ أن ينزل رسالة إلى البشر كافة من زمن النبي محمد ﷺ حتى يوم القيامة، فمن الضروري أن تُحفظ هذه الرسالة من أي تغيير أو تحريف، سواء بالزيادة أو النقصان.

وتُعدُّ هذه النقطة في حد ذاتها واحدة من أقوى الحجج التي تُساق في مواجهة الادعاء القائل بأن النصرانية هي الرسالة الربانية الأخيرة للبشرية. وكما هو موثَّق بالمصادر، فإن اللغة التي استخدمها المسيح لدعوته في حياته كانت في الأساس اللغة الآرامية<sup>1</sup>؛ ولذلك، من الطبيعي أن تكون بحوزتنا نسخة إنجيل واحدة باللغة الآرامية، وألا نرى أثرًا لنسخ أخرى مختلفة، لكنَّ المشكلة تكمن في عدم توقُّر إنجيل أو كتاب مقدَّس أصلي باللغة الآرامية؛ حيث لا توجد سوى ترجمات للمخطوطات اليونانية الأصلية إلى اللغة الآرامية.

ولقد كُتبت أقدم مخطوطات العهد الجديد للكتاب المقدَّس إما باللغة اليونانية وإما بالعبرية، ولكن لا توجد مخطوطات باللغة الأصلية للمسيح ﷺ، فضلًا عن ذلك، هناك فجوة كبرى بين الأحداث الفعلية والوقت الذي دُوِّنت فيه تلك المخطوطات، وعادةً ما تمتد تلك الفجوة لأكثر من جيل! ويُطلق على أقدم نسخة اكتُشفت من نصوص العهد الجديد حتى الآن اسم بردية 52 (P52)، وتحتوي على قصاصة صغيرة من إنجيل يوحنا (37-38, 18.31-33)، وقد اكتشف كولين روبرتس (Colin Roberts) هذه البردية عام 1934، ويُعتقد أنها نُسخت من النص الأصلي (موجود منذ عام 96م) في عام 150م، وليس قبل عام 100م<sup>2</sup>؛ ولذلك، تعتمد الأناجيل الحالية على الترجمة (هناك العديد من النسخ المختلفة للإنجيل) لمحاولة تجميع أقوال المسيح وأفعاله الحقيقية خلال حياته القصيرة، ومن ثمَّ، فإنَّ أي كتاب مقدس باللغة الإنجليزية هو في الواقع ترجمة للترجمة! فكيف يكون كتاب بهذه الحال الرسالة الربانية الأخيرة للبشرية، في حين أنه لم تُحفظ نسخته الأصلية، ولم تُدوَّن في حالات كثيرة، وعلى مدى عقود بعد رفع المسيح من الأرض؟ ولو كان مقدَّرًا أن يبقى الإنجيل لآخر الزمان لحفظه الله بلا شك.

لا شك أن الحفظ من التحريف والتغيير من خصائص القرآن؛ فلم يقتصر حفظ الله ﷻ له في زمن النبي ﷺ في السطور، وإنما حفظه في صدور الآلاف، بل الملايين من عباده المؤمنين منذ أن نزل، وتلك مسألة تستلزم التدبر والتأمل من أولي الألباب.

لقد تعهد الله بحفظ القرآن من التحريف والتبديل والضياع؛ حيث قال ﷻ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ نَحَافِظُونَ} (سورة الحجر: 9).

<sup>1</sup> ثارور، إيشان (Tharoor, I) (27 مايو 2014). ما اللغة التي تكلم بها المسيح؟ البابا ورئيس الوزراء الإسرائيلي يختلفان في الرأي (What language did Jesus speak? The pope and Israel's prime minister disagree). مُقتبس من: <https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2014/05/27/what-language-did-jesus-speak-the-pope-and-israels-prime-minister-disagree>

<sup>2</sup> تشير الأبحاث الحديثة إلى تاريخ أقرب إلى 200 بعد الميلاد، ولكن لا يوجد حتى الآن دليل دامغ على بقاء أي قصاصات سابقة من العهد الجديد. ويعتبر التاريخ باستخدام الكربون المشع أسلوبًا مُتلفًا ولم يجر استخدامه على القصاصات. " (مُقتبس من: <http://www.library.manchester.ac.uk/search-resources/special-collections/guide-to-special-collections/st-john-fragment/what-is-the-significance>)

## طريقة حفظ القرآن الكريم: الصدور والسطور

بلغنا القرآن الكريم اليوم كما أنزله الله ﷻ على النبي ﷺ دون تغيير من خلال نظام دقيق قائم على الضبط والتثبيت، وليس ثمة منظومة دينية أخرى استمرت حتى يومنا هذا وقد اشتملت على أسلوب النقل المحكم كالأسلوب الذي أتبع في حفظ القرآن الكريم. كان النبي ﷺ نفسه أول من بدأ بحفظ الوحي بعدما كان يتلقاه من جبريل ﷺ؛ ولقد دلت الآية الكريمة التالية على ذلك:

{لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} (سورة القيامة: 16-19).

وقوله ﷺ:

{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً} (سورة البينة: 2)

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بحفظ القرآن في الصدور، ومن الأمثلة البارزة على ذلك: واقعة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ الذي كان أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة؛ وهذا يدل على أنه في بداية ظهور الإسلام، كان الصحابة يتلون القرآن من ذاكرتهم، كما عُرف عن خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يقرأ القرآن من حفظه بفناء داره بمكة. وقد ذكر الإمام السيوطي أن أكثر من عشرين من كبار الصحابة، ومئات من غيرهم، حفظوا القرآن بأكمله في صدورهم، واعتمدوا النبي ﷺ لتعليم غيرهم القرآن؛ نظرًا لقدراتهم الفائقة في الحفظ.

وقد ثبت في التاريخ الإسلامي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يحفظون القرآن الكريم في حياته، وظلت هذه العادة قائمة بين أجيال المسلمين حتى يومنا هذا. وتشير التقديرات الحالية إلى ملايين المسلمين الذين حفظوا القرآن كاملاً، بالإضافة إلى السواد الأعظم من المسلمين الذين حفظوا بعض أجزائه. وتعليقاً على أهمية حفظ القرآن في الصدور لصيانتها من التحريف والتبديل، كتب المؤلف جون بيرتون (John Burton)، في كتابه "مقدمة في علم الحديث" (*An Introduction to the Hadīth*) قائلاً: "إن طريقة نقل القرآن من جيل إلى آخر من خلال تلقي الصغار القرآن مشافهةً من معلمهم خففت من المخاطر الناتجة عن الاعتماد على المادة المدونة فقط...!"<sup>1</sup>

ثانياً: دُونَ القرآن وجمع في صحيفة أو مصحف، ولكن تمت هذه العملية على مرحلتين:

1. تدوين الوحي القرآني على الرقاع وغيرها من المواد، كما نزل على النبي ﷺ.
2. جمع كل هذه الرقاع والأجزاء في مصحف واحد في غضون عامين بعد وفاة النبي ﷺ.

وسنلقي الآن نظرة أكثر عمقاً على هذه المراحل لفهم عملية جمع القرآن على نحو أفضل. تتعدد أخبار تدوين القرآن وأدلته، وسأكتفي هنا بذكر مثال واحد شهير لإثبات هذه المسألة: كان النبي ﷺ في مكة، مسقط رأسه، عندما نزلت الرسالة عليه لأول مرة، وبعد أن سمع قومه خبر نزول الوحي، بدؤوا في معارضته ﷺ بشدة، في حين كان السابقون الأولون إلى الإسلام قلة مستضعفين، وخشيت الأغلبية أن تجهر

<sup>1</sup> برتون، جون (Burton, John). (2001). مقدمة في علم الحديث (*An Introduction to the Hadīth*)، مطبعة جامعة إنديرة.

بإسلامها حتى لا يصطدموا بعتاة قومهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد هؤلاء الذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم بشدة في بداية دعوته، قبل أن يصبح بعد ذلك واحداً من الصحابة المقربين المحبوبين لدى النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يكون ثاني الخلفاء الراشدين.

فذات يوم، استيقظ عمر وقد ضاق بأمر محمد صلى الله عليه وسلم ذرعاً، فقرر أن يقتله وينهي أمره إلى الأبد، وفي طريقه لقتل محمد صلى الله عليه وسلم، لقيه رجل فأخبره بإسلام أخته سراً، فانطلق مسرعاً غاضباً إلى بيتها ليتحقق من الخبر بنفسه. ما إن وصل إلى البيت، ووجد أخته وزوجها يقرأان صحيفة من القرآن حتى دفع زوج أخته بقوة، ووطنه وطناً شديداً، ولطم أخته فسال الدم من وجهها، وبعد أن اعترفا بإسلامهما، طلب عمر، وهو يشعر بالندم على ضرب أخته ضرباً مبرحاً، أن يقرأ صحيفة القرآن التي بحوزتهم، وتعهد بأنه لن يتلف الصحيفة المكتوب عليها آيات القرآن، فاغتسل، كما طلبت منه أخته، ثم قرأ الصحيفة التي كُتبت عليها آيات من سورة طه، وما إن قرأ بضع آيات حتى تفرقت الدموع في عينيه، وهدأ روعه، ثم قال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه...". عندئذ، توجه فوراً إلى بيت أحد الصحابة اسمه الأرقم، وهو المكان الذي كان يجتمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم سراً بالمسلمين الأوائل، وأعلن إسلامه، ونطق الشهادتين بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثمّ، يتبين من هذا الحدث التاريخي المشهور أن بعض الآيات القرآنية كانت مدونة في بعض المواد الأولية في بداية ظهور الإسلام.

يتساءل كثير من الناس: "لماذا لم يُجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم؟". هناك أربعة أسباب وراء ذلك، وسنسردها على النحو الآتي:

1. لم ينزل القرآن ذاته جملة واحدة، بل نزل منجّماً على مدار 23 عاماً. ويرى العلماء كذلك أنه قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعة أيام نزلت آخر آيات من القرآن<sup>1</sup>.
2. نسخ الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات أثناء تنزّل الوحي؛ ومن ثمّ لم يتبين نسخ آية بعينها إلا إذا نزلت آية أخرى تنسخ الآية السابقة.
3. لم تُنزل الآيات والصور بالترتيب الذي دونت به بعد ذلك، بل رُتبت في وقت لاحق، وذلك قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، بتوجيه ومدارسة جبريل عليه السلام، وهذا يعني أنه في بعض الأحيان كانت تنزل بعض الآيات، ثم تنزل آية أخرى، فيأمر الله صلى الله عليه وسلم بوضعها بين الآيات التي نزلت من قبل.
4. مرض النبي صلى الله عليه وسلم مرضاً شديداً قبيل وفاته، وأثناء تلقي الوحي الأخير. ورغم ذلك، ثمة العديد من الأدلة التي تثبت وجود صحف مكتوبة بها آيات القرآن في صورة مجمعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وأحد هذه الأدلة هو الرواية التاريخية التي تقول: "عندما قدم المسلمون إلى المدينة المنورة ليتعلموا أمور الإسلام، أعطوا نسخاً لبعض سور القرآن من أجل قراءتها وحفظها"<sup>2</sup>. وهناك دليل قوي آخر من القرآن نفسه؛ حيث يقول الله صلى الله عليه وسلم:  
{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (سورة الواقعة: 77-80).

<sup>1</sup> فتوحى، لوي (Fatoohi, L) (2014) أول وآخر ما نزل من القرآن (The First and Last Revelations of the Qur'an). برمنجهام: لونا بلينا للنشر.

<sup>2</sup> حميد الله، محمد (1955). الصحيفة الصحيحة - صحيفة همام بن منبه. حيدر أباد.



ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ"<sup>1</sup> (رواه البخاري).

وورد في رواية أخرى مشهورة في كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ألقى خطبة أمام حشد كبير من المسلمين، وجاء فيها أنه صلى الله عليه وسلم قال: "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ" (أخرجه مالك في الموطأ).

نستنتج من هذا التوجيه النبوي أن القرآن كان متاحًا في شكل صحيفة، أو في مصحف واحد، قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا لوصفه صلى الله عليه وسلم بعبارات أخرى.

وفيما يتعلق بوضع الآيات في السور، يقول الصحابي الجليل والخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ، وَتُنزَّلُ عَلَيْهِ السُّورُ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُهُ، فَقَالَ: ضَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا"<sup>2</sup>. يوضِّح هذا النص تلك التعليمات التي كان يصدرها النبي صلى الله عليه وسلم لكتابة الوحي فيما يتعلق بترتيب الآيات والسور.

وردت ثلاثة أحاديث في صحيح البخاري (أصح الكتب بعد القرآن)، تنص على أن جبريل رضي الله عنه كان يدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام في شهر رمضان، ولقد دارسه إياه مرتين في السنة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى<sup>3</sup>. كان موضع الآيات وترتيبها معروفين لدى الصحابة؛ وذلك حتى يتمكنوا من أداء صلاتهم، ومن ثم تلاوة آيات من القرآن عند إقامتها.

وخلاصة القول إذن أنّ العوامل التالية أدلة دامغة تثبت أن جمع القرآن تم كتابةً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

1. كان الوحي القرآني يُدَوَّن منذ الأيام الأولى لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم.
2. كان للنبي صلى الله عليه وسلم ما يربو على عشرين من كتبة الوحي المتخصصين؛ وكلهم من الصحابة الذين كانت مهمتهم تدوين آيات القرآن عند نزولها.
3. أوعز النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى كتابه بكتابة الآيات في المواضع التي حددها بمجرد نزولها، وبالترتيب الذي أراه.
4. كانت مواضع الآيات وترتيبها من الأمور المعلومة لدى الصحابة؛ حيث التزموا بها في صلاتهم وسائر العبادات الأخرى.
5. كان جبريل رضي الله عنه يدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كاملاً، ويراجعه معه كل عام مرة في رمضان، وقد دارسه مرتين في العام الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم.
6. هناك العديد من الروايات التي تشير إلى أن القرآن قد دُوِّن في صورة كتاب في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وبعد أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، ترك للمسلمين المعاصرين له ولمن سيأتون بعدهم مئات الصحابة الذين حفظوا القرآن كاملاً عن ظهر قلب، وكذلك نسخاً مكتوبة من السور القرآنية مرتبة آياتها؛ بعضها في صحف، وبعضها الآخر أتى متفرقاً.

<sup>1</sup> يرجع هذا النهي لأمرين: (1) مخافة أن يسعى أعداء المسلمين إلى تحريف النص القرآني في بداية الإسلام وقبل جمعه في نسخة موحدة. (2) مخافة أن يناله أعداء الإسلام، فيحصل له الامتihan أو يعثون بكلام الله صلى الله عليه وسلم.

<sup>2</sup> البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. (1997). شرح السنة، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتبة الإسلامية، الطبعة الثانية، المجلد الرابع، بيروت.

<sup>3</sup> "كَانَ يُعْرَضُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْقُرْآنُ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ" (رواه البخاري).

يتضح مما سبق أنّ تدوين القرآن وجمعه تمّ في حياة النبي ﷺ، على عكس طريقة جمع الكتب المقدّسة السابقة؛ فرغم أن أسفار العهدين القديم والجديد قد كُتبت وجمّعت ونُقحت على مدار فترات زمنية طويلة قد تمتد لقرون، فلا تزال موضع انتقاد وإعادة تقييم حتى هذه اللحظة؛ كما حدث مع الكتاب المقدس نسخة الملك جيمس (King James Bible) عندما نُقل إلى النسخة المنقّحة باللغة الإنجليزية<sup>1</sup> في أواخر القرن التاسع عشر. وهذا بالطبع إلى جانب معرفتنا بأنّ إنجيل عيسى ﷺ قد ضاع بأكمله أو أُتلف، على نحو ما ذكرنا آنفًا.

## الإعداد النهائي لجمع القرآن

جُمع القرآن الذي لا يزال في أيدي ملايين المسلمين اليوم على مرحلتين رئيسيتين في عهد الصحابيِّين أبي بكر وعثمان ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ.

ففي عام 633 م (بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر)، كان الصحابي الجليل أبو بكر ﷺ خليفة للمسلمين، وقادهم في معركة اليمامة التي قُتل فيها عدد كبير من المسلمين، منهم حفظة القرآن الذين كانوا نحو سبعين رجلاً، فخشي بعض الصحابة أن يضيع كثير من الوحي إن لم تُعدّ نسخة مكتوبة موحدة للقرآن.

وبعد إجراء بعض المشاورات، تقرر أن يتولى كاتب النبي الأول في حياته -زيد بن ثابت- مهمة جمع كل ما هو مكتوب من القرآن، ونجح في جمع نسخة واحدة من القرآن، معتمداً على ذاكرة الحفظة المسلمين مستخدماً كل ضوابط ومعايير الدقة والتثبت، وتألّفت اللجنة التي شكّلها لهذه المهمة العظيمة من بعض صحابة النبي ﷺ الأكثر ورعاً وأمانة وخوفاً من الله ﷻ، كما ضمت غيرهم ممن حفظوا القرآن كاملاً، وكان زيد ﷺ نفسه أيضاً أحد أبرز الصحابة الذين اعتمدتهم النبي ﷺ في حياته لتعليم المسلمين القرآن.

عزمت اللجنة، عند التدقيق في المواد المكتوبة المتاحة حينئذ، على اتباع معايير صارمة تقادياً لأي أخطاء<sup>2</sup>، وتمثلت فيما يلي:

1. أن يكون النص المكتوب قد دُوّن في الأصل بين يدي النبي ﷺ، وألا يُكتفى بما كان مكتوباً إلا بعد التحقق منه سماعاً أيضاً.
  2. أن يشهد على النص المكتوب شاهداً عدل يؤكدان أنهما قد سمعا الآية -أو الآيات- من النبي ﷺ<sup>3</sup>.
- وكانت الصحف التي جُمع فيها القرآن عند أبي بكر ﷺ حتى توفاه الله ﷻ، ثم احتفظ بها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ حتى وافته المنية، ثم انتقلت أخيراً إلى حفصة بنت عمر ﷺ. وتجدر الإشارة إلى أن بعض أعلام الصحابة ﷺ قد احتفظوا بصحف من القرآن في هذا العهد أيضاً، وقد حاول بعض النقاد المغرضين في

<sup>1</sup> كُلف منقّحو الكتاب المقدس نسخة الملك جيمس بعدم إجراء تعديلات إلا للضرورة؛ لزيادة الدقة والالتزام بالنصوص اليونانية والعبرية الأصلية. وفي العهد الجديد وحده أُجري أكثر من 30,000 تعديل، منها أكثر من 5,000 تعديل بناءً على مخطوطات يونانية.

<sup>2</sup> العسقلاني، أحمد بن حجر. (1997). فتح الباري شرح صحيح البخاري. الرياض: دار السلام.

<sup>3</sup> قام عمر فقال: "من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به" وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب. قال: وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان. وهذا يدل على أنّ زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً؛ مع كون زيد كان يحفظه، وكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط. وعند ابن أبي داود أيضاً، من طريق هشام بن عروة، عن أبيه: أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: "افعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتاباه" ورجاله ثقات مع انقطاعه، وكان المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن؛ وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ. (العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري شرح صحيح البخاري. كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، شرح الحديث رقم 4603).

العصر الحديث استغلال هذه النسخ ليدلوا على حدوث الخلاف والصراع بين الصحابة في أمر القرآن، في حين لم تُوثق أي مصادر شيئاً من هذا القبيل.

والحق أنه بالدراسة الدقيقة لهذه الصحف الأخرى، نكتشف أنها تختلف عن النسخة الرسمية لأبي بكر رضي الله عنه بما لا يزيد أحياناً على اثنتي عشرة أو خمس عشرة آية. ولم يدع أحد من هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم الذين كان لديهم نسخ أخرى أن نسخته أصح أو أتم من الصحيفة الرسمية التي جمعها زيد بن ثابت رضي الله عنه وفريقه<sup>1</sup>.

وافق جميع الصحابة بالإجماع على نسخة المصحف التي أعدها فريق زيد بن ثابت في ذلك الوقت، وفيما يتعلق بإجماع الأمة، وهو أحد مصادر التشريع الإسلامي، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تجتمع أمّتي على ضلالة" (سنن ابن ماجه).

ولو ارتكب زيد بن ثابت رضي الله عنه خطأً واحداً عند نسخ القرآن، لاكتشفه الحفظة (الذين بلغ عددهم عشرات المئات في ذلك الوقت) على الفور، وصوّبوه علناً، وهذا بالضبط الدور الذي أدته طريقة الضبط والتثبيت في حفظ القرآن من التحريف والتبديل، بل من الضياع أيضاً، وهي الطريقة التي لم ينتهجها من تعامل مع الكتب المقدسة الأخرى.

### مصحف عثمان رضي الله عنه

نزل القرآن في الأصل بلهجة قريش التي سكنت مكة، ولتيسير فهم النص على القبائل التي تتحدث لهجات عربية مختلفة، أنزل الله القرآن على سبعة أحرف. ومن الملاحظ أنه على الرغم من اختلاف تلك اللهجات، ظل المعنى ثابتاً لم يتغير. ولتوضيح هذه النقطة، نقول: إن الأمر أشبه بتأليف كتاب بلهجة الجنوب الأمريكي والإنجليزية البريطانية، فكلتا اللهجتين تختلفان اختلافاً كبيراً في النطق والمفردات، على الرغم من أنهما ينقلان المعنى ذاته، وعلى هذا تفاوتت اللهجات العربية في ذلك الوقت.

ولما اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ الخليفة الثالث، اختلفت القبائل والأمصار الإسلامية في أوجه قراءة القرآن؛ فقد تعلم كل مصر القرآن على يد أحد الصحابة، واعتمدت على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. ومن هنا، بدأت القراءات المختلفة تتعارض مع بعضها، فنشب الخلاف والنزاع، وزعم كل فريق أن طريقة قراءته للقرآن هي الصحيحة، وما عداها خطأ، وكادت تكون في الأرض فتنة وفساد كبير. وفي هذه اللحظة الحاسمة الفارقة من حياة الأمة، قدّر الله أن يدخل القرآن مرحلته الثانية والأخيرة من الإعداد والجمع المعروفة بـ"مصحف عثمان".

ولنقرأ الرواية التاريخية التالية التي وردت في حديث البخاري:  
عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان: "قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُعَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ"

<sup>1</sup> كان بعض الصحابة يدونون القرآن في صحفهم الخاصة، ويضيفون تعليقات أو تفسيرات للآيات، وفي ذلك الوقت لم تكن الكتابة تشتمل على أقواس أو استخدام لون أو خط مختلف لتميز الإضافة عن النص الأصلي، ومن ثم كان التعليق أو التفسير جزءاً من الجملة الأصلية؛ أي: الآية؛ مما دفع بعض الذين فحصوها لسنوات وعقود إلى الاعتقاد بأنها جزء من القرآن، في حين أنها ليست كذلك في الحقيقة. ومن نافلة القول أن كاتب الوحي (الصحابي) كان يميز بين الآيات وتفسيراتها، ومن ثم فإن الصحابة لم يكن لديهم نسخ قرآنية مختلفة ومتضاربة، بل كان لديهم المصحف نفسه مع إضافة تعليقاتهم الخاصة.

وَأَدْرَبِجَانٍ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُدَيْفَةَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةَ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَارْتَبِطُوا بِلِسَانِ فَرِيشٍ؛ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَهْلِ مِصْرٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ" (رواه البخاري).

فالقرآن الذي جمعه عثمان رضي الله عنه، ونسخ منه نسخًا عديدة، وأرسله إلى الأمصار الإسلامية ليكون النسخة القرآنية الموحدة أو الرسمية لا يختلف (بالنقص أو الزيادة) عن المصحف الذي جمعه أبو بكر بعد ستة أشهر فقط من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد نالت هذه النسخة المعروفة أيضًا باسم "مصحف عثمان" إجماع الصحابة الذين اتفقوا على أنه مطابق تمامًا لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وحيا من عند الله تعالى، وقد كُتِبَ وُجِعَ بلهجة واحدة لتجنب الخلاف والشقاق بين الأمصار الإسلامية. وإثر جمع القرآن على هذا النحو، أورد النيسابوري في تفسيره أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "فرايت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان"<sup>1</sup>.

وأبلغ ما نقوله فيما يتعلق بنسخ عثمان رضي الله عنه التي لا تزال اثنتان منها موجودتين حتى يومنا هذا؛ إحداهما في مدينة طشقند بأوزبكستان، والثانية في مدينة إسطنبول بتركيا، وبمقارنتهما من حيث السور وترتيبها وترتيب آياتها مع أي نسخة أخرى من القرآن لأي مكان أو فترة زمنية، يتبين أن هاتين النسختين متطابقتان.

وقد دفع هذا الإنجاز المذهل لحفظ القرآن من التحريف المؤلف البريطاني السير ويليامز موير (Williams Muir)، مؤلف كتاب حياة محمد (Life of Mohammad)، إلى القول: "ونقول بكل الثقة واليقين: إن النص الذي بين أيدينا هو نفسه ما كان موجوداً في حياة محمد... ولا يوجد في العالم كله كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً محتفظاً بنقاء نصّه ودقته"<sup>2</sup>. وقد مرت مائتا عام أخرى منذ صدور هذه الكلمات التي قيلت في حق القرآن، دون أن يعترضه تغيير أو تبديل، وكيف يناله التبديل وخالق الكون هو الذي تعهد بحفظه وصيانته؟

## ملاحظات ختامية

ألف أبو الأعلى المودودي، الكاتب الهندي المسلم الشهير، كتاباً متميزاً في تفسير القرآن الكريم، وأسماه "تفهيم القرآن"<sup>3</sup>. وهنا، أقتبس شيئاً من كتاباته الجيدة عن القرآن كخاتمة لهذا الفصل؛ إذ يقول في كتابه:

"في كثير من الأوقات، يمضي الذين يعكفون على دراسة القرآن من منطلق الاعتقاد الشائع أن هذا الكتاب مدونة تفصيلية للإرشاد والهداية، ثم إذا انصرفوا إلى قراءته لا يجدون فيه أحكاماً وقوانين تفصيلية في المسائل الاجتماعية والسياسة والاقتصادية وما إلى ذلك، ويكتشفون أيضاً أن القرآن لم يضع قواعد تفصيلية

<sup>1</sup> النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد. (1962). غرائب القرآن و رغائب الفرقان. المجلد الرابع. القاهرة.

<sup>2</sup> موير، ويليامز (Muir, W) ووير، توماس (Weir, T) (1975). حياة محمد (The Life of Mohammad). نيويورك: مطبعة إيه إم إس.

<sup>3</sup> المودودي، أبو الأعلى (Mawdudi. A). تفهيم القرآن (Towards understanding the Qur'an).

فيما يتعلق بالموضوعات المتكررة: كالصلاة والزكاة، ومثل هذا الأمر يربك القارئ ويدفعه إلى التساؤل: من أي منطلق نعتبر القرآن مدونة للإرشاد؟

وكل ما ينشأ هنا من ارتباك وحيرة في ذهن البعض مردّه إلى أنهم يتناسون أنّ الله ﷻ لم ينزل القرآن فقط، بل أرسل معه رسوياً أيضاً، وأقول على سبيل المثال: لنفترض أن بعض الأشخاص العاديين زودوا بالمخططات العامة لخطة البناء على أساس أنهم سينفذون عملية الإنشاء كما يرغبون، في مثل هذه الحالة سيكون من المنطقي أن يكون لديهم توجيهات وتعليمات مفصلة حول كيفية تنفيذ البناء. ولنفترض أيضاً أنه إلى جانب المخطط العام لخطة البناء، زود هؤلاء الأشخاص بمهندس مختص للإشراف على المهمة، وحينئذ سيكون من غير المبرر تماماً تجاهل عمل المهندس؛ على اعتبار أن التوجيهات التفصيلية جزء جوهري من خطة البناء وكافية، وكذلك ادعاء أن الخطة نفسها يشوبها النقص وعدم الكمال.

مجمل القول إذن أن القرآن ليس كتاباً للتفاصيل الشرعية الدقيقة، بل هو كتاب للمبادئ والقواعد الكلية، ورسالته الرئيسية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الإسلامي للحياة، ثم يتبعها تثبيهاً من خلال مخاطبة الإنسان عقلاً ووجداناً؛ فليس من الضروري أن يتضمن أسلوب القرآن في توجيه الحياة الإسلامية العملية وضع قوانين وقواعد دقيقة ومفصلة، بل يرسم الخطوط العريضة لجوانب النشاط البشري كلها، ويضع مبادئ توجيهية بعينها؛ لتساعد الإنسان على ترتيب حياته وفقاً لمراد الله ﷻ، ومن ثم كانت مهمة النبي ﷺ هي إضفاء الطابع العملي على منظور الإسلام في الحياة الصالحة؛ من خلال تقديم نموذج واقعي للعالم من تجسيد الشخصية الفذة، وإقامة الدولة البشرية، والمجتمع المتكامل كنماذج حية لمبادئ القرآن".

وفي ضوء ما ذكرته، ننتقل بالحديث الآن إلى المصدر الثاني للتشريع الإسلامي؛ وهو الحديث الشريف أو سنة النبي ﷺ؛ حيث سنرى مزيداً من التفاصيل الدقيقة التي أشار إليها المؤلف أعلاه.

## الحديث الشريف والسنة النبوية — المصدر الثاني للتشريع الإسلامي

أحاديث النبي ﷺ، والمعروفة أيضًا بالسنة النبوية، هي المصدر الرئيس الثاني للتشريع في الإسلام بعد القرآن.

### معنى مصطلحي السنة والحديث الشريف

يُطلق مصطلح **السنة** على الطريقة أو الأسلوب المتَّبَع في الحياة؛ ومن ثمّ تعني سنة النبي ﷺ مجتمعةً أقواله وأفعاله وتقريراته. أما مصطلح **الحديث**؛ فيشير على وجه التحديد إلى الروايات التي جُمعت، سواء أكانت شفوية أم مكتوبة، والتي تشرح سنة النبي ﷺ وتفصلها؛ وعليه يُطلق مصطلح **الحديث**، بصفة عامة، على الروايات التي تتناول سنة النبي ﷺ.

### الفرق بين القرآن الكريم والحديث الشريف

في حين أن القرآن الكريم هو كلام الله المنطوق على الحقيقة، فإن الحديث وحي إلهي متمثل في أفعال النبي ﷺ وأقواله وتقريراته، وقد بيّن الإمام السيوطي الفرق بين هذين النوعين من الوحي على النحو التالي، فقال:

"كلام الله المنزّل قسман: قسم قال الله ﷻ لجبريل ﷺ قل للنبي ﷺ الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا. ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي ﷺ وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان: يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة، واجمع جنودك للقتال، فإن قال الرسول: يقول الملك: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحثهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر قال الله ﷻ لجبريل ﷺ: اقرأ على النبي ﷺ هذا الكتاب، فنزل به جبريل ﷺ من الله ﷻ من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً، ويسلمه إلى أمين ويقول: اقرأه على فلان؛ فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً. القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السنة".

أما القسم الأول؛ فهو الحديث أو السنة، وأما القسم الثاني؛ فهو القرآن الكريم، وانطلاقاً من هذا الفهم، يرى المسلمون أن رواية الحديث تصح بالمعنى، على عكس القرآن الذي يجب روايته باللفظ والمعنى.

ثمة نقطة أخرى مهمة ستفيد القارئ؛ وهي مفهوم المعنى "الاصطلاحي" (الشرعي) في النصوص الإسلامية لبعض الكلمات التي قد يختلف معناها الاصطلاحي عن تعريفها اللغوي، ومثال ذلك: مصطلح "حديث" الذي يوضح هذا المفهوم.

تُطلق كلمة "حديث" في اللغة العربية بصفة عامة على الخبر أو الرواية أو الحكاية، كما تعني صفةً الشيء الجديد أو قريب العهد، فعلى سبيل المثال: عندما يقول شخص: لديّ "حديث طيب"، يُفهم منه أنّ لديه خبراً ساراً، وبهذا المعنى اللغوي العام تُستخدم كلمة "حديث" في القرآن. وعلى الجانب الآخر، تتضمن كلمة "حديث" أيضاً مفهوماً "اصطلاحياً"، أو معنى مقصوراً على الإسلام؛ وهو الروايات والأخبار التي نُقلت عن النبي ﷺ. وسيحتج بعض المشككين، بعد إغفالهم التصور السابق، بأية قرآنية يقول الله ﷻ فيها:

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا...} (سورة الزمر: 23).

فيقولون: ما دام أن الله ﷻ يخبرنا في هذه الآية أن أحسن الحديث هو القرآن، فلماذا نحتاج إلى أحاديث النبي ﷺ حتى نفهم ديننا؟ إن القصور في فهم المصطلحات الشرعية جعل فئة من الناس يهملون الحديث النبوي الشريف بالكلية؛ فهل من أساس نستند إليه من القرآن لجمع السنة النبوية وتوثيقها والتمسك بها؟ يتناول القسم التالي الإجابة عن هذا السؤال المهم.

#### أدلة ضرورة اتباع السنة النبوية من القرآن والحديث

يحفل القرآن بالآيات التي تأمر جميع المسلمين بطاعة النبي ﷺ؛ فهو يأمرهم بأوامر الله ﷻ، وسأشير هنا إلى بعض الآيات القرآنية، والتي قال الله ﷻ فيها:

- {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...} (سورة النساء: 80).
- {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (سورة النساء: 65).
- {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} (سورة الأحزاب: 36).
- {... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...} (سورة الحشر: 6).

فبعد القراءة المتأنية لهذه الآيات المختارة، كيف يتسنى للمرء أن ينكر السنة النبوية ويستغنى عنها مكتفياً بالقرآن؟! ومما يُظهر عدم منطقية هذا الاتجاه لدى هؤلاء الشرذمة من الناس- أن القرآن يضع الخطوط العريضة للدين، ولا يشتمل على تفاصيل دقيقة إلا في موضوعات محدودة.

فعلى سبيل المثال: يأمر الله ﷻ المؤمنين بإقامة الصلاة في مواضع عديدة من القرآن، وفي المجمل، يفهم المسلم من الآيات أن الصلاة تُقام خمس مرات في اليوم والليلة، وأنها تشتمل من بين أركانها الأخرى على القيام والركوع والسجود، ولكن كيف تجتمع كل هذه الأركان معاً، وبأي ترتيب؟ لم يتوسّع القرآن في ذكر هذه التفاصيل، ولكنها جاءت مفصلة في السنة النبوية؛ حيث علّم النبي ﷺ المسلمين كيف يقيمون الصلاة في مئات الأحاديث التي رُويت عنه.

وفي العديد من الأمثلة، نجد الحديث النبوي الشريف يفصل الإرشادات العامة الواردة في القرآن ويوضحها؛ حيث كان النبي ﷺ يجالس دائماً أصحابه، ويبين لهم كيف يفهمون آيات القرآن، وقد قال لهم في خطبة الوداع:

"تركْتُ فيكم شِئْنَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي".

ولا شك أن النبي ﷺ قد تنبأ بظهور هذه الجماعة المنكرة لسنته النابذة لها في يوم من الأيام؛ كما يتبيّن من الحديث الصحيح الذي رواه الإمام الترمذي وغيره؛ حيث قال ﷺ:

"لا ألفينَ أحدكم متَّكناً على أريكتِه يأتيه الأمرُ من أمري ممَّا أمرتُ بهِ أو نهيتُ عنه فيقولُ: لا أدري ما وجدنا في كتابِ اللهِ اتَّبَعناه" (رواهُ التِّرْمِذِيُّ)، وفي روايةٍ لغيره "ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومثلهُ معه".  
ففي هذا الحديثِ يخبرنا النبي ﷺ أن السنةَ مُكافئةٌ للقرآن؛ من حيث إنها المصدر الثاني لهداية الناس الذين ينشدون الحق ويتبعونه؛ فالقرآن والسنة مصدران لا ينفصلان، وإنما يتكاملان.



## هل يمكن الوثوق بصحة الحديث الشريف؟

في الآونة الأخيرة، وجّه بعض المشككين الانتقادات المغرضة إلى صحة جمع الأحاديث النبوية وأمانتها، وانتشرت العديد من الافتراءات الكاذبة؛ كالادعاء القائل بأن الحديث لم يُدوّن لمدة قرن أو قرنين بعد وفاة النبي ﷺ. وعلى كل حال أسوق في هذا الجزء بعض الحقائق التفصيلية المتعلقة بجمع الحديث النبوي، وصحة العلوم المرتبطة به في الإسلام.

بدأ حفظ السنة النبوية في حياة النبي ﷺ بأمر منه؛ ومن الأحاديث الصحيحة التي تدل على ذلك الحديث التالي:

عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ" (أخرجه الترمذي وابن ماجه).

وقد روى هذا الحديث ثلاثة وعشرون صحابيًا غير ابن مسعود، كما دُوّن في خمسة وأربعين كتابًا للحديث. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال في خطبة الوداع: "... وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ..." (رواه البخاري)، هذا علاوة على الأحاديث الأخرى التي تأمرنا بنشر كلام النبي ﷺ، وتحذرننا من مَعَبَّةِ تَعَمُّدِ الكذب عليه وتحريف كلامه.

فقد رُوي عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" (رواه البخاري).

وامتثالاً لهذا الأمر النبوي الصريح، اشتهر كثير من الصحابة بحفظهم لأحاديث النبي ﷺ وكتابتها، بل شاع بينهم حفظها عن ظهر قلب؛ ليس للانتفاع بها فحسب، ولكن أيضاً لتبليغها لغيرهم ممن لم يشهدها، كما نُقلت جملة من الروايات الصحيحة التي نصح فيها بعض الصحابة (منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم) المسلمين الذين سيأتون بعدهم (التابعين) بحفظ الأحاديث، وهو الأمر الذي امتثل له التابعون فيما بعد، فرادى وجماعات.

كما تُظهر الدراسة الدقيقة للسنة النبوية كيف كان النبي ﷺ يعلم أصحابه بمختلف الأساليب والتقنيات التربوية من قبيل التكرار، وطرح الأسئلة، والتلقين، والبيان العملي، فكان بعد أن يعلمهم ﷺ أمراً معيناً، يطلب منهم أن يخبروه بما فهموه؛ حتى يضمن استيعابهم لمضمون الكلام، كما تولى تعليم الوفود القادمة من خارج المدينة، إلى جانب أصحابه، القرآن والسنة، كما فعل مع وفد نصارى نجران؛ حتى إنه ﷺ أرسل نسخاً من خُطبه إلى جماعات معينة.

بالإضافة إلى ذلك، ألقى النبي ﷺ خطابات بعث بها إلى الإمبراطوريات والأمم المجاورة، وتضمن بعضها تفاصيل دقيقة وأحكاماً شرعية. ويمكن القول بكل ثقة إن قدرًا كبيرًا من الهدى النبوي تم تدوينه؛ حيث رُوي أن النبي ﷺ كان لديه ما لا يقل عن خمسة وستين<sup>1</sup> كاتبًا خلال فترة نبوته التي امتدت لثلاثة وعشرين عامًا.

<sup>1</sup> محمد مصطفى الأعظمي، (al-A'zami, M.M.) (2016)، كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - (The Scribes of the Prophet). لندن: تراث.

وقد اشتهر بعض الصحابة ﷺ بتدوينهم لكل ما سمعوه من النبي ﷺ، ومنهم علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن عباد، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن العاص الذي يُعرف كتابه باسم "الصحيفة الصادقة". وهكذا كان لدى عدد كبير من الصحابة، ومنهم أكبر الرواة أبو هريرة، كتبٌ تحتوي على أقوال النبي ﷺ.

بل صحَّ أن النبي ﷺ قد أذن لبعض أصحابه صراحة بكتابة كل ما يصدر عنه من أقوال، فقد رُوِيَ عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: "كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَهَتَيْتِي قَرِيشًا، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَرِّ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟! فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ، فَقَالَ: أَكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ" (رواه الحاكم وغيره).

وثمة حديث صحيح آخر يؤيد ما تقدم، وهو من رواية أنس بن مالك، يقول فيه إنه سمع النبي يقول: "اقْبِدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ" (رواه الحاكم).

وقد أجمل الله هذه النقطة بالذات في القرآن حينما قال ﷺ عن النبي ﷺ: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (سورة النجم: 3-4).

وقد سار جيل التابعين الذي جاء بعد الصحابة على خطاهم؛ حيث كانوا بمنزلة معلمهم المباشرين، واعتمدوا على الحفظ والرواية والاقْتِنَاس من كتب الحديث، ودَوَّن بعضهم أجزاءً من السنة، كما شرعوا في البحث عن الصحابة الذين حفظوا الحديث عن النبي ﷺ من أجل تدوينه ونشره بين المسلمين.

ومن أشهر التابعين الذين دَوَّنوا الحديث في كتب- سعيد بن جبيرة ومجاهد بن جبر (وكلاهما من تلامذة الصحابي الجليل ابن عباس)، وبشير بن نهيك، الذي جمع الحديث عن الصحابي أبي هريرة؛ أكبر راوٍ للحديث، وأبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي، وهو تلميذ الصحابي جابر بن عبد الله، وهشام بن عروة بن الزبير. ولا يزال أحد هذه الكتب موجوداً حتى يومنا هذا، وهو "صحيفة همام"؛ حيث نقل التابعي همام بن منبه مباشرة عن شيخه أبي هريرة. وقد أثبت الباحثون أن ما لا يقل عن تسعة وأربعين تابعياً من الجيل الأول دَوَّنوا الحديث في كتب<sup>1</sup>. وشكَّلت هذه الكتابات المصدر الثاني، بعد تدوينات الصحابة أنفسهم، لما جُمع بعد ذلك من أحاديث نبوية.

لم تبدأ عملية الجمع الشامل للحديث حتى مطلع القرن الثاني الهجري، وكان من الأسباب الداعية إلى الجمع الخوف من فقدان السنة النبوية مع انتشار الصحابة في ربوع أراضي الخلافة الإسلامية التي كانت تشهد توسعاً سريعاً آنذاك؛ حيث بدأ علم الصحابة يتفرَّق، على عكس الفترة التي كان يعيش فيها أكثرهم بالقرب من المدينة المنورة. وكان أبو بكر بن محمد بن حزم (ت 120هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (ت 124هـ)، وهما من علماء الحديث، من أوائل من جمع الحديث النبوي في كتب، ومن ثمَّ أُلهمَا غيرهما من الأئمة، كالإمام مالك بن أنس صاحب كتاب الموطأ (الذي لا يزال متداولاً بين أيدي المسلمين حتى اليوم)، ليجمعوا سنة النبي ﷺ كلها جمعاً شاملاً.

<sup>1</sup> محمد مصطفى الأعظمي (al-A'zami, M.M) (1978)، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه (Studies in Hadith Methodology and Literature). أوك بروك، إلينوي: أمريكان ترست.

اجتهد هؤلاء العلماء المتقدمون في وضع منهج لا يسمح بتسرب أي حديث موضوع أو مُنكر إلى مجمل الأحاديث التي كانوا يحفظونها، وكان من أقدم طرق الحفظ وأكثرها دقة قراءة الشيخ على طلابه من كتاب الطالب، والذي كان إما نسخة مكتملة وإما جزءاً من كتاب الشيخ نفسه، وكان الطلاب والعلماء يختبرون علم شيخهم بإدخال الأحاديث التي لم تكن من الأحاديث التي رواها في مواضع مختلفة من الكتاب قبل دفعه له لقراءته، فإذا قرأ الشيخ ذلك الحديث ولم ينتبه "طُعن فيه"، واعتُبر غير ثقة<sup>1</sup>.

وبمرور الزمن، كان الطلاب يقرؤون ما تعلموه على شيوخهم، في حضور طلاب آخرين بحوزتهم الأحاديث نفسها؛ مما يتيح لأي طالب الفرصة لتصحيح أخطائه، وكذلك حتى يتمكن الطلاب الحاضرون من تصحيح أخطاء طالب آخر عند الضرورة، وبعد أن يفرغ الطالب من قراءة كتاب الحديث بالكامل على الشيخ، يعتمد الشيخ نسخة الطالب بالتوقيع عليها، ثم يُسمح للطلاب بنقل روايات الحديث المدونة فقط في تلك النسخة المعتمدة.

أما إثبات النقل الشفهي المباشر؛ فقد كان ضرورياً لضمان أن الطالب قد درس الحديث على النحو الصحيح؛ حيث إن مجرد تدوين الحديث لم يكن كافياً لنقله بدقة؛ (بسبب تعقيد تشكيل الحروف، والذي قد يؤثر على المعنى إذا لم تُنطق الكلمات بطريقة صحيحة). وفي كثير من الحالات (وليس جميعها)، كان على الطالب حفظ الحديث قبل أن يقبله شيخه منه، وهكذا كان الطلاب في الغالب يتلقون الحديث عن شيوخهم، ثم يقرؤونه عليهم لاحقاً، وعليه يقبل هؤلاء الشيوخ قراءتهم، أو يطلبون منهم دراسته مجدداً.

ظلت عملية جمع الأحاديث والتثبت منها توتي أكلها حتى بلغت ذروتها بعد نحو مائة عام في كتاب إمام الحديث محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى عام 256هـ، وسرعان ما أصبح كتابه "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه"، والذي اشتهر باسم "صحيح البخاري"، أشهر كتاب للحديث على مر التاريخ الإسلامي، واعتبره العلماء أصحاب الكتب وأصدقها بعد القرآن الكريم، وقد استغرق العمل على جمع هذا الكتاب ستة عشر عاماً، وأجمع العلماء المسلمون على صحته وخلوه من أي أخطاء.

يعتقد الكثير من الناس خطأً أن البخاري طاف الأرجاء وحده، وجمع العديد من هذه الروايات بنفسه دون الاعتماد على أي كتب أخرى في الحديث، والحق إن البخاري قد استعان بالجهود الدقيقة التي بذلها العديد من العلماء البارزين قبله لتكون مصدرًا لكتابه، ومن المعروف أنه فحص أكثر من 600 ألف حديث، وجمع منها نحو 3500 حديث في صحيحه الذي اشتمل على الأحاديث التي استوفت الشروط والمعايير الصارمة التي وضعها بنفسه لقبول الحديث. وهذا لا يعني أن بقية الأحاديث التي لم يشملها الكتاب لم تكن موثوقة، بل وضع البخاري خطة اعتبارية لكتابه؛ ولذلك لم تشتمل أبواب كتابه على كل الأحاديث التي راجعها، رغم صحتها. ولم يقبل البخاري من الروايات التي اشتمل عليها كتابه إلا ما رواه أكثر علماء المسلمين عدالة ممن بلغوا أعلى درجات الحفظ والدقة وتميُّز الشخصية والأمانة والثقة، والذين رواوا عن مثلهم في العدالة والضبط، وصولاً إلى الصحابة أنفسهم الذين رواوا مباشرة عن رسول الله ﷺ، وخضع البخاري نفسه لاختبارات دقيقة قبل أن يلاقي كتابه قبول العلماء وطلاب العلم على مستوى الدولة الإسلامية.

وسيجد الباحثون الذين درسوا المناهج الحديثة المستخدمة في الغرب لتدوين التاريخ ثمة أوجه تشابه مع الأساليب المستخدمة في جمع الأحاديث والتحقق من صحتها. فقد اشتمل جمع الأحاديث النبوية على العديد من

<sup>1</sup> المرجع السابق.

العوامل الحصرية التي يتفق الباحثون المحايدون على أنها تمنحها ميزة واضحة مقارنة بالأساليب الأخرى الأكثر حداثة لحفظ المعلومات وتوثيقها، وبالإضافة إلى ذلك، أظهرت الاكتشافات الأثرية الحديثة لبعض كتب الحديث الأولى، بما فيها بعض الكتب التي ترجع إلى القرن الأول الهجري، مستوى الدقة والأمانة التي تمتعت بها هذه العملية<sup>1</sup>؛ لأنه عند مقارنة هذه النصوص الأولية بالكتب الحديثة، لم يكن ثمة اختلافات بينها.

---

<sup>1</sup> بونر، مايكل (M. Bonner). (2008) الجهاد في التاريخ الإسلامي (*Jihad in Islamic History*). برينستون، نيو جيرسي: جامعة برينستون.

## نماذج من أحاديث النبي محمد ﷺ

### أحاديث عن سعة رحمة الله ﷻ ومغفرته

1. عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله ﷻ: يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة" (رواه الترمذي).
2. عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" (متفق عليه).
3. عن أبي هريرة ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: "إِنَّ لِلَّهِ مِنْهُ رَحْمَةً، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (متفق عليه).
4. عن ابن عمر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَقْرَرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ..." (متفق عليه).
5. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذُنِبُوا، لَدَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذُنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ" (رواه مسلم).

### حديث عن العلاقة بين الأخوة والإيمان

6. عن أنس ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (رواه البخاري).

### حديث عن تحريم الظلم

7. عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ" (رواه مسلم).

### حديث عن طاعة الوالدين ومحبتهم والإحسان إليهم

8. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، قِيلَ: مَنْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ أَبُوَيْهِ عِنْدَ الْكَبِيرِ- أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا- فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ" (رواه مسلم).

### حديث عن حسن الظن بالله ﷻ

9. عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ-" (رواه مسلم).

### حديث عن فضل عتق الرقاب

10. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى يُعْتَقَ فَرْجُهُ بِفَرْجِهِ" (متفق عليه).

#### حديث عن فضل العلم

11. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" (رواه مسلم).

#### حديثان عن أنواع الجهاد

12. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدْلٍ (وفي رواية: حَقٍّ) عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" (أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه).

13. قال النبي ﷺ: "المجاهد من جاهد نفسه في الله" (صحيح الجامع).

#### حديث السبعة الذين يظلمهم الله ﷻ في ظله

14. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظَلِّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما).

#### حديث عن ثواب الصبر على فقد الولد

15. عَنْ أَبِي سِنَانٍ قَالَ: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا وَأَبُو طَلْحَةَ الْخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَيَّ شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ الْخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانَ. قُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: حَدَّثَنِي الصَّحَّاحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَزْرَبٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَع، فَيَقُولُ اللَّهُ: "ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ" (رواه الترمذي).

#### حديث عن الصبر على المصائب والابتلاءات

16. قال النبي ﷺ: "إِنَّ عَظْمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ" (رواه الترمذي وابن ماجه).

#### حديث عن السماحة في القضاء

17. عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "... فَإِنَّ الْإِمَامَ إِنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ" (أخرجه الترمذي).

#### حديث عن الرفق بالحيوان

18. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِنْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَنِي، فَنَزَلَ الْبِنْرَ فَمَلَأَ حُقْفَهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ" (متفق عليه).

حديث عن عقوبة القسوة على الحيوان  
19. عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمَهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (رواه البخاري).

وتعليقًا على الحديثين الأخيرين المتعلقين بالرفق بالحيوان، قال الله ﷻ عن النبي ﷺ في قرآنه:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (سورة الأنبياء: 107).

فيجب ألا تغيب هذه الآية عن أذهاننا عند دراسة العديد من الأحاديث النبوية التي يأمر النبي فيها باحترام الناس (مسلمين وغير مسلمين) والإحسان إليهم، وبالرفق بالحيوان والبيئة كذلك؛ إذ لا يشك أحد أنه لولا بعثة النبي ﷺ، لعانى كثير من الناس من الجشع والإهمال المتأصلين في الطباع البشرية.

## محمد— رسول الله ﷺ

كان الهواء منعشاً في تلك الليلة بالقرب من فم الغار حيث كان يتحنث (يتعبد) النبي ﷺ، ويختلي بنفسه عدة ليالٍ في عبادة الله الذي اطمئن إليه قلبه بأنه الواحد الأحد المستحق للعبادة، فقد أنكر ﷺ على قومه عبادة الأصنام، وغناءهم الصاخب، وتصفيقهم، ورقصهم وهم سكارى عند البيت الحرام، وثمة شيء بداخله جعله يتأكد من ضلال مذهبهم، ولكن قومه لم ينتبهوا لزياراته المتكررة لجبل حراء، حيث كان يتحنث وحده.

وفي تلك الليلة، كان الأمر مختلفاً؛ حيث كان الجو مملوئاً بطاقة عجيبة، لكن السكون والهدوء كانا السمتين السائدين في الوقت ذاته، وبينما كان محمد ﷺ يتعبد كعادته في تلك الليلة، أدرك فجأة أنه ليس بمفرده، وحاول الابتعاد عن المخلوق الذي كان يقترب منه بسرعة وقد تملكه الرعب، وشلت حركة جسمه، وقبل أن يتعرف عليه، أمسك الملك المهيّب محمداً ﷺ من رداءه، وعصر جسده المرتجف عصرًا شديدًا في الغار البارد الوعر.

وقال له بنبرة مدوية: "اقرأ!".

قال محمد ﷺ بصعوبة وبصوت يملؤه الخوف: "ما أنا بقارئ".

ثم أطلق الملك جسده للحظات، لكنه ضمّه بسرعة مرة أخرى تجاه جدار الغار، وقال: "اقرأ!".

كان محمد ﷺ يرتجف أمام الملك، ولم يستطع أن ينطق بغير الجواب نفسه: "ما أنا بقارئ".

ضمّه الملك الغامض للمرة الثالثة، وقال له:

{اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} {سورة العلق: 1-5}.

وهكذا بدأ الوحي، وكانت هذه أول خمس آيات قرآنية أنزلها الله ﷻ على قلب محمد ﷺ بواسطة جبريل ﷺ. وعلى الرغم أن أول لقاء بينهما أفزع النبي ﷺ، كان مجيء جبريل ﷺ بعد ذلك أكثر متعة وترويحاً لنفس النبي ﷺ، وبالفعل أحبا بعضهما بعضاً كما لو كانا أخوين.

كان النبي ﷺ يبلغ من العمر أربعين عامًا وقت نزول الوحي لأول مرة، ومنذ تلك اللحظة تغير مسار حياته للأبد، وكان ﷺ معروفًا بين قومه في مكة، قبل نزول الوحي بـ "الصادق الأمين"، وحظي ﷺ باحترام كبير ومنزلة مرموقة بينهم قبل بعثته، ولكن عما قريب سينقلب عليه القوم، ويحاولون قتله.

## رسالة الأنبياء والرسول

كلما أنزل الله كتابًا على قوم، أرسل مع هذا الكتاب رسولاً كما ذكرنا؛ فلقد بعث الله ﷻ هؤلاء المرسلين من البشر حاملين على عواتقهم أمانة ثقيلة، تتمثل في إعلان كلمة الحق أمام قومهم، وإبلاغهم بحكم الله ﷻ وأمره، وكان على هؤلاء الأنبياء والرسول تجسيد الرسالة في أشخاصهم أولاً، وأداء دور القدوة والمثل الأعلى لأقوامهم؛ ليبينوا لهم كيف يطبقون كلام الله ﷻ عملياً على أنفسهم. وقد أيد الله ﷻ كل واحد من هؤلاء



الأنبياء والرسل بملك الوحي؛ المبعوث الخاص للأنبياء والرسل، وهو جبريل ﷺ، ومع ذلك، بغض النظر عن الظروف التي أحاطت برسالاتهم وأماكنهم، كانوا يلاقون من قومهم العناد والمعاداة التي كانت تصل أحياناً إلى حد القتل.

وقد جاء الأنبياء والرسل لأقوامهم بالتفسيرات الصحيحة لكلام الله ﷻ؛ حتى لا يضل الناس بتفسيراتهم الخاطئة التي يتحكم فيها الهوى والنفوس، ويبنوا لهم كيف يؤدون العبادات المفروضة عليهم، كالصلاة، والحج، والزكاة. وقد تعرض هؤلاء الأنبياء والرسل للاعتداء والإيذاء، وكذلك أتباعهم، فضربوا بذلك لهم أروع الأمثلة في الصبر، والجلد، والتسامح، والثبات، والمقاومة، فلولا الأنبياء والرسل، ما عرف الناس ربهم حق معرفته، وكان كلامه ﷻ عرضة لتفسير أصحاب النوايا الخبيثة والنفوس المريضة؛ فكانوا هم حلقة الوصل التي تربط البشر بربهم ﷻ، كما كانوا شُعَل النور التي أقامت الحياة الكريمة الفاضلة على الأرض.

ولم يكن النبي ﷺ بدعاً من الرسل السابقين في كثير من هذه الأمور؛ فقد اتبع الميراث العظيم لمن سبقوه من الأنبياء والرسل؛ من نوح، وإبراهيم، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم ﷺ، وهو ميراث دعوة الناس لعبادة الله ﷻ وحده، كما اختُص كل واحد من هؤلاء الأنبياء والرسل ببعض الخصائص؛ ولا شك أن محمداً ﷺ كان فريداً كذلك في خصائصه.

سنكتفي بذكر بضعة أحاديث، تماشيًا مع الطبيعة الموجزة لهذا الكتاب، من أجل وصف رسالة النبي ﷺ وشخصيته على النحو المنشود. أما الحديث الأول؛ فيصف النبي ﷺ وصفًا حقيقيًا على لسان عدوه آنذاك، أبي سفيان؛ حيث كان النبي ﷺ يبعث برسائل إلى جميع القادة والأمم المعاصرة له لدعوتهم إلى الإسلام، وأرسلت إحدى هذه الرسائل إلى هرقل عظيم الروم (الإمبراطورية الرومانية الشرقية)، وحينما تلقى هرقل رسالة النبي ﷺ، أمر بالبحث في مدينته -القسطنطينية- عن أحد من قومه حتى يسأله عنه وعن رسالته.

فعرث رسول الإمبراطور على أبي سفيان ورهط معه من قريش في قافلة تجارية، وقد أمر هرقل بإحضارهم أمامه ليسألهم عن محمد ﷺ. ومما يثير الدهشة والتعجب في هذا الحوار الذي دونته كتب السيرة- أن أبا سفيان في ذلك الوقت كان متورطًا في أعمال عدائية كبيرة ضد النبي ﷺ والمسلمين، ومع ذلك، كانت ردوده منصفة على أسئلة هرقل:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما-: **أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: "أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَارًا بِالشَّامِ فِي الْمَدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ، فَاتَّوَهُ وَهُمْ بِبَيْلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عِظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِنَزْجَمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِنَزْجَمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنِ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبْتَنِي فَكُذِّبُوهُ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:**

كَيْفَ نَسَبُهُ فَيُكِّمُ؟

قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آيَاتِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافَ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضَعْفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مَدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِي كَلِمَةً أَدْخُلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟

قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِبْجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟

قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلزَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلِ قَيْلٍ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكًا أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ اتَّبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَسَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ" (متفق عليه).

وعلاوة على ما ذكره أبو سفيان في حضور هرقل، يصف الله ﷻ النبي ﷺ في القرآن بأنه رحمة للعالمين؛ إذ يقول ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (سورة الأنبياء: 107).

ثوفي والد النبي ﷺ وهو طفل رضيع، وثوفيت أمه بسبب المرض وهو في الخامسة أو السادسة من عمره. ورغم يتمه في هذه السن المبكرة، نشأ ليكون "رحمة للعالمين"، وقد تلقى الوحي لأول مرة من الله ﷻ وهو في سن الأربعين؛ فالنبي ﷺ هو نبي الرحمة الذي أرسله الله ﷻ رحمة للبشر أجمعين على اختلاف مشاربهم وأجناسهم وأعراقهم، وقد شملت رحمته جميع الجنس البشري من الرجال والنساء والأطفال، وتولى النبي - بصفته رب أسرة- تربية أربع بنات؛ فكان يجهن ويكفلهن، وكان يُكثر ذكر خديجة ﷺ بأجمل كلمات الوفاء والإخلاص؛ فهي أم بناته، وزوجه لمدة 25 عامًا، اعتزازًا بها، وإظهارًا لمدى محبته لها، كما كان النبي ﷺ رحيماً بجميع المخلوقات، بما في ذلك الحيوانات والنباتات؛ حيث علّم أصحابه ﷺ أن مجرد إطعام حيوان قد يكون سبباً في دخول المرء الجنة، في حين أن إساءة معاملته قد تسوق المرء إلى النار، عياداً بالله!

عندما بدأ النبي ﷺ في دعوة قومه في مكة لعبادة الله ﷻ وحده وترك عبادة أصنامهم، لاقى معارضة شديدة من مختلف فئاتهم، ومنهم بعض أقاربه. وحين بدأ الناس في الانقياد والاستسلام لعبادة الله وحده، صعّد قومه - أهل قريش- من محاربتهم وعداوتهم له، وآذوه هو وأتباعه بكل قسوة وغلظة. وهناك العديد من القصص في

التاريخ الإسلامي التي تحكي عن التعذيب والإهانة والإيذاء الذي تعرض له السابقون الأولون من المؤمنين، وعانى منه النبي ﷺ نفسه.

تحكي إحدى هذه القصص التي ينفطر لها القلب في السيرة النبوية أن النبي ﷺ خرج ذات يوم للصلاة جهراً، بينما كان يراقبه بعض المشركين من قومه، وعندما سجد النبي ﷺ في صلاته، جاءه أحدهم، وسكب دلوًا ممثلة بسلا الجُزور على ظهره بين كتفيه، ولما رأت ابنته الصغيرة فاطمة هذا الاعتداء الجريء الصارخ، ركضت نحو أبيها، وطرحت هذه الأوساخ عن ظهره الشريف، والدموع تنهمر على خديها الصغيرين. ولم يكتفِ المشركون بهذا الاعتداء، فقد سعوا بكل إصرار وعزم بعد ذلك إلى قتل النبي ﷺ وأتباعه سرًا وعلانية؛ لوقف انتشار الإسلام وامتداده لشرائح أخرى من المجتمع المكي وغيره من القبائل المجاورة، وأول من قُتلت في سبيل الله ﷺ بسبب إسلامها امرأة تُدعى سمية ؓ؛ حيث قُتلت في العقد الأول من الدعوة، بعد أن رفضت الارتداد عن دينها والعودة إلى عبادة الأصنام والشرك بالله ﷻ. وقد أدت فداحة التعذيب الذي مورس على السابقين الأولين من المسلمين، والتهديد بقتل النبي ﷺ وأتباعه إلى هجرتهم من مكة -موطنهم الأصلي- إلى المدينة المنورة، بعد نحو 13 عامًا من نزول الوحي على النبي ﷺ، وهناك أسس النبي ﷺ دولة مستقلة اتخذها الإسلام موطنًا قدم قوي لينتشر منها ويبلغ آفاق نصف العالم.

وعاد النبي ﷺ، بعد نحو عشر سنوات من الهجرة من مكة، بقوة قوامها عشرة آلاف مقاتل مسلم إلى مكة لفتحها وتطهيرها من الأصنام، وبعد أن علم أهل قريش أنه لا طاقة لهم بقتال هذه القوة أو صدها، تساءل أولئك الذين أساءوا إلى النبي ﷺ وأتباعه وعذبوهم عن مصيرهم؛ فهل سيعاقبهم أو ينفذ فيهم حكم الله ﷻ على ما ارتكبوه من جرائم جسيمة؟ لا، بل تمثل رد النبي ﷺ على جرائم أعدائه في إطلاق سراحهم في ذلك اليوم، وإعلان مكة مدينة سلام؛ حرماً وملاًدًا آمنًا للجميع. وفي يوم الفتح نفسه، نادى أحد أصحابه بالخطأ: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشًا"، لكن النبي ﷺ استنكر عليه مقالته، وصححها بقوله: "بل اليوم يوم الرحمة، اليوم يعزّ الله قريشًا" [الرحيق المختوم وزاد المعاد].

هذا غيظ من فيض الأمثلة التي تبين كيف كان يتعامل هذا النبي، الذي وصفه الله ﷻ بأنه "رحمة للعالمين"، مع الذين عارضوه، وهذا مجرد مثال واحد من الأمثلة العديدة التي جسدت حياة نبي واجه تهديدات مستمرة بالقتل، وتعرّض لمحاولات اغتيال، فضلًا عن الإيذاء والإهانة التي تعرّض لها على أيدي أولئك الذين هدّتهم رسالته بسيطة المبني عميقة المعنى؛ وهي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

لم يحظَ أهل قريش وحدهم بهذه الرحمة، فكان من عادة النبي ﷺ الدعاء لأعدائه بالهداية في كثير من الأحيان، وقد شمل دعاؤه اثنين من ألدّ أعدائه آنذاك؛ أبي جهل وعمر بن الخطاب، فقيل الله ﷻ دعاه بشرح صدر عمر ﷺ للإسلام، وأصبح فيما بعد الخليفة الثاني للمسلمين؛ وأحد أعظم الشخصيات وأتقائها في التاريخ الإسلامي كله.

كما كان من عادة النبي ﷺ دعاء ربه بهداية قومه؛ فكان يدعو قائلًا: "اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون"، في الوقت الذي كان يتعرض فيه هو وأتباعه للاعتداء والإساءة والازدياء والسخرية. ولما ضيق أهل مكة على المسلمين واضطهدوهم، سُمع يدعو وهو يمسح الدم عن وجهه: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، هذا إلى جانب أمثلة عديدة تبين لنا مدى محبة أصحابه ﷺ له:

عن أنس رضي الله عنه قَالَ: "مَا مَسِسْتُ دِيْبِيَاً وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ رَائِحَةَ قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أَفٍ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتُ كَذَا؟" (متفق عليه).

وردًا على استحياء النبي ﷺ في مطالبة الأنصار بمساندة إخوانهم المهاجرين في إحدى الغزوات الفاصلة بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: "أَمَّا بكَ، وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَاْمُضْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ اسْتَعْرَضَتْ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْنَتْهُ لِحُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا يَتَخَلَّفُ مَنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ" [الرحيق المختوم].

لم تقتصر محبة النبي ﷺ الشديدة على صحابته المقربين فحسب، بل أحبه جميع الصحابة، كما تبين من فعل صحابي غير مشهور رآه النبي ﷺ يلبس في إصبعه خاتمًا من ذهب، والإسلام يحرم على الرجال لبس الذهب، فنزع النبي ﷺ خاتم الرجل، وألقاه أرضًا، وقال له: إن ذلك كمن يعمد إلى جمرة من نار فيجعلها في يده. فأشار بعض الصحابة على ذلك الرجل بعد انصراف النبي ﷺ أن يأخذ الخاتم ليبيعه أو ينتفع به، لكن الرجل أبي قائلًا: "لَا وَاللَّهِ، لَا أَخْذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -" (رواه مسلم).

كان النبي ﷺ نبراسًا وقدوة عملية لقوله: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ" (رواه الترمذي). وإذا تعمقنا في دراسة حياة هذا النبي الكريم ﷺ، سنرى كيف كان يدافع أيضًا عن إخوانه من الأنبياء والرسل السابقين، ويذب عنهم، ففي الوقت الذي كان يصف فيه بعض الجهلاء من بني إسرائيل عيسى ﷺ بأبشع الأوصاف المهينة، كان النبي ﷺ يعلم البشرية الآية التي يقول فيها الله ﷻ: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (سورة آل عمران: 45).

وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الجهلاء أنفسهم يرمون السيدة مريم العذراء بالفاحشة، كان النبي ﷺ يعلم الناس قول الله ﷻ:

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِلِينَ} (سورة التحريم: 12).

وحتى في الوقت الحاضر، نجد من يتعمدون الإساءة إلى الأنبياء والنبل منهم، ويركزون إهاناتهم على شخص النبي ﷺ ووصفه بالقاتل والسفاح، لكن محمدًا ﷺ نفسه هو من علم أصحابه قول الله ﷻ:

{... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...} (سورة المائدة: 32).

على الرغم من أنه ﷺ بُعث في زمن كان العالم فيه غارقًا في غياهب البربرية، فقد علم الناس الرحمة والعدل، حتى أثناء القتال؛ فلم تكن هناك معاهدات أو اتفاقيات أو قوانين دولية وقتها لتنظيم المعارك بين الأطراف المتحاربة، فأرسله الله ﷻ بقوانين العدل لتُطبق في جميع الأحوال؛ في السلم والحرب. وقد حرّم النبي الإسراف في القتل أثناء الحرب والتمثيل بالجنث، ونهى عن قتل النساء والأطفال والأبرياء، ونهى عن تخريب الممتلكات وقطع الأشجار أثناء القتال.

ولكن قبل الانتقال إلى موضوعات أخرى، يجب الإجابة عن بعض الأسئلة ذات الأهمية البالغة؛ وهي الأسئلة التي قد تدور في أذهان العديد من قراء هذا الكتاب، ويودون الإجابة عنها، ومنها ما يلي:

- هل بشرت الكتب السابقة بنبوّة محمد ﷺ، كما بشرت بنبوّة غيره؛ عيسى ﷺ مثلاً؟
- ما النبوءات التي أخبر بها النبي ﷺ، في حال وجودها، ليثبت أنه نبي مرسل من عند الله ﷻ؟
- هل تعاليم النبي ﷺ مهمة لعصرنا الحاضر؟ وإذا كانت كذلك، فما مدى أهميتها؟

هذه موضوعات شديدة الأهمية تستحق الوقوف عندها ومناقشتها قبل الانتقال إلى موضوعات أخرى، ولتيسير الأمور على أفهام القراء، ستنسب جميع النقاط على نحو مترابط ومتصل كما سترى الآن.

## هل بشرت الكتب المقدسة السابقة بنبوّة محمد ﷺ؟

لا يتطلب هذا السؤال عناء البحث؛ فالجواب موجود وواضح في القرآن، حيث يقول الله ﷻ في معرض ذكر صفات المؤمنين:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (سورة الأعراف:157).

يشير القرآن في هذه الآية إلى بعض الحقائق التي قد لا يصدقها القراء اليهود والنصارى؛ حيث يخبرنا الله ﷻ أن محمداً ﷺ، النبي الأمي، ذُكر في التوراة والإنجيل. وقد يقول قائل منهم: "لكنني ظلمت أقرأ الكتاب المقدس طوال حياتي، ولم أعر على أي وصف لمحمد ﷺ"، لكن حاش لله ﷻ أن يقول كذبا؛ فوصف محمد ﷺ مكتوب عندهم، لكن الكثير من قراء الكتاب المقدس لم ينتبهوا لهذا الوصف؛ لأن تفسيرهم للكتاب المقدس متأثر إلى حد بعيد بتفسيرات علمائهم.

### طبيعة النبوة في الكتاب المقدس

ذُكر المؤلف الشهير وعالم الكتاب المقدس، الشيخ أحمد ديدات، قرآءه بأحد الجوانب المهمة التي تتعلق بنبوّة الكتاب المقدس حينما طرح السؤال التالي: "أين ورد ذكر عيسى ﷺ في العهد القديم؟". سيقول معظم النصارى الآن: إن عيسى ﷺ مذكور في مواضع لا حصر لها في العهد القديم، ولكنك إذا حاولت العثور على اسم عيسى ﷺ فيه، ستظل تبحث لفترة طويلة دون جدوى؛ لأن ذكر عيسى صراحة ليس موجوداً، وإنما وصفه هو المذكور.

وبالبحث في سفري إشعياء وإرميا، تجد العديد من الأوصاف التي لا تنطبق على أحد سوى المسيح ﷺ، وهكذا نخلص إلى أن الكتاب المقدس قد تنبأ بالمسيح ﷺ، ومن ثم نعترف به رسولاً من رسل الله ﷻ؛ فلماذا إذن نطبق معايير مغايرة بخصوص محمد ﷺ؟ فما ينبغي لنا أن نبحث عنه هو وصف محمد ﷺ الذي ينصرف إليه، وليس اسمه في حد ذاته.

وأكرر القول: إن عدداً من الموضوعات التي تُعرض في هذا الكتاب تناولتها كتب كاملة أخرى سابقة، ولا يختلف هذا الموضوع في شيء عنها؛ فهناك عدة كتب تناقش موضوع وصف النبي ﷻ في الكتاب المقدس، ولكنني سأكتفي هنا بملخص لأقوى الحجج وأشملها.

### النبي المذكور في سفر التثنية

تمثل الآيات (15-22) من سفر التثنية واحدة من أقوى الحجج وأكثرها إقناعاً؛ حيث درج النصارى على استخدام هذه الآيات للإشارة إلى عيسى ﷺ، لكن التحليل التالي سيقدم لنا دليلاً واضحاً على أن هذه النبوءة لا تشير إلا إلى محمد ﷺ. والجانب الآخر المهم في هذه الآية المذكورة في الكتاب المقدس هو النتيجة التي تنتهي إليها فيما يتعلق بمسؤولية المؤمنين تجاه هذا النبي، والعواقب الوخيمة المترتبة على تكذيبه أو إنكاره.

### سفر التثنية، الإصحاح 18:

15 "يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ.

- 16 حَسَبَ كُلِّ مَا طَلَبْتَ مِنَ الرَّبِّ إِلَهَكَ فِي حُورَيْبَ يَوْمَ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: لَا أَعُودُ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِي وَلَا أَرَى هَذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضًا لِئَلَّا أَمُوتَ.
- 17 قَالَ لِي الرَّبُّ: فَدَأْ أَحْسِنُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا.
- 18 أَقِيمُوا لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ.
- 19 وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أَطَالِيهِ.
- 20 وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْعِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلَامًا لَمْ أَوْصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ إِلَهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذَلِكَ النَّبِيُّ.
- 21 وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلَامَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟
- 22 فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَخْذُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ يَطْعِيَانِ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُ" (التثنية 18 15-22).

بالنظر إلى تلك الآيات، نستنتج النقاط التالية بخصوص هذا النبي الموعود.

1. أنه يماثل موسى ﷺ.
2. أنه سيخرج من وسط إخوة بني إسرائيل.
3. سينطق هذا النبي بكلام الله الموحى إليه.
4. سيخبرهم هذا النبي بكل ما يوصيهم الله به.
5. أن من يأبى الإيمان بهذا النبي سيحاسبه الله.

بمراجعة جميع التفسيرات الحالية للكتاب المقدس (من منظور النصرانية)، نخلص إلى أن هذا النبي المبشّر به هو المسيح عيسى ﷺ، ولكن هذا لا يتفق مع بعض الصفات المذكورة أعلاه، بالإضافة إلى آيات أخرى من العهد الجديد، كما سنوثق الآن.

1. تناولت كتب أخرى أوجه التشابه بين محمد ﷺ وموسى ﷺ، وسأقدم ملخصًا لهذه النقاط الآن، وأترك للقارئ المهتم المجال لإجراء مزيد من البحث.

وُلد كل من موسى ﷺ ومحمد ﷺ ولادة طبيعية كحال غيرهم من البشر كما كانت وفاتهما طبيعية، فكلاهما تلقيا الوحي لأول مرة من الله ﷻ وهما على قمة جبل، كما قادا قومهما في الهجرة، وتلقيا الوحي الذي كان بمثابة التشريعات الدينية والمدد الروحي، وقاتلا أعداءهما في الحروب، وعادا إلى موطنهما منتصرين على أعدائهما، وعلاوة على ذلك، افترق كل من موسى ﷺ ومحمد ﷺ عن والديهما في سن الطفولة، وكلاهما تزوج وأنجب أطفالًا، وأصبحا نبيين في منتصف العمر.

أما المسيح عيسى ﷺ؛ فلا يمكن القول: إنه يشبه أي نبي، بل يختلف تمامًا عن أي نبي آخر؛ فالترجمة الصحيحة لإنجيل يوحنا 3: 16 (انظر فصل يسوع للمزيد من التفاصيل) تصف عيسى ﷺ "بالفريد"؛ حيث كانت ولادته ظاهرة من كل دنس، ولم يسبق لها مثيل في التاريخ، ولا يمكن مقارنتها إلا بولادة آدم الذي وُلد دون أم وأب. وهو النبي الوحيد الذي رُفِعَ إلى السماء حيًّا ليعود في المستقبل البعيد، وهو ما يُعرف بـ"المجيء الثاني"، وعلاوة على ذلك، كان عيسى ﷺ شابًا حينما كان يدعو بني إسرائيل، ولقد بعثه الله ﷻ نبيًّا قبل بلوغ منتصف العمر الذي سيبلغه في مجيئه الثاني، ولم يتزوج عيسى ﷺ قط، ولم يخض حربًا، ولم يتلق وحيًّا



يتضمّن تشريعات وأحكامًا دينية، (بل كان الوحي توجيهات روحية فقط)، ولم ينتصر قط على أعدائه في حياته؛ فعيسى ﷺ لا يختلف تمامًا عن موسى ﷺ فحسب، بل يختلف كذلك عن جميع أنبياء الله!

2. وثمة إشكالية أخرى تتوقف على التفسير تتمثل في القول بأن عيسى ﷺ هو النبي المعني على أساس الوصف التالي "النبي" بأنه سيكون من إخوة بني إسرائيل، وفي سياق مسعانا لفهم من هم إخوة اليهود تحديدًا، نرجع إلى سفر التكوين؛ حيث يشير الكتاب المقدس إلى بني إسرائيل بأنهم إخوة بني إسماعيل: "... وَأَمَّا جَمِيعُ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُونَ" (التكوين 16: 12).

وهذا بالطبع منطقي عند أخذه بعين الاعتبار؛ فإبراهيم ﷺ كان له ولدان: إسماعيل وإسحاق ﷺ؛ وقد كانا أخوين، ومن ثم ذريتهما مثل الإخوة بعضهم لبعض (أبناء عمومة)، ولو كان النبي الذي بُشِّرَ به من نسل إسحاق ﷺ، كما كان عيسى ﷺ، لقليل: سأقيم لهم نبيًا مثلك من وسطهم؛ فالإخوة المعنيون هم بنو إسماعيل، والنبي ﷺ من نسلهم.

3. وفيما يتعلق بعبارة: "وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ"، نجد تشابهًا مثيرًا للفضول في القرآن، حيث يقول الله ﷻ: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (سورة النجم: 3-4).

ومن خلال الاستعراض الخاطف للقرآن، نجد العديد من الآيات التي تبدأ بصيغة الأمر الموجّه إلى النبي ﷺ، مثل: "قُلْ"، و"ذَكَرْ"، و"نَبِّئْ"، وما إلى ذلك. وفي حالات أخرى، يأتي سائل إلى النبي ﷺ ليسأله عن أمر أو حكم شرعي، فتنزل الآية القرآنية بأسلوب مشابه للعبارة التالية {يَسْأَلُونَكَ... قُلْ}، يقول الله ﷻ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (سورة البقرة: 219).

هذا إلى جانب آيات أخرى في القرآن تبدأ بعبارات مثل: {وَقَالَ رَبُّكُمْ...}. ونقول إجمالًا: إن العديد من الآيات القرآنية جاء بصيغ "موجهة" للنبي ﷺ مباشرة؛ حتى ينقل كلام الله ﷻ بدقة ويأمر الناس به، وهكذا جعل الله كلامه على لسان نبيه.

4. ومما يثير الاهتمام أن 113 سورة من أصل 114 سورة في القرآن تبدأ بالآية الافتتاحية: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، زد على هذا أن أول ما نزل على النبي ﷺ قوله ﷻ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...} (سورة العلق: 1).

من الخصائص التي تميز شريعة النبي ﷺ أن الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تبدأ كل أعمالها اليومية بالبسملة، كما يفعل المسلمون عند قولهم: "بسم الله" عند الشروع في عمل أي شيء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظ الجلالة "الله" هو المقابل لكلمة "God" في اللغة الإنجليزية؛ فقولنا: "بسم الله" قبل الشروع في أداء العبادات أو إنجاز الأعمال الدنيوية هو تحقيق للنبوءة الموجودة في سفر التثنية (18: 19) حيث جاء في هذه الآية: "... يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي".

وهنا قبل الانتقال إلى النقطة الأخيرة، ينبغي إيراد بعض التعليقات ذات الصلة، وإحاطًا للحق، يمكن تفسير بعض العبارات الواردة في الآية المذكورة في سفر التثنية على أنها تنطبق على عيسى ﷺ، ولقد أدى هذا إلى إلباس أمر هويته أثناء حياته الدنيوية وبعدها. ويسلط الجزء التالي من إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع، الضوء على هذا اللبس الحاصل حول هوية عيسى ﷺ بين عامة الناس في عصره:

40. "فَكثِيرُونَ مِنْ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلَامَ قَالُوا: "هَذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ".
41. آخَرُونَ قَالُوا: "هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ!". وَآخَرُونَ قَالُوا: "أَعَلَّ الْمَسِيحُ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِي؟
42. أَلَمْ يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ، وَمِنْ بَيْتِ لَحْمٍ، الْفَرِيزِيُّ الَّذِي كَانَ دَاوُدُ فِيهَا، يَأْتِي الْمَسِيحُ؟"
43. فَحَدَّثَ انْتِشَاقٌ فِي الْجَمْعِ لِسَبَبِهِ".

لماذا اختلط عليهم الأمر؟ أحد الأسباب هو أن الآية المذكورة في سفر التثنية قد تنطبق للوهلة الأولى على عيسى ﷺ. فقد فسّر النصارى عبارة: "مِثْلُ مُوسَى" على أنها تعني أن عيسى ﷺ كان مثل موسى ﷺ في وعظه ودعوته لبني إسرائيل وفي معجزاته المدوية؛ فكونه من وسط إخوة بني إسرائيل قد يعني أيضًا من وسط بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا اثني عشر سبطًا، حيث يعود نسبا عيسى وموسى ﷺ إلى سبطين مختلفين؛ كانا "أخوين" في الأصل، وبالطبع، سيتكلم جميع أنبياء الله باسمه ﷺ، ويبلغون ما يأمرهم أن يبلغوه بطريقة أو بأخرى.

فكيف إذن نعرف هوية "النبي"؟ هناك ثلاثة أدلة مستمدة من الكتاب المقدس تساعدنا في معرفتها على وجه اليقين. أولاً، كان الناس ينتظرون قدوم شخصين مختلفين: أحدهما المسيح، والآخر "النبي". ونلاحظ أنه لم يقل أحد عن عيسى ﷺ في أي فترة زمنية: إنه هو المسيح والنبي، بل تبين الآيات السابقة المقتبسة من إنجيل يوحنا أن الناس لم يكونوا على يقين مما إذا كان عيسى هو النبي أو المسيح، فلم يشر أحد أو يظن أن النبي والمسيح يشيران إلى شخص عيسى في الوقت ذاته. نعم، كان عيسى ﷺ نبيًا، لكن النبي المنتظر كان شخصًا مختلفًا تمامًا، وبإمكاننا فهم هذه النقطة بالذات من استجواب كهنة اليهود (الصدوقيين والفريسيين) ليوحنا المعمدان كما سنذكر أدناه.

ثانيًا: أشار عيسى ﷺ في مواضع عديدة أنه هو المسيح، وعندما سأل الحواريين عن اعتقادهم فيه، أجاب بطرس: إنه ﷺ هو المسيح، ولم يقل عيسى ﷺ في أي موضع: إنه هو "النبي".

لكنّ الدليل الأخير يحو كل شكوك الباحثين الموضوعيين، وهو مستمد من إنجيل يوحنا 7: 52، حيث يذكر كهنة اليهود الآخرين "نيقوديموس" -الذي سيصبح بعد ذلك أحد الحواريين (كما هو مدوّن في أقدم مخطوطات الكتاب المقدس)- قائلين له: "... فَتَشَّ وَانْظُرْ! إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْجَلِيلِ".

ولا شك أن بعض الناس سيواصلون الإتيان بحجج كاذبة للتشكيك في هذه الحقيقة الناصعة الواضحة؛ ولهذا السبب، سنقدم أدلة أخرى فيما يلي، لكن ثمة مسألة مهمة ينبغي أخذها بعين الاعتبار، وهي النقطة الأخيرة المقتبسة من آيات سفر التثنية.

5. يجب على كل قارئ في هذه المرحلة أن يفكر مليًا في الوعيد بعقاب الله بالإعراض عن هذا النبي! فمن يُعرض عنه، سيحاسبه الله ﷻ كما هو مذكور في سفر التثنية، وفي هذا المعنى قد قال النبي ﷺ نفسه:

"والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي

أُرْسِنْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" (رواه مسلم).

أدلة أخرى من الكتاب المقدس- استجواب يوحنا المعمدان  
ثمة أدلة أخرى مقنعة للقراء النصارى الذين يرغبون في فهم هذه المسألة على نحو أفضل؛ حيث إن دليل العهد الجديد الذي يثبت أن محمداً ﷺ جاء لتحقيق هذه النبوءة مقتبس من إنجيل يوحنا.

### إنجيل يوحنا 1:

- 19 وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوْحَنَّا، حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلَاوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: "مَنْ أَنْتَ؟"  
20 فَأَعْتَرَفَ وَلَمْ يُكْرَرْ، وَأَقَرَّ: "إِنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحُ."  
21 فَسَأَلُوهُ: "إِذَا مَاذَا؟ إِبِلِيَّا أَنْتَ؟" فَقَالَ: "لَسْتُ أَنَا." "الْذَّبِّيُّ أَنْتَ؟" فَأَجَابَ: "لَا."

من أجل فهم هذه الآيات، لا بد أن يعرف القارئ أنه حينما بدأ يوحنا المعمدان في تعميم الناس، جاءه كهنة اليهود والأخبار للاستفسار عن هويته؛ فقد أشتهر أخبار اليهود بمعرفتهم المتعمقة بأمر الوحي والنبوءات؛ ومن ثم كانوا ينتظرون قدوم ثلاثة أشخاص مختلفين، وهم: إيليا (رجوعه)، والمسيح، والنبى (المذكور في سفر التثنية، والذي سبق الحديث عنه أعلاه)، وهم يلخصون ذلك بقولهم: "وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ، فَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ: "فَمَا بِالْكَ تَعَمَّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحُ، وَلَا إِبِلِيَّا، وَلَا الذَّبِّيُّ؟"" (يوحنا 1: 24-25).  
إذن، قبل الانتقال إلى المسألة الرئيسية، علينا أن نعرف من هو إيليا الذي كان هؤلاء الكهنة يسألون عنه؟ يأتي الجواب عن هذا السؤال لاحقاً حينما قال عيسى ﷺ مخاطباً حواربيه:

"وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهَذَا هُوَ إِبِلِيَّا الْمُرْمَعُ أَنْ يَأْتِي." (متى 11: 14).

وعليه، لو كان يوحنا المعمدان هو إيليا، لكان السؤال التالي: من المسيح؟ والإجابة عن هذا السؤال سهلة، ولا تحتاج إلى إمعان التفكير؛ حيث لا يعترض أحد على أن عيسى ﷺ هو المسيح، ومن ثم فإن السؤال الوحيد الذي بحاجة إلى إجابة هو: من كان النبي المنتظر الذي يسأل عنه الفريسيون؟ سيقول علماء اللاهوت النصارى المعاصرون إن هذا النبي المنتظر كان أيضاً عيسى ﷺ، ولكن كيف ذلك؟

كان الأخبار وكهنة اليهود يسألون عن الشخصيات الثلاثة المختلفة؛ حيث فهموا أن النبوءات تشير إلى وجود ثلاثة أنبياء باقين، ولو كان عيسى ﷺ هو المسيح والنبى، لسأل الكهنة أسئلة من قبيل: من أنت؟ أنت المسيح والنبي المنتظر؟ وإنما سألوا عن شخصين مختلفين، وبناءً عليه، فإن محمداً ﷺ هو "النبي" الذي كان ينتظره كهنة بني إسرائيل، وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون واضحة تماماً للباحثين الذين يتسمون بالموضوعية والنزاهة.

### عهد الختان

تتعلق نقطة المناقشة التالية أيضاً بنبوءة محمد ﷺ من نصوص الكتاب المقدس. وتُرد في الآية التالية المذكورة في سفر التكوين 17: 19-21 إحدى الحجج الشائعة، وإن كانت واهية تماماً، والتي تنفي النبوءة عن ذرية إسماعيل ﷺ أو تنكر جزءاً من عهد الله مع إبراهيم:

"فَقَالَ اللَّهُ: "بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأُنْمِرُهُ وَأَكْثِرُهُ كَثِيرًا جَدًّا. إِنَّنِي عَشْرَ رَنِيْسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً."

وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ".

يستطيع المرء إذن أن يستنتج أن العهد، أو الميثاق -الذي أخذه الله ﷻ مع إبراهيم ﷺ، والذي يقضي بالنبوة والهداية- موقوف على إسحاق وحده، بينما على الجانب الآخر، يصير إسماعيل ﷻ -الابن المسكين- أمة عظيمة، لكن لا يبدو أن له نصيباً في ميراث النبوة.

هذا ما يريد أكثرهم أن يوهمنا به، ولكن في حقيقة الأمر تتناقض الآيات المذكورة أعلاه تمامًا مع الآيات المتبقية من سفر التكوين 17، وهذا واضح جلي؛ فهل زيدت الآيات 19-21 لاحقاً أم أنها من النصوص المحرّفة؟ لا أحد يستطيع الجزم بذلك، ولكن لنلق نظرة على سياق آيات سفر التكوين 17 لتتأكد من ذلك بأنفسنا على النحو الآتي.

### سفر التكوين 17

- 1 وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: "أَنَا اللَّهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا،
- 2 فَأَجْعَلْ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأَكْثِرْكَ كَثِيرًا جَدًّا".
- 3 فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ، وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا:
- 4 "أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبَا لِحُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ،
- 5 فَلَا يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبَا لِحُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ.
- 6 وَأَتَمْرُكَ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَّامًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ.
- 7 وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لِأَكُونَ إِلَهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ.
- 8 وَأَعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ عُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا، وَأَكُونُ إِلَهُهُمْ".
- 9 وَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: "وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ.
- 10 هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ،
- 11 فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ عُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلَامَةً عَهْدِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.
- 12 ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلَيْدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِوَضْعَةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ.
- 13 يُخْتَنُ خَتَانًا وَلَيْدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِوَضْعَتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا.
- 14 وَأَمَّا الذَّكَرُ الْأَعْفَى الَّذِي لَا يُخْتَنُ فِي لَحْمِ عُرْلَتِهِ فَتَنْقُطُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا؛ إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي".

ولنبدأ الآن بدراسة هذه الآيات.

تنص الآية 7 على أن الله ﷻ قال لإبراهيم ﷺ: "وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك".

توضح هذه الآية أن جميع نسل إبراهيم ﷺ، دون استثناءٍ لذرية تنحدر من أم معينة، سيكون جزءاً من العهد. وثمة نقطة أخرى بالغة الأهمية في هذه الآية وهي أن إله إبراهيم ﷺ هو ذاته إله الذرية التي ستصبح جزءاً من العهد، وإذا ثبت أن أمة محمد ﷺ (المسلمين) جزء من هذا العهد العظيم، فلن يكون ثمة مجال لمن يزعمون أن إله المسلمين يختلف عن إله اليهود أو النصارى.

الدليل الأول على أن أمة الإسلام يشملها هذا العهد، بسبب نسبها مع إسماعيل ﷻ -مستخلص من الآية التالية؛

حيث وعد الله ﷺ إبراهيم ﷺ بأن أرض كنعان ستكون ملكاً لأهل هذا العهد، وهذا الوعد غير مشروط؛ حيث أكده الله ﷻ في الكتاب المقدس 55 مرة على الأقل بقسم، و12 مرة على الأقل بتصريح، وهو عهد أبدي. ولفهم هذا العهد على نحو أفضل، يجب أن نعرف أين تقع كنعان تحديداً؟ هناك تعريفان مختلفان في الوقت الحالي لمنطقة كنعان<sup>1</sup>، حيث إن:

(أ) التعريف الأول يشير إلى جميع الأراضي الواقعة بين نهر النيل في مصر ونهر الفرات في العراق.  
(ب) يمثل التعريف الثاني ما يُعرف اليوم بحدود الأراضي الفلسطينية وأراضي الاحتلال. وبغض النظر عن التعريف المستخدم، فالمهم أن نعلم في قرارة أنفسنا أن كنعان كانت دائماً تقع في قلب فلسطين.

في كلتا الحالتين، منذ بعثة محمد ﷺ التي مر عليها الآن أكثر من 1400 عام، كانت هذه الأراضي -سواء استخدمنا التعريف (أ) أم التعريف (ب) - تخضع لحكم المسلمين وسيطرتهم لأكثر من 1200 عام (من أصل 1400 عام)، أو نحو 85% من تلك الفترة الزمنية. فينبغي لأي قارئ منصف أن يقرّ بأن امتلاك الأرض المقدسة، كما يطلق عليها عادةً، لأكثر من 1200 عام حقيقة لا يمكن تجاهلها، وصحيح أن الأمم الكافرة الأخرى احتلت هذه الأرض، لكن ما من أمة احتفظت بها كل هذه المدة مثل المسلمين الذين عمّروا الأرض كلها بالعبادة والخير والإحسان والتقوى والتدبر في كلام الله ﷻ، على عكس الأمم السابقة.

وأما الدليل التالي، فهو متضمن في الآيتين 10 و11: "هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُحْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُحْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلَامَةً عَهْدِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ". وهذا يعني أن علامة أمة الله، أو أمة العهد، تتمثل في اختتان رجالها؛ فهل اختتن إسماعيل ﷺ؟

ونقرأ في (سفر التكوين 17: 23) ما يلي: "فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وَلَدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُتَبَاعِينَ بِفِضْتِهِ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَحَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا كَلَّمَهُ اللَّهُ". وبعد ذلك في الآية 26، تكرر الأمر نفسه بقوله: "فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ حَتَنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَهُ". وقد أتبع النبي ﷺ هذه السنة، وأمر بختان جميع المسلمين الذكور؛ فالمسلمون يمتلكون صفة من صفات العهد، في حين أن الذين يدعون أنهم ورثة هذا العهد -النصارى- لم يمتلكوا لأمر الختان! فكيف لأحد أن ينكر هذا الأمر أو يتحايل عليه، في حين أن الله ﷻ بين في الآيتين 11 و13 أن هذا العهد سيكون "في لحم غُرْلَتِكُمْ" و"عَهْدًا أَبَدِيًّا"؟ كما تؤكد الآية 14 على الفكرة ذاتها:

"وَأَمَّا الذَّكَرُ الْأَغْفُ الَّذِي لَا يُحْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتَقَطُّعْ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي".

وعليه، نقول باختصار إننا لا نجد حجة مقنعة أو دامغة تؤيد استبعاد إسماعيل ﷺ أو أمة محمد ﷺ من هذا العهد للأسباب التالية:

- (1) إسماعيل ﷺ من نسل إبراهيم ﷺ، ومحمد ﷺ من ذرية إسماعيل ﷺ.
- (2) كان المسلمون يمتلكون أرض كنعان في أغلب الحقب التاريخية.
- (3) اختتن إسماعيل ﷺ ويختتن جميع المسلمين وفقاً لشروط العهد.

<sup>1</sup> يرجع عدم الوضوح فيما يتعلق بالحدود الدقيقة لكنعان إلى صعوبة تحديد بعض النقاط المرجعية الجغرافية المذكورة في العهد القديم من الكتاب المقدس.

## محمد ﷺ نبي أم مدع للنبوّة؟ النظر في مسألة النبوّة

بالاعتماد على الكتاب المقدس، نجد دليلاً يثبت حقيقة نبوة محمد ﷺ، وقد ورد في سفر التثنية؛ حيث تقول الآيات 21-22: "وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه".

نحن في هذه الآيات أمام اختبار للنبوّة، فلو قال مدع للنبوّة شيئاً لم يحدث أو لم يتحقق، فهو كاذب، ولكن إذا تحدث عن نبوءات، وتحققت كما أخبر بها، فهذا يعني أنه يتكلم بوحي من الله ﷻ. والسؤال الرئيس الذي يطرح نفسه هو: هل أخبر النبي ﷺ بأي نبوءات؟ وهل تحققت هذه أم لا؟  
أولاً، سنسوق أمثلة من القرآن عن النبوءات التي تضمنتها بعض آياته، ثم نبحث في الأحاديث النبوية لاستعراض أمثلة في الصدد نفسه.

### نبوءات القرآن الكريم

يتضمن القرآن العديد من أمثلة النبوءات، ولكن أكرّر مرة أخرى أنه نظراً للطبيعة التمهيدية لهذا الكتاب، سأكتفي ببعض الأمثلة من القرآن الكريم، ثم أنتقل بعد ذلك إلى الحديث النبوي في الجزء التالي.  
ستركز النبوءة الأولى التي سيجري مناقشتها على حدث تحقق في حياة النبي ﷺ؛ ألا وهو هزيمة جيش الفرس الإمبراطوري على يد جيش الروم البيزنطي، بعد هزيمتهم الأولى؛ حيث قال الله ﷻ في سورة "الروم":

{الم. غَلَبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بضعِ سنينَ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرْحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوَأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ فَمَن أَتَى الصَّالِحَاتِ فَرِحَ فِي رَوْضَةٍ يَجْرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} (سورة الروم: 1-18).

نزلت هذه الآيات في الانتصار الذي حققه الفرس على أراضي الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في بلاد الشام، وكانت مدينة القدس عاصمتها في ذلك الوقت، واضطر هرقل، عظيم الروم، إلى الفرار إلى القسطنطينية (إسطنبول الحالية) حيث حاصره الفرس لفترة طويلة.

كان العرب الوثنيون الذين عارضوا النبي ﷺ فرحين بانتصار الفرس على الروم؛ لأن الفرس كانوا وثنيين مثلهم. أما المسلمون؛ فكانوا يتطلعون إلى انتصار الروم الذين كانوا أهل كتاب (نصارى).

ولما أطلع النبي ﷺ على نتائج المعركة، قال: "سَيَغْلِبُونَ"، وعندما سُئل عن تحديد فترة زمنية لذلك، أجاب:

"فِي بَضْعِ سِنِينَ"، كما جاء في الآية. وتمكّن الروم بعد سبع سنوات من رد هجوم الفرس عقب هذه الهزيمة الساحقة، واستعادوا ما خسروه في السنوات الماضية.

وقد تتساءل: ما الذي يجعل هذا النبوءة استثنائية؟ وما المعضلة؟ الحرب سجل بين الأمم. إن الطبيعة المميّزة لهذه النبوءة لا تتمثل في تحديدها فترةً زمنية بعينها فحسب، وإنما في الحالة المزرية التي كانت عليها الروم (الإمبراطورية البيزنطية) في ذلك الوقت.

أصبح هرقل قيصر الروم (الإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية الشرقية) في عام 610 م، بعدما اعتلى عرش الإمبراطورية التي خلفها جستنيان مهلهلة محطمة بسبب الحروب والنزاعات، وفي ذلك الوقت، كانت الإمبراطورية قد اجتاحتها السلاف والأفار في شبه جزيرة البلقان، والفرس في آسيا الصغرى. وفي عام 611 م غزا الفرس سوريا، واستولوا على دمشق في عام 613 م، وفي عام 614 م احتلوا القدس، ونهبوا المدينة، ودمروا الكنائس ككنيسة القيامة، وأعادوا بقايا الصليب إلى أراضيهم.

وفي عام 614 م دمر السلاف مدينة سالونا الإدارية، ولم يتبق سوى مدينة القسطنطينية، وسالونيك، وعدد قليل من المدن الأخرى الواقعة على البحر الأدرياتيكي تحت سيطرة الروم خلال هذا الغزو السلافي. واقترب الفرس من القسطنطينية من ناحية الشرق، بينما تقدم الأفار والسلاف من الشمال، وكاد هرقل نفسه أن يُقتل على يد الأفار عام 617 م، وواصل الفرس أيضًا هيمنتهم المطلقة على بلاد الروم من خلال غزو مصر والاستيلاء على مدينة الإسكندرية عام 619 م.

وفي عام 619 م، تصدى الإمبراطور هرقل لهذا الدمار الوشيك لإمبراطوريته، وعقد معاهدة مع الأفار؛ حيث عرض عليهم دفع جزية كبيرة (بمناية رشوة في الأساس)؛ حتى يتفرغ لقتال الفرس. وبفضل الدعم المالي المقدم من الكنيسة البيزنطية ذات النفوذ والثراء، توجه هرقل نحو الشرق لحشد قواته في ربيع عام 622 م، ونجح أخيرًا في طرد قوات الفرس من أراضي الروم السابقة في آسيا الصغرى وأرمينيا.

كانت هذه المعركة باكورة سلسلة انتصاراته على الفرس، والتي وضعت حدًا لانتصاراتهم المتتالية على الروم. وقد تنبأ القرآن بهذه الانتصارات؛ حيث كانت بدايةً نهايةً هيمنة الفرس على أراضي الروم السابقة، ووقعت بعد نحو سبع إلى ثماني سنوات من سقوط القدس، وجاء الانتصار الأخير المذهل لهرقل على الفرس، والذي أدى إلى طردهم تمامًا من بلاد الشام والقدس، بعد خمس سنوات في عام 627 م في معركة نينوى الكبرى.

2 ومن النبوءات العجيبة الأخرى تلك التي أخبر فيها النبي ﷺ أصحابه أنهم سينتصرون على أهل مكة الذين كانوا في ذلك الوقت ألد أعدائهم؛ فقد رأى في منامه أنه يؤدي مناسك العمرة، وبشّر أصحابه بذلك. ولأن الصحابة يعلمون أن رؤى النبي ﷺ وحي، وستتحقق لا محالة، أعدوا العدة للذهاب إلى العمرة.

لكن لدى وصول المسلمين إلى مشارف مكة، أوقفهم أهلها في مكان يسمى الحديبية، وعقد هناك الطرفان صلحًا بعد مفاوضات بينهما، واعترض المسلمون بشدة على بعض بنود هذه المعاهدة، وتساءل الكثيرون عن السبب الذي يدفعهم للعودة إلى المدينة المنورة دون أداء مناسك العمرة، وهم على الحق، والمشركون في مكة على الباطل، ولكن الآيات التي نزلت بعد عقد الصلح وصفته بالفتح المبين، وبشّرت المؤمنين بالنصر اليقين

على مشركي مكة في القريب العاجل؛ حيث قال الله ﷻ:

{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (سورة الفتح: 27-28).

تمكّن المسلمون بعد الصلح بعام واحد من أداء العمرة وتحقيق رؤيا النبي ﷻ، وفي العام التالي فتحوا مكة. وعلى الرغم من أن عدد المسلمين لم يتجاوز نحو 1500 رجل وقت توقيع صلح الحديبية، فقد تمكن النبي ﷻ بعد ذلك بعامين من فتح مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل مسلم؛ حيث ساعدت الهدنة التي استمرت عامين في انتشار رسالة الإسلام على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية.

3 ثمة نبوءة أخرى مثيرة للاهتمام بخصوص فرعون مصر الذي اضطهد بني إسرائيل، وقد أرسل الله موسى ﷺ إليه ليدعوه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، والإذن لبني إسرائيل بمغادرة مصر مع موسى ﷺ، فأبى فرعون، واستمر الصراع بينهما لعدة سنوات، وذات ليلة تمكّن موسى ﷺ من السير بقومه ليلاً تجاه البحر الأحمر، لكن فرعون خرج في إثره، بعد أن علم بمحاولته للفرار، وعقد العزم على إبادة بني إسرائيل عن آخرهم.

وعندما وصل موسى ﷺ إلى البحر الأحمر، ضرب البحر بعصاه بأمر من الله ﷻ، فانشق منه طريق مُعْجَز مرّ بنو إسرائيل من خلاله إلى بر الأمان، وحاول فرعون للحاق بهم، لكنه غرق مع جنوده، وهذه القصة يعلمها اليهود والنصارى؛ حيث وردت في الكتاب المقدس، ولكن الآيات التالية تتحدث عن نهاية القصة، وتتضمن نبوءة مذهلة انفرد بها القرآن، حيث قال الله ﷻ:

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} (سورة يونس: 90-92).

في منتصف القرن العشرين، فحص العلماء مومياءات الفراعنة وملوك مصر القديمة التي اكتشفت ووضعت في المتحف المصري الكبير، وتمكنوا من اكتشاف جثة فرعون موسى في المتحف. وقد تصادف أن هذه الجثة تعرضت لكسور متعددة في عظام الجمجمة صوّرت بالأشعة السينية، وكشفت أدلة على الغرق من خلال الفحص التفصيلي للتجويف الصدري، حيث بدا كما لو سقط عليه جبل من المياه<sup>1</sup>، والقرآن يحدثنا بنبوءة لم تتحقق إلا في مائة العام الماضية!

قبل الانتقال إلى نقطة أخرى، يردد كثير من الناس في الوقت الراهن، الادعاء الكاذب بأن محمداً ﷺ نقل قصص الأمم السابقة المذكورة في القرآن من الكتاب المقدس، والمثير للدهشة أن هذه النبوءة التي أشرنا إليها أعلاه لم تُذكر البتة في الكتاب المقدس الحالي، ما جعلنا أمام احتمالين لا ثالث لهما: (أ) إما أن الكتاب المقدس شابه التحريف والتبديل، وأن هذه النبوءات كانت موجودة من قبل، ولكنها فقدت الآن، (ب) وإما أن محمداً

<sup>1</sup> القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ( La Bible, le Coran et la Science: Les Écritures Saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Seghers 1976) سيجرز 1976، (الترقيم الدولي: 978-221501535)، نسخة جيبيية 2003، (الترقيم الدولي: 978-2266131032)



ﷺ نبي الله ورسوله الذي أوحى إليه وأطلعه على أمور تفصيلية لم تكن في الكتب السابقة. وسأترك لكم الحكم.

4 وفي السياق نفسه، يصف القرآن حاكم مصر بـ "الملك" في زمن يوسف ﷺ، بينما يخاطب موسى ﷺ الحاكم بـ "فرعون"، وهذا وصف في غاية الدقة؛ لأن حكام مصر في زمن يوسف ﷺ كانوا من سلالة الهكسوس وكانوا من الساميين؛ فلم يطلقوا على أنفسهم "فراعنة"، ولم يُستخدم هذا المصطلح إلا في عهد الأسر المصرية الأصلية التي حلت محل أسرة الهكسوس في زمن موسى ﷺ. وقد ثبت عدم دقة الكتاب المقدس في هذه النقطة تحديداً؛ حيث يشير إلى كلا الحاكمين (الحاكم في عهد يوسف، والحاكم في عهد موسى) باسم "فرعون"، في حين أن القرآن يصف بدقة بعض جوانب الديانة المصرية القديمة، ولا سيما عبادة فرعون إلهاً من دون الله ﷻ. ولم تُكتشف هذه الحقائق إلا في القرن العشرين بعد إجراء بحوث أثرية مكثفة، ولم يعلمها النبي ﷺ إلا عن طريق الوحي من الله العليم الخبير.

5 ثمة نبوءة أخرى لم تتحقق إلا في المائة عام الماضية، وهي إعادة تأسيس دولة إسرائيل، حيث يقول الله ﷻ: **{وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}** (سورة الإسراء: 104) يبين الله ﷻ في هذه الآية أنه بعد تشتت بني إسرائيل وتفرقهم، سيجمع الشتاتهم من الأرض، وهو ما يصف بدقة الهجرة المستمرة لليهود من مختلف بلدان العالم إلى دولة إسرائيل حتى يومنا هذا. وثمة نبوءة أخرى وردت في صدر سورة الإسراء، وهي أن الله سيهلك بني إسرائيل كعقاب لهم على عصيانهم المستمر، واستكبارهم عن اتباع أمره؛ إذ كان عليهم اتباع أحكام الله ﷻ والامتثال لأمره وهو الذي مكن لهم في الأرض.

6 أما النبوءة الأخيرة من القرآن؛ فهي نبوءة العداوة الدائم بين مختلف طوائف النصارى والتي ستظل قائمة إلى يوم القيامة. قال الله ﷻ: **{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}** (سورة المائدة: 14).

قال الإمام المفسر ابن كثير عن هذه الآية: **"...فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..."** أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد".

والمأمل يجد أن هذا هو واقع النصارى حتى يومنا هذا، كما شهد بذلك العديد منهم، وكادت هذه النبوءة القرآنية في حد ذاتها تتيح لهم فرصة سانحة لتكذيب القرآن لو أرادوا؛ إذ كان بإمكانهم تغيير نهجهم وطريقتهم، لكنهم لم ولن يتغيروا؛ بسبب نبذهم العهد والميثاق مع الله ﷻ، وهذه آية أخرى على صدق القرآن وطبيعته الإعجازية.

نبوءات من الحديث النبوي  
التزاماً منا بإجراء "اختبار" الكتاب المقدس الذي ينص على أن النبي الحقيقي هو من تتحقق نبوءاته، تعجّ

السنة النبوية بالنبوءات التي أخبر بها النبي ﷺ. فهناك الكثير من النبوءات التي يصعب ذكرها كلها في هذا الجزء؛ حيث إنها تمثل موضوعات كتب أو موسوعات كاملة، ولكن سأبذل جهدي في هذا الكتاب لأعطي القارئ تصورًا جيدًا للطابع التفصيلي لنبوءات النبي ﷺ، وعندئذ يمكننا البحث عن مزيد من المعلومات حولها لاحقًا، وسنذكر في جميع الأمثلة الواردة أدناه الحديث، ثم نُتبعه بتعليق موجز لتيسير فهمه.

1. عَنْ نَافِعِ بْنِ عُثْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَالَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ" (رواه مسلم).

وفي حديث آخر يؤيد ما ورد في الحديث السابق، رُوِيَ عن أَبِي قَبِيلِ الْمَعْفَرِيِّ، قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى: قُسْطَنْطِينِيَّةٌ، أَوْ رُومِيَّةٌ؟ قَالَ: فَدَعَا بِصُنْدُوقِ طُهُمٍ - وَالطُّهُمُ الْخَلْقُ - فَأَخْرَجَ مِنْهَا كِتَابًا فَنَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَكْتُبُ مَا قَالَ، فَسُئِلَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى: الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوْلَى. يَعْنِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ" (رواه أحمد والدارمي وغيره كثير).

يشير قول النبي ﷺ "مدينة هرقل" إلى القسطنطينية التي كانت عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية؛ حيث تُوِّج هرقل قيصرًا. ولقد تحققت هذه النبوءة في القرن الخامس عشر؛ أي بعد ثمانمائة عام من إخبار النبي ﷺ بها، وذلك عندما غزا الخليفة العثماني، محمد الفاتح، القسطنطينية (تُعرف المدينة الآن باسم إسطنبول). تحققت كلتا النبوءتين كما سجّلها التاريخ بالترتيب الذي تنبأ به النبي ﷺ على وجه الدقة. وأما الحديث الثاني؛ فهو دليل على أن أحاديث النبي ﷺ قد دُوِّنت في حياته.

تنبأ النبي ﷺ بفتح مصر، وأمر أصحابه أن يستوصوا بأهلها خيرًا، وأخبر أن المسلمين سيفتحون بلاد اليمن وقصور فارس البيضاء بكل ما فيها من كنوز إمبراطور الفرس كسرى، وكان ذلك أثناء الحصار الذي فرضه تحالف المشركين وغيرهم من القبائل العربية على المدينة. وقد سخر بعض المنافقين حينما سمعوا هذه النبوءة، وقالوا: يعدنا محمد قصور اليمن وفارس والروم، ولا يستطيع أحدنا أن يبرز إلى الخلاء، هذا والله هو الغرور. وبعد بضعة عقود، تحققت كل هذه النبوءات كما حدّث بها النبي ﷺ في الحديث الشريف.

2. عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَفَعَاصِ الْعَنَمِ، ثُمَّ اسْتِغَاثَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيُظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيُعْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا" (رواه البخاري وغيره).

هذا الحديث مثال آخر على النبوءات التي لم يكتفِ فيها النبي ﷺ بذكر التفاصيل الدقيقة للأحداث، ولكنه أيضًا حدّد مكان حدوثها وتسلسلها على وجه الدقة؛ فقد فتح المسلمون القدس بعد مرور عقد من الزمن على وفاة النبي ﷺ، وبعدها ببضع سنوات تفتى الطاعون في بلدة عمواس بالشام، ما أدى إلى وفاة نحو سبعين ألف مسلم، ثم كثر المال مع غزو المسلمين لفارس والعديد من أراضي الروم البيزنطية. وظل المال يفيض في أيدي المسلمين الذين كانوا فقراء في الأصل لدرجة أن بيت المال في عهد الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز لم يجد فقراء لتوزيع الصدقات عليهم؛ لأن جميع المسلمين كانوا ميسوري الحال في هذه الفترة. أما فيما يتعلق بالفتنة التي ستصيب العرب وانتهاء الصلح مع الروم؛ فلم يحدث أي منهما حتى الآن، ويُفهم أنهما يسبقان

بعض علامات الساعة الكبرى.

3. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزًا، وكَرَمَانَ مِنَ الْأَعَاجِمِ حُمَرَ الْوُجُوهِ، فَطَسَّ الْأَنْوَفِ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ وَجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ، نِعَالَهُمُ الشَّعْرُ" (رواه البخاري).

يبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث للصحابة أن المسلمين سيقاتلون الغزاة المغول (جنكيز خان وغيره) الذين تطابق وصفهم مع الوصف الذي ورد في الحديث أعلاه. وفي حديث آخر، ينصح النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه أيضًا بقوله: "اتركوا التُّركَ ما تركوكم..."، في إشارة إلى ضراوتهم ووحشيتهم والرعب الذي سيُلقونه في قلوب المسلمين عندما يلتقون بهم في ساحة المعركة. وقد واجه المسلمون هؤلاء المحاربين الملحنيين لأول مرة بعد نحو سبعمئة عام من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكادوا أن يُبادوا عن آخرهم في بلاد الشام قبل أن يتحول هؤلاء الغزاة أنفسهم إلى الإسلام.

ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه ستكون علامات تنذر باقتراب اليوم الآخر، ومن بينها تلك العلامات التي وقعت كفلق الصبح:

4. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "... وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتناولون في البنيان..." (رواه مسلم).

يتبارى اليوم عرب شبه الجزيرة العربية، الذين كانوا قبل أقل من خمسين عامًا (قُبيل اكتشاف النفط في مناطق كثيرة من شبه الجزيرة العربية) رعاة للابل والغنم مُعَدِّمين، في تشييد أطول وأفخم ناطحات سحاب على ظهر كوكب الأرض. وقد شاهدت بنفسي مقطع فيديو أرسله صديق لي من الإمارات العربية المتحدة يوضح كيف تحولت تلك الدولة من الصحاري الشاسعة ذات الخيام المتناثرة والرعاة الرحل المتجولين إلى جنة حقيقية تزخر بوسائل الترف والتكنولوجيا الحديثة مع بدء اكتشاف النفط في أراضيها!

والشيء اللافت للنظر في هذا الحديث هو أن هذه المباني الشاهقة يجري بناؤها في الصحراء؛ فحسب العُرف، تُبنى ناطحات السحاب عندما لا توجد مساحات كافية من الأراضي للبناء عليها أفقياً، وحينها لا نجد بدءاً من التوسع رأسياً في البناء، بينما تتوفر في الصحراء المساحات الشاسعة من الأراضي لإنشاء المباني عليها، ولكن هؤلاء العرب يتنافسون في تشييد ناطحات السحاب من باب الإسراف والتفاخر، وهما من الصفات التي ستشيع بين المسلمين قبل يوم القيامة.

5. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ" (رواه أبو داود).

في السنوات المائة القليلة الماضية، ازدادت فخامة المساجد على نحو مبالغ فيه؛ حيث تغلوا قباب مكسوة بالقرميد ومنقوشة بخطوط مزخرفة، وبها أرضيات مصنوعة من الرخام ومفروشة بسجاد سميك، تتدلى من فوقه الثريات باهظة الثمن، هذا رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالبساطة في بناء المساجد وحذر من الإسراف.

6. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يُدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ..." (رواه مسلم).

لم تتحقق هذه النبوءة إلا في الخمسين عامًا الماضية على نحو دقيق وعجيب، ففي أمريكا اليوم (وهي ظاهرة تنتشر للأسف في العديد من البلدان الأخرى)، تطلب العصابات من أعضائها الجدد قتل أناس بصورة عشوائية ضمن "طقوس الالتحاق بالعصابة"؛ فلا يدري القاتل لماذا قتل ضحيته، ولا تعرف الضحية لماذا قُتلت.

وقد امتد الهزج أيضًا إلى ساحة الحروب؛ حيث يتساءل الجنود عن سبب إرسالهم إلى البلاد القاصية والمُكث فيها حتى يُقتلوا ويُقتلوا، ويتساءل كذلك آلاف الضحايا ما جريرتهم حتى تفتك بهم "القنابل الذكية" وتخرق أجسادهم البنادق الهجومية الآلية التي يضغط على أزرارها جنود غير مكترئين بشيء دون حسيب أو رقيب.

7. عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: "أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم" (أخرجه ابن ماجه).

يتضمن هذا الحديث الشريف بعض النبوءات الخطيرة التي أخبر بها الصادق المعصوم عليه السلام، والتي تحقق الكثير منها (إن لم يكن كلها) في عصرنا الحاضر. فالعلاقة السببية الأولى المذكورة مرتبطة بزيادة التحرر أو الانفلات الجنسي، ولذا انتشرت الأمراض التي لم يسمع الناس بها من قبل نتيجة لتلك الإباحية، وأوضح مثال على ذلك ظهور الإيدز في عصرنا.

يعيش المسلمون الآن حقبة خلت من قائد مسلم يجتمعون عليه (خليفة)، نعم، مرت فترات على المسلمين لم تجتمع فيها كلمتهم على خليفة واحد، ولكنهم لم يعيشوا لعقود طويلة دون قيادة إسلامية مركزية، ويمكن إرجاع هذه الإشكالية إلى مطلع القرن العشرين، عندما بدأت الدول المسلمة، للمرة الأولى، في تطبيق قوانين ودساتير وضعية ومن ثم نبد أحكام القرآن والسنة. وبعد ذلك، بدأ المسلمون يخوضون حروباً أهلية قسمتهم إلى الدويلات الحالية، في حين أنهم كانوا قبل ذلك تحت مظلة دولة واحدة كبرى مترامية الأطراف، وكل هذا وقع كما أخبر النبي ﷺ.

8. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة؛ حتى تُعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم" (رواه أحمد).

يتضمن هذا الحديث العديد من النبوءات حول العادات التي لم تكن شائعة في المجتمعات المسلمة السابقة، ويمكن تلخيصها فيما يلي: خروج النساء إلى أماكن العمل، وزيادة الإلمام بالقراءة والكتابة، وزيادة الأسر المفككة أو المشتتة؛ وكل هذه الأمور تحققت في الآونة الأخيرة، بيد أن النبي ﷺ تنبأ بها قبل أكثر من ألف عام.

9. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب

الْبَقْرَ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا" (رواه مسلم).

لم تتحقق النبوة المتعلقة بالنساء الكاسيات العاريات إلا مؤخرًا مع ظهور مواد وصيحات جديدة للملابس، وبعض هذه الملابس الاصطناعية الجديدة رقيقة أو شفافة تصف كليًا بشرة المرأة التي ترتديها، هذا بالإضافة إلى الملابس المطاطة المصنوعة من الألياف اللدنة والليكرا والتي تبدو "ملتصقة" بجسد المرأة، وتكشف جميع تفاصيله، فتكون كاسية عارية كما وصفها النبي ﷺ. أما وصف "أسنمة البخت المائلة على الرأس"؛ فنلاحظها في تسريحات الشعر المختلفة التي تتبارى فيها بعض النساء في عصرنا الحاضر.

10. عن أبي نضرة قال كنا عند جابر بن عبد الله ﷺ فقال: "يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَلَّا يُجَبِيَ إِلَيْهِمْ قَفِيرٌ وَلَا دِرْهَمٌ، قُلْنَا: مَنْ أَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ، يَمْنَعُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَلَّا يُجَبِيَ إِلَيْهِمْ دِينَارٌ وَلَا مُدْيٌ، قُلْنَا: مَنْ أَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ قَبْلِ الرُّومِ..." (رواه مسلم).

في هذه النبوة المثيرة للاهتمام يخبر الراوي (جابر) التابعين بأحداث مستقبلية علمها من النبي ﷺ؛ فيذكر في هذه النبوة أن أهل العراق ستفرض عليهم عقوبات قاسية إلى الحد الذي يمنعهم من استيراد الغذاء لإطعام أنفسهم، ولن يكونوا قادرين كذلك على جلب الأموال للبلاد من خلال بيع بضائعهم، مثل: النفط كما حدث بالفعل، كما انخفضت قيمة عملتهم الوطنية بدرجة كبيرة في التبادل التجاري، والعجم هم الذين فرضوا هذه العقوبات بصفة عامة.

حري بقارئ هذا الكتاب أن يمعن النظر في العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على حكومة صدام حسين القائمة آنذاك، والتي وصفها مسؤولو الأمم المتحدة بأنها "خانقة" بسبب قسوتها على الشعب العراقي. وشاركت غالبية الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في هذه العقوبات من أوروبا وآسيا والشرق الأوسط، بيد أن بعض الدول العربية المجاورة، مثل: الأردن، سمحت لمواطنيها بدخول العراق بهدف مساعدة العراقيين الفقراء حتى لو أدى ذلك لانتهاك العقوبات المنصوص عليها.

أما فيما يتعلق بالعقوبات المفروضة على سوريا، والتي يرد وصفها في الحديث؛ فقد صدرت أيضًا في السنوات القليلة الماضية، ولكنها اعتمدت بصورة أساسية على الولايات المتحدة، بالتعاون مع عدد من الدول الأوروبية والدول التابعة لها، دون مشاركة كبيرة من العديد من البلدان الأخرى على النحو الذي حدث مع العراق. وتشير كلمة "الروم" الواردة في هذا الحديث إلى ما يعرف الآن بالدول الأوروبية وغيرها من الدول التي تأسست خلال التوسع الأوروبي، مثل: الولايات المتحدة، وهؤلاء هم "بنو الأصفر"؛ وهذا المصطلح يشير إلى الدول الأوروبية.

والجدير بالملاحظة أن تلك النبوءات أخبر بها النبي ﷺ في وقت لم يكن أحد ليتصور أن دولة في شكل مدينة صغيرة، وقعت تحت سندان الحصار الدائم الذي فرضه العرب المشركون ستصل إلى ذروة التمكن والقوة، ولن تكفي بالنصر على القبائل العربية الوثنية المجاورة لها، وإنما ستنتصر أيضًا على القوتين العظيمين في ذلك الوقت؛ وهما إمبراطوريتا الروم البيزنطية والفرس. ولم تُصغ هذه النبوءات بالعبارات والكلمات الغامضة التي تخضع للتفسيرات المتعارضة، والتي غالبًا ما ترد في الكتب الأخرى التي تصف الوحوش وغيرها من العناصر الخيالية التي تُفسر كيفما يشاء أصحابها، ولم تُصغ أيضًا بالعبارات الضبابية والمستعصية على الفهم، مثل: العبارات الواردة في نبوءات نوستراداموس؛ فالنبوءات التي أخبرنا بها النبي

ﷺ لغتها واضحة مفهومة، وتتضمن تأكيدات مباشرة، بل تُحدّد الأسماء والأزمان.

وهذه الأمثلة التي ذكرناها ليست سوى جزء من نبوءات النبي ﷺ العديدة، التي تحقق بعضها كفلق الصبح، ولم يتحقق بعضها الآخر إلا في العصر الحديث، وكلها أدلة وبراهين تثبت نبوته، وأنه مرسل من عند الله ﷻ.

## أهمية النبي محمد ﷺ في عصرنا الحاضر

في المجتمع العلماني المعاصر، نجد العديد من التطورات التي تشير إلى التقدم الحضاري؛ مثل: السيارات الأكثر كفاءة، والطائرات السريعة، والمباني الشاهقة، والهندسة الوراثية التي دخلت في كل شيء بدءًا من الغذاء، ووصولًا إلى الأطفال... وهلم جرا. وهنا يحق للمرء أن يتساءل: هل كان في استطاعة رجل يعيش في الصحراء منذ أربعة عشر قرنًا إقامة مجتمع متقدم تقنيًا وماديًا؟، فرغم التكنولوجيا المتقدمة، والشوارع المضاءة بالنيون في العالم المعاصر، يتراجع هذا العالم، وتنهار منظومته الأخلاقية، وتنعدم فيه المساواة المجتمعية والحماية البيئية، ويتلاشى فيه التعاطف العام والاحترام المتبادل.

لقد تفشى في عالمنا اليوم الفساد والرذيلة على نحو متزايد، وأصبح القوي يأكل الضعيف، وكان من المفترض أن يقضي التقدم الحضاري على جرائم العنصرية والقتل والسرقة والاعتصاب، وكل الشرور والمآسي الاجتماعية والبشرية الأخرى، لكن التجربة العلمانية فشلت في القضاء على الكثير من تلك المساوئ الاجتماعية؛ وهذا لا يعني أن العديد من التطورات الحضارية الحديثة غير مجدية، بل هي وسائل تفيد جميع المجتمعات، وقد تجعل عالمنا مكانًا أفضل للعيش فيه، لكن العنصر المهم منعدم ومفقود دائمًا؛ ألا وهو الجانب الروحي. فالعالم اليوم بحاجة ماسة إلى التحلي بصفات الرحمة والمحبة والسلام؛ وكلها مشتقة من صفات الله ﷻ وأسمائه.

كان النبي ﷺ، ولا يزال، مثالًا حيًا لتجسيد هذه القيم الفاضلة وغيرها من القيم الأخرى، ففي بداية بعثته، كان العالم من حوله يعاني الظلم، والطغيان، والفقر، والحروب التي كانت تنشب لأنفخ الأسباب، ووأد الأطفال، والعنصرية، ولكن في غضون ثلاثة وعشرين عامًا، أحدث النبي ﷺ ثورة غيرت مسار تاريخ العالم، ونشرت رسالة السلام والعدل والرحمة في شتى أرجاء الأرض.

ولا تزال رسالة الله ﷻ، كما بلغها النبي ﷺ وجسدها في أفعاله، في عصرنا الحاضر نبراسًا وهُدًى لملايين البشر؛ لا من أجل النهوض بحياتهم فحسب، وإنما للارتقاء كذلك بحياة الشعوب الأخرى المحيطة بهم. فهذه الرسالة تحث المرء على أن يتذكر أن هذه الدنيا مجرد دار امتحان واختبار، وليست الغاية القصوى التي نسعى إليها ونفني أعمارنا من أجلها، كما تُعلمه أنه سيأتي يوم يتحقق فيه العدل الحقيقي المطلق؛ يوم سيُجازى الناس فيه بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ثمة فرق واضح في حياة الذين يسرون على خطى العظماء من المؤمنين والمؤمنات الذين سبقوهم بالإيمان والإسلام، وبين الذين لا يرون أي مغزى أو هدف للحياة. فحينما تنتهي من قراءة هذا الكتاب، وترى أثر تعاليم النبي ﷺ في مجتمعات وأمم بأكملها، بالإضافة إلى تعاليمه التي تستهدف الأفراد، ستدرك حتمًا مدى الأهمية الحقيقية لهذا النبي العظيم في عالمنا اليوم. ولا ريب أن المسلمين يعرفون قدر النبي ﷺ، وأنه رحمة مهداة للجنس البشري، وطالما أننا ننتمي إلى هذا الجنس، ستظل تعاليمه صالحة لكل زمان ومكان.

## المسيح عيسى ابن مريم المبارك في النصوص القرآنية

يندهش كثير من الناس، وخصوصاً النصارى، حينما يعلمون أن المسلمين يؤمنون بعيسى ﷺ، فالقرآن الكريم يقول عنه ﷺ: إنه كلمة الله، والمسيح، ويوقنون أن الله ﷻ أرسله إلى بني إسرائيل، لكي يبلغهم ما جاء به من عنده حتى رفعه ﷻ إلى السماء قبل أن تتمكن طائفة من اليهود من قتله. ورغم هذا القاسم المشترك بين المسلمين والنصارى في مسألة الإيمان بعيسى ﷺ، يراه المسلمون نبياً كريماً، ورسولاً عظيم الشأن والمقام، وليس إلهًا أو ابناً للإله كما يدعي النصارى.

### لماذا لا يؤمن المسلمون بألوهية عيسى ﷺ؟

كما ذكرنا سابقاً، تحدث القرآن في مواضع مفصلة عديدة عن وحدانية الله ﷻ المطلقة، أما القول بألوهية عيسى ﷺ؛ فإنه يخالف هذه القاعدة ويخرقها؛ لأن هذا الادعاء يعني أن الله ﷻ اتخذ له شريكاً في ملكوته وحكمه، وقد وردت هذه الفكرة في القرآن الكريم، ففندّها وجعلها تتعارض مع عظمة الله ﷻ وجلاله وقدرته.

يحاول المسلمون أحياناً أن يبينوا للنصارى أن عيسى ﷺ ليس إلهًا مستشهدين بآيات بعينها من الكتاب المقدس، وسنتبع هذا المنهج، ولكن في حدود ضيقة في هذا الكتاب؛ لأنه ليس المنهج القرآني المتبع لهذه القضية، ومن الآيات التي وردت في الكتاب المقدس، ويُستدل بها في هذا المقام ما يلي:

يقول الكتاب المقدس إن الله ﷻ ليس إنساناً:

"لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبُ، وَلَا ابْنُ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمُ..." (سفر العدد 23: 19).

لا يضاهي علم عيسى ﷺ علم الله ﷻ:

"وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ..." (إنجيل مرقس 13: 32).

من صفات الله ﷻ العليم، أما عيسى ﷺ، فلم يُوصف بذلك:

"وَفِي الْعَدَمِ لَمَّا حَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنِيَا جَاعَ، فَنَظَرَ شَجْرَةَ تَيْنٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ، وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا إِلَّا وَرَقًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتُ التَّيْنِ" (إنجيل مرقس 11: 12-13).

الله لم يره أحد قط، لكنّ كثيرا من الناس رأوا عيسى ﷺ:

"اللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ..." (إنجيل يوحنا 1: 18).

قال عيسى ﷺ نفسه إنّ له إلهًا؛ وهو إله جميع الخلائق:

"... إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهَكُمْ" (إنجيل يوحنا 20: 17).

ثمة العديد من الأمثلة الأخرى في كل من العهدين القديم والجديد تبين الاختلاف بين الله ﷻ وعيسى ﷺ، ولكن ليس الغرض من هذا الكتاب تفسير الكتاب المقدس أو الطعن فيه، فماذا يقول الله ﷻ في القرآن الكريم بشأن دحض الادعاء بألوهية عيسى ﷺ؟



دعا عيسى ﷺ قومه إلى عبادة الله ﷻ ربه وربهم:  
قال الله ﷻ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ..} (سورة المائدة: 72).

لم يأمر عيسى ﷺ قومه قط أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله ﷻ:  
قال الله ﷻ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سورة المائدة: 116-118).

كان عيسى ﷺ يأكل الطعام بينما الله ﷻ لا يأكل:  
يقول الله ﷻ: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (سورة المائدة: 75).

الله هو الغني، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام؛ فالأكل والشرب والنوم كلها من الصفات البشرية، صفات الحاجة والنقص، والله تعالى منزّه عن هذه النقائص. وكل ما في الكون يركن إليه ويلجأ إليه، وهو الذي يرزق جميع الخلائق، فهو المستحق للعبادة دون غيره، ولو كان الله ﷻ مماثلاً لنا في صفاته، في الأكل والشرب، أو الأهواء والشهوات، أو كان ينسى ويخطئ، أو يعتمد على غيره، فكيف يكون إلهًا، وما الذي يدفعنا إلى عبادته؟ تعالى الله عن هذه الصفات علوًا كبيرًا.

الله ﷻ لم يلد ولم يولد:  
قال الله ﷻ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (سورة الإخلاص: 1-4).

نحن خلق الله ﷻ، ولم يكن أحد من خلقه مماثلاً ولا مشابهًا له، وهو لم يولد ولم يكن له أبناء لمباشرة أعماله أو لمشاركته في ملكه. واستكمالاً للموضوع المطروح من قبل، هل من المنطقي أن يعبد البشر مخلوقًا كان ساكنًا داخل الرحم، ولم يكن يتغذى إلا على دم أمه، حتى حانت ولادته وسط الدم والفضلات الجسدية، وبعدها ظل لسنوات يبكي، ويصرخ من أجل الطعام والحاجة إلى من ينظفه من الفضلات والأوساخ؟ ففي المنظور الإسلامي، لا يستحق هذا المخلوق العبادة، وإنما الله ﷻ الذي خلق جميع المخلوقات، هو الغني والمنزّه عن كل النقائص، وهو الوحيد المستحق للعبادة.

## لماذا لا يؤمن المسلمون بأن عيسى ﷺ ابن الله؟

على غرار الاستدلال المنطقي المقدم أعلاه، يؤمن المسلمون بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا مثل ولا نظير، وعلى النحو الوارد أعلاه، سأحاول أن أكرس هذا الجزء لمناقشة الأساس المنطقي المنصوص عليه في القرآن الكريم، ولكن اسمحو لي أن أعرض بعض الآيات بالكتاب المقدس ليُستشهد بها لنفي بنوة عيسى لله.

### بعض ما ورد عن عبارة "أبناء الله" في الكتاب المقدس

"...إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرِ" (سفر الخروج 4: 22).

"... آدَمَ، ابْنِ اللَّهِ" (إنجيل لوقا 3: 38).

"طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ، لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ يُدْعَوْنَ" (إنجيل متى 5: 9).

كثيراً ما تربك قراءة هذه الآيات بعض القراء وتلبس الأمر عليهم، فكيف يُدعى هذا العدد الكبير من الناس "أبناء" الله؟ تتمحور الإجابة عن هذا السؤال حول فهم معنى هذا اللفظ في هذا السياق بعينه؛ فعبارة "ابن الله" كما جاءت في الكتاب المقدس تعني العبد المقرب من الله ﷻ أو أحد عباده.

فهل كان عيسى ﷺ مختلفاً عن غيره من هؤلاء "الأبناء"؟ يزعم بعض النصارى أنه مختلف لأنه "مولود" لله. وتشير كلمة "مولود" إلى أنه أتى من إنسان آخر أو نتج منه؛ أي جاء عن طريق النسل أو الإنجاب. وسنناقش المعاني الضمنية ونتائج تلك الكلمة بعد قليل، ولكن أولاً، لننظر في مدى صحة ادعاء بنوة عيسى لله ﷻ من خلال الدراسة الفاحصة لإنجيل (يوحنا 3: 16):  
"لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية".

بعد قراءة هذه الآية، يصبح هذا الفرض صحيحاً؛ لأنها تقول "ابنه الوحيد، ومع ذلك، يجب ألا يغيب عن الأذهان أن النسخة الإنجليزية من الكتاب المقدس الذي يقرأه كثير من الناس اليوم هي في الواقع ترجمة لمخطوطات مختلفة من الكتاب المقدس باللغتين اليونانية والعبرية، ومن ثم يجب أن يكون السؤال الرئيس على النحو التالي: هل تذكر هذه المخطوطات أن عيسى ﷺ مولود؟ والإجابة "لا"؛ حيث لا تذكر المخطوطات هذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد.

### الحقيقة الكامنة وراء عبارة "Begotten Son" (الابن المولود)

علّق الشّمس بوب وويليامز (Bob Williams) والبروفيسور بول داف (Paul Duff)، وكلاهما من المعلمين النصارى وعلماء الكتاب المقدس البارزين، على هذه المسألة في أطروحة علمية مطوّلة أوصي المهتمين بمراجعتها، وسأقتبس النتائج التي توصلنا إليها في هذه النقطة حتى يستنتج القارئ من بحثهما أن كلمة "begotten" (مولود) إضافة واضحة في نص الكتاب المقدس بوضعه الحالي اليوم، ويخص الاقتباس التالي أصل كلمة "begotten" وسبب ورودها في العديد من النسخ الإنجليزية للكتاب المقدس (أضفت الخطوط للتأكيد):

أولاً، ظهرت تلك الكلمة بسبب أخطاء الترجمة، وحدّد معظم المترجمين المعاصرين اللغة الأصلية على نحو صحيح والغرض منها، ومن ثمّ وجدوا شيئاً مشابهاً لعبارة "one and only Son" والتي تعني "الابن

الوحيد" (تحتفظ النسخة القياسية الأمريكية للكتاب المقدس بعبارة "only begotten"، كما يُدرج بعض ناشري النسخة القياسية الأمريكية للكتاب المقدس حاشية سفلية تقول إن الترجمة الحرفية هي "unique, only one of His kind"، والتي تعني "الوحيد" أيضاً)، لكن من المرجح أن بعض المترجمين القدامى ظنوا خطأً أن جذر الجزء الثاني من كلمة "monogenes" هو كلمة "gennaو"، وليس كلمة "genos"، ومن الجدير بالذكر أن كلمة "genos" تعني "الوحيد"، لكن كلمة "gennaو" تعني "ينجب"، والتي تُشتق منها كلمة "begotten" والتي تعني "مولود".

ومع ذلك، إذا كانت كلمة "gennaو" هي الجذر الحقيقي، فكان يجب إضافة حرف "n" لتصبح "monogenes"، وكان هوغو ماكورد (Hugo McCord) يؤيد ترجمة عبارة "only begotten" التي تعني "الوحيد"، لكنه كتب بعد ذلك قائلاً: "ارتكبت أيضاً خطأً نفسه، فلم أدرك أنه كان عليّ أن أضيف إلى النص اليوناني لنقل كلمة "الوحيد" في العهد الجديد. إضافة حرف واحد إلى كلمة واحدة أدت إلى إنزال عيسى ﷺ من مرتبة كونه ابن الله الوحيد إلى مجرد كونه أحد أبنائه". (مجلة Gospel Advocate، العدد الثالث، والثلاثون، والسادس والثمانون). فبدلاً من أن يكون عيسى مولوداً، ينزله كونه وحيداً إلى مرتبة مخلوق شبيهه ببقية الخلاق الأخرى!

ثانياً: ظهر المصطلح لأسباب عقائدية ومذهبية، ففي إحدى فترات القرن الثالث، روج أوريغانوس لعقيدة الجيل الأبدي (المسيح أتى من الأب إلى الأبد، ولست متأكداً من جميع ما اشتمل عليه هذه العبارة، لكنها ذاعت، واشتهرت مع العقيدة). ولاقت هذه الفكرة في القرن الرابع دعماً من جيروم وغيره لمحاربة الهرطقة الأريوسية التي كانت آخذة في الانتشار (علم أريوس أتباعه أن عيسى ﷺ مولوداً لله أو أن الله خلقه). ويقول الشماس بوب ويليامز والبروفيسور بول داف في موضع لاحق في الأطروحة نفسها ما يأتي:

"لاحظ أن هؤلاء المترجمين لم يترجموا كلمة "monogenes" على نحو متسق فيما بينهم، فانظر - مثلاً - إلى إنجيل لوقا 7: 12، 8: 42، 9: 38، حيث أغفل المترجمون [نسخة الملك جيمس] في كل هذه الآيات كلمة "begotten" ووضعوا كلمة "only" (الوحيد) فقط، ففي كل هذه المواضع، كانوا أمناء في ترجمة اللغة الأصلية، ولكن لماذا توفرت الأمانة في هذه المواضع ولم تتوفر في الآيات الأخرى أيضاً؟ لأن هذه الآيات لا تشير إلى المسيح، ويُرجح أن مترجمي نسخة الملك جيمس أدخلوا فكرهم العقائدي في الترجمة"<sup>2</sup>.

#### عقائد وثنية أم الحق من الله الواحد؟

والآن علينا أن نتناول جميع جوانب ادعاء اتخاذ الله للولد. في المنظور الإسلامي، يعتبر هذا الادعاء إساءة كبرى في حق الله ﷻ، وتطاولاً على ذاته العلية؛ لأن ذلك يقتضي أنه ﷻ اتخذ لنفسه زوجة من الأرض، ثم أنجب منها ولداً، وتذكرنا هذه الخرافة بالقصص الوثنية للأساطير اليونانية التي تحكي أن زيوس فُتن بامرأة تعيش على الأرض، وقرر أن ينجب ولداً منها، كما كانت الحال مع البطل اليوناني هرقل، فنسب هذا السلوك إلى رب العالمين مشابه تماماً لعقائد الوثنيين، ويُعد شكلاً من الكفر البواح في العقيدة الإسلامية. وانطلاقاً من هذا الفهم، نعرض هذا الحديث الذي رواه النبي ﷺ عن ربه ﷻ:

<sup>1</sup> علم أريوس أن هناك اختلافاً جوهرياً بين الله الأب والمسيح الابن، ما يجعل الابن تبيغاً أو أقل من الأب.  
<sup>2</sup> ويليامز، بوب (Williams, B) (1995) عيسى: مولود ولكن لم يُنجب (Jesus: Born, but Not Begotten). مُقتبس من: <http://www.biblelessons.com/begotten.html>

"كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ... وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْوًا أَحَدٌ" (رواه البخاري).

فادعاء اتخاذ الله ﷻ للولد إساءة عظيمة في حقه ﷺ؛ لأن هذا القول يعني أنه لا بد أن يتخذ صاحبة لإنجاب هذا الولد، وثمة سؤال آخر وثيق الصلة يطرح نفسه، وهو: لم يحتاج الله ﷻ ابناً؟

طبقاً للمنظور اللاهوتي المسيحي، اتخاذ الله ولداً كان بغرض خلاص البشرية بالتضحية به، فالجواب حسب هذا المنظور أن الله ﷻ احتاج إلى الابن ليغفر للبشر خطاياهم، ويدخلهم الجنة؛ فدمه يغسل خطاياهم.

أما القرآن الكريم؛ فيأتي بأروع رد على هذه المسألة الحاسمة:  
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا. إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (سورة مريم: 88-96).

أبرزت أحد أسماء الله الحسنى في هذه الآيات القرآنية، وهو الرحمن؛ لأن هناك سبباً وغاية وراء تكرار هذا الاسم في هذا الموضع، لماذا؟ لأنه بهذه الصفة يرد الله ﷻ على الافتراءات السابقة؛ فكأنه ﷻ يقول: إنه لا يحتاج إلى ولد ليغفر لخلقه خطاياهم، لماذا؟ لأنه هو الرحمن الرحيم الغفور! فهو القادر الذي يجيب عباده بمجرد أن يستغفروه!

يجب أن يطرح القراء النصارى على أنفسهم هذا السؤال: هل هم قادرون على فعل شيء عجز الله عن الإتيان بمثله؟، بالطبع لن يجرؤ نصراني أو مسلم على التفوه بهذا الزعم -فنحن نسامح الناس كل يوم دون قيود، وأحياناً نتحدث زوجاتنا بكلمات لا يقصدنها، أو يسيء أولادنا التصرف، أو يخلف أصدقائنا بوعودهم، ولكننا في جميع هذه الحالات، وغيرها، نصفح عنهم، ولا نطلب التضحية بالدماء لكي نسامح الآخرين، بل كل ما نريده هو أن يعبر الناس بصدق عن أسفهم على أفعالهم، وأن يندموا على أي ضرر لحق الآخرين بسببهم- وهذا جوهر التوبة؛ فتأمل ذلك، وتذكر مدى كمال مغفرة الله ﷻ وسعة رحمته التي تفوق رحمتنا كبشر مجتمعين؛ فهل تدري حدود مغفرة الله ﷻ ورحمته التي وسعت كل شيء؟!!

## ما وجهة نظر المسلمين في مسألة النجاة "الخلاص"؟

كما أشرنا في هذا الكتاب من قبل، الإسلام هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء السابقين، وهو الخضوع والاستسلام لله الواحد القهار، فمن المنطقي أن تكون مسألة "الخلاص" متسقة في جميع الكتب التي أنزلها الله ﷻ، وطريق الخلاص في جميع الكتب السابقة واحد، وهو التوبة، وهذا ما نفهمه من النصوص الدينية التالية:

"لَأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ: "بِالرُّجُوعِ وَالسُّكُونِ تَخْلُصُونَ... " (سفر إشعياء 30: 15).  
"لَمْ آتِ لِأَدْعُو أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ" (إنجيل لوقا 5: 32).  
"مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَكْرُرُ وَيَقُولُ: "تُوبُوا لِأَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ" (إنجيل متى 4: 17).  
"فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِثَمَحَى خَطَايَاكُمْ..." (سفر أعمال الرسل 3: 19).

### الخلاص في القرآن الكريم والحديث الشريف:

قال الله ﷻ:

{... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (سورة النور: 31).  
{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (سورة الزمر: 53).

نصح النبي ﷺ الأمة بالتوبة والأوبة إلى الله ﷻ، فقال ﷺ:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ" (رواه مسلم).

ونظرًا للتشديد على أهمية التوبة وإصلاح الذات في الإسلام، يظن البعض أن النجاة تتمثل فقط في عمل الأعمال الصالحة، والتي تعد بلا شك علامة على إيمان المرء، وتقربه إلى الله ﷻ، وتجعله ينال رحمته، ولكن النجاة هي أن يتغمدنا الله ﷻ برحمته وفضله، كما دل عليه قول النبي ﷺ في الحديث التالي:  
"قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَأَبْشِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ" (رواه البخاري).

## إيمان أعمى؟

الإيمان الأعمى من أكثر العقبات التي تحول دون فهم المبادئ سالفة الذكر، حيث يقول الناس: "ما عليك سوى أن تؤمن"، أو "إن الإيمان سر إلهي". بهذه الأقوال، يغلِق بعض الناس عقولهم ويظلون حبيسي أفكارهم، بعد أن أقنعوا أنفسهم أن الدين ليس بالضرورة أن يكون منطقيًا حتى يكون صحيحًا؛ فهل هناك أي دليل محتمل ضد هذه الفكرة؟ نعم، هناك عدد من الأدلة النقلية والعقلية التي يُغفلها الناس عند تراجعهم وتسليمهم بمفهوم الإيمان الأعمى، فعلى سبيل المثال، جاء في العهد الجديد ما يلي:

"لأنَّ اللهَ لَيْسَ إِلَهَ تَشْوِيْشٍ بَلْ إِلَهَ سَلَامٍ..." (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 14: 33).

نلاحظ النظام والدقة اللذين شملا كل مكان حولنا؛ فالناس يدرسون كل يوم العلوم الطبيعية، مثل: علوم الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا؛ وهي العلوم التي تركز كليًا على النظام والقوانين الثابتة التي بنى الخالق ﷻ الكون عليها، فهل من المنطقي أن نجد السبب والمنطق والنظام في كل شيء إلا الدين؟ قطعًا لا! وأكرّر مرة أخرى، لا داعم لهذه الفكرة على الإطلاق.

تأمل أيضًا الآيات التالية في العهد الجديد:

"إِذْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، لِأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ، مُدْرَكَةٌ بِالْمَصْنُوعَاتِ، فَدَرْتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَالْأَهْوَتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلَا عُدْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللَّهَ لَمْ يَمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَالِهٍ، بَلْ حَمَقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قُلُوبُهُمُ الْعَبِيُّ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلَاءَ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَفْنَى بِشَيْءِ صُورَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطَّيْبُورِ، وَالذَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ؛ لِذَلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللَّهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لِإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمْ. الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا حَقَّ اللَّهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الْأَبَدِ. آمِينَ" (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 1: 19-25).

ينص الكتاب المقدس أيضًا على أن طبيعة الله ﷻ جلية وظاهرة، ومع ذلك ينصرف الناس إلى عبادة المخلوقات والصور من دون الخالق الواحد؛ لماذا؟ لأن الإيمان الأعمى ضلّهم، وجعلهم يحدون عن الإيمان الحق.

ومن ناحية أخرى، تأمر الآيات القرآنية القارئ بالتفكير في كمال الله ﷻ، وتناجي القلوب بالتأمل في أسلوب كلامه ﷻ ووضوحه المهيّب عندما يسأل ﷻ البشر سؤالًا بسيطًا متمثلًا في قوله ﷻ:

{أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (سورة النساء: 82).

بيّن الله ﷻ كل شيء للناس حتى لا يقعوا في الحيرة والخلط، وأنعم على البشر بالعقول التي يُعملونها في التفكير والتدبر، وجعل آياته واضحة وظاهرة لمن يرغب بصدق في فهمها، فتأمل هذه الآيات القرآنية الواضحة المنطقية، قال الله ﷻ:

{أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} (سورة الأعراف: 191).

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (سورة الأنبياء: 22).

## عيسى ﷺ من منظور الإسلام

ثمة شبهة أخرى باعثة على الأسى ومنتشرة، لا سيّما في أوساط النصارى، وهي اعتقادهم أنّ الإسلام يحث بطريقة أو بأخرى على "الإعراض عن عيسى ﷺ" أو على "إنكاره وعدم الإيمان به"، ما جعلهم في النهاية يعزفون عن معرفة المزيد عن تعاليم الإسلام. وهؤلاء المدّعون وغيرهم لم يدركوا أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي منح عيسى ﷺ ما يستحقه من تقديرٍ ومدحٍ وثناءٍ دون إفراط أو تفريط.

يؤمن المسلمون بأن عيسى ﷺ كلمة الله ﷻ، الذي خلقه بكلمة "كُنْ"؛ لأن الله إذا أراد أن يخلق شيئاً، فإنما يقول له: "كُنْ"، فيكون هذا الشيء بمشيئته وقدرته تعالى. وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الكتاب المقدس في بداية الإصحاح الأول من سفر التكوين، حيث جاء فيه: "وَقَالَ اللَّهُ: "لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ". وعندما خلق الله عيسى ﷺ، ألقى كلمته "كُنْ" إلى مريم فحملت به، فكان ما شاء الله ﷻ أن يكون. ومن معتقدات المسلمين أن مريم العذراء حملت في عيسى دون أن يمسه أحد من البشر (الحبل بلا دنس أو الحبل البتولي)، ويضفون عليها صفات التقوى والطهارة والعفة والصلاح، بل يزخر القرآن الكريم والأحاديث النبوية بأسمى كلمات المدح والثناء والتبجيل لمريم البتول والمسيح عيسى ﷺ.

يبين القرآن أن أولى معجزات المسيح كانت حين تكلم في المهد صبيّاً؛ حيث تحدث في المرة الأولى بُغية تسكين روع أمه أثناء مخاضها، وتحدث في المرة الثانية للدفاع عنها عندما أنكر عليها قومها أن تأتي بصبي من غير زواج (رموها بالفاحشة افتراءً وبهتاناً). كما يؤمن المسلمون أن عيسى ﷺ هو المسيح، في حين أن العديد من النصارى يظنون خطأً أن كلمة "المسيح" أو "مسيا" تشير إلى ألوهية عيسى ﷺ أو بنوّته لله، لكن كلمة "مسيا" هي اللفظ العبري المعادل للكلمة اليونانية التي تعني المسيح؛ وكلاهما يعنيان "الممسوح أو المُختار". وهناك أشياء كثيرة في الكتاب المقدس يُطلق عليها المسيح (باليونانية)، ما يشير إلى أن هذه الكلمة تعني الشيء الذي اختير لغرض معين أو الشيء الممسوح، ولكنها لا تشير بأية حال من الأحوال إلى الألوهية.

ومن معتقدات المسلمين أن عيسى ﷺ عاش حياة كريمة وتقية، وكان ينشر بين الناس التعاليم الدينية التي جاء بها من عند ربه، وظهرت على يديه المعجزات بإذن الله ﷻ، واتبعه الكثير من الصالحين من اليهود في عصره، وكان من بينهم الحواريون الذين يضيف عليهم المسلمون صفات الورع والفضيلة والاستقامة والنصح لله ورسوله عيسى ﷺ. وقد أثارت رسالة عيسى النقية الاستياء والأحقاد في نفوس جماعة منحرفة من علماء اليهود في ذلك العصر<sup>1</sup>، ودفعتهم إلى التآمر على قتله. أوضح القرآن الكريم والحديث النبوي أن شرار اليهود سعوا لقتل عيسى ﷺ، ولم يفلحوا في مخططهم الشيطاني، وأن الله ﷻ نجّاه ورفعاه إلى السماء حيناً، وتلك الجماعة من اليهود صلبت شاباً سائباً ألقى عليه شبه عيسى ﷺ قبل رفعه إلى السماء، ما جعلهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح.

ومن معتقدات المسلمين أن عيسى ﷺ سيعود في نهاية الزمان لقتل المسيح الدجال، وبعد ذلك سيبقى في

<sup>1</sup> ليس كل اليهود تأمروا على عيسى وقتله، كما هو مذكور في موضع آخر، بل كان هناك العديد من اليهود الذين آمنوا به رسولاً ونبياً من عند الله، واتبعوا تعاليمه، وتابوا إلى الله من التحريفات التي أحدثوها في الشعائر الدينية ونصوص الكتاب المقدس.

الأرض زماناً إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، ليتزوج وينجب أطفالاً قبل وفاته، ويُدفن بجانب النبي ﷺ، بل لا يزال هناك حتى يومنا هذا مكان مدّخر له بجانب قبر النبي ﷺ في المدينة المنورة.

باختصار، سأورد للقارئ آيات قرآنية من سورة مريم تتناول العديد من النقاط الموضحة أعلاه؛ إذ قال الله ﷻ:

{وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أختِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا. فَأُتِيتُ بِالْبِئْسَةِ الْكَلِمَاتِ كَيْفَ تَقُولِينَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَكَلِمَةً مَن كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ. أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سورة مريم: 16 - 38).



## الشريعة الإسلامية: أسلوب حياة متكامل لا يخلو من سوء الفهم

قطع أيدي السارقين، ورجم الزناة المُحصنين، وجدد الزناة غير المُحصنين، وقطع رؤوس القتلة، هل كلها عناوين أخبار الصحف الشعبية الملقاة في ممرات البقالة أم إنها بعض الصور النمطية القديمة لنظام العقوبات على الجرائم؟ في الواقع، هذه بعض الكلمات التي تتبادر إلى الذهن عند ذكر مصطلح الشريعة هذه الأيام. وفي هذا الفصل، سندرس الشريعة ونفهمها، لا في ضوء الأدلة ذات الصلة من القرآن والسنة فحسب، ولكن من منظور إحصاءات الجريمة الحديثة كذلك.

أولاً: الشريعة مصطلح إسلامي يمثل النظام الكامل والشامل للأنشطة العامة والخاصة في بلاد المسلمين. وتستند هذه الشريعة كلياً إلى النصوص والأحكام الواردة في القرآن والسنة بصورة أو بأخرى، وتهدف إلى تنظيم علاقات الشخص وواجباته تجاه الله ﷻ وتجاه إخوانه من البشر وبيئته ونفسه؛ ومن ثم فهي توجه كل مجالات النشاط البشري؛ بما فيها جوانب الحياة الروحية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

يمكن تقسيم الموضوعات التي تتناولها الشريعة إلى ثلاث فئات: العقيدة والأخلاق والفقه؛ فالفقه هو الفرع الذي يتعلق بتنظيم السلوك الظاهر للإنسان، وهذا يشمل الأحكام المتعلقة بسلوك الإنسان في حق خالقه (أحكام الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، ونحو ذلك)، والأحكام ذات الصلة بالمعاملات بين الناس، مثل: أحكام نظام الحدود والمعاملات التجارية، والزواج والطلاق، والأحكام المتعلقة بالفرد والدولة، في حالتها الحرب والسلام، مثل: الالتزامات العسكرية، وأحكام الوصايا والملكية وغيرها.

إن الغاية الأسمى للشريعة هي تحقيق المصلحة العامة للناس أجمعين، المسلمين وغيرهم، ولذا تتكفل الشريعة بالحفاظ على خمسة حقوق عامة في حياة الإنسان (الضرورات أو الكليات الخمس)، وهي: الحق في حفظ النفس، والعقل، والنسل، والدين، والمال. وقد يتساءل المرء: لماذا لا تشمل الشريعة الحق في الحرية؟

### الحرية من منظور الإسلام

يعتبر الإسلام الحرية حقاً أصيلاً لكل إنسان، ويرفع من شأنها، ويقرّها الوسيلة الأساسية لإدراك وجود الله ﷻ الذي لا يحتاج إلى معجزات، فيقول ﷻ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...} (سورة البقرة: 256).

تنص هذه الآية على عدم جواز إجبار أحد على الإيمان إذا لم يكن مقتنعاً من تلقاء نفسه وبمحض فكره الحر. وإذا كان الإكراه محظوراً في عبادة الله، وهي الغاية الأسمى والأهم في حياة الإنسان (كما في الإسلام)، فكيف يُباح في أي مسألة أخرى ثانوية؟ وما يؤكد على اهتمام الإسلام بحرية الإرادة والاختيار كلمات الصحابي الجليل والخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، الذي قال لأحد ولاته: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!".

### تعريف الحرية:

الحرية هي اختيار الشخص لفعل شيء معين أو عدم فعله، بناءً على إرادته الحرة، ودون تدخل من أي طرف آخر، وهذا يعني أن كل إنسان يتولى شؤونه الخاصة بنفسه، ويكون هو المسؤول عنها، بعيداً عن تحكيمات الآخرين على مستوى الفرد أو الدولة، ولكن هل تعني "الحرية" أن نعيش دون أي قواعد أو قوانين تحكمننا؟

لا يعني اعتراف الإسلام بالحرية الفردية ترك الإنسان دون قواعد أو قيود تنظم حياته؛ لأن هذا النوع من "الحرية" يُؤد الفوضى التي تقود إلى الاعتداء على حقوق الآخرين وأمنهم؛ فينبغي ألا تكون حرية الفرد على حساب الآخرين؛ ولذا وضع الإسلام مبادئ توجيهية تضمن الحرية المتوازنة للجميع، نسردها فيما يأتي:

1. ألا تؤدي حرية الأفراد أو الجماعات إلى المساس بأركان النظام العام للمجتمع أو تقويض أسسه.
2. ألا تؤدي حرية الفرد إلى ضياع الحقوق المجتمعية العامة (على سبيل المثال: يجب ألا تضر حرية التعبير للفرد بالأمن العام لجماعة أخرى).
3. ألا تكون حرية الفرد على حساب الآخرين.

ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن من الأهداف الأساسية لرسالة الإسلام تحرير الناس من عبادة أهوائهم وعبادة المخلوقات إلى سعة عبادة الخالق.

## السمات المميّزة للشريعة الإسلامية

سيجد الدارس للشريعة الإسلامية أنها تتميز ببعض السمات الفريدة التي تخلق منها الأنظمة القانونية الأخرى. وهذه السمات هي المقومات الأساسية لثباتها ونموها وملاءمتها على مدار أكثر من أربعة عشر قرناً؛ فهي آخر الشرائع السماوية المنزلة لجميع البشر، نظراً لارتباطها بآخر الأديان السماوية -الإسلام-. فمن الضروري أن تتمتع الشريعة بالاستمرارية والثبات كسنتين لازمتين لمعالجة الاحتياجات البشرية دائمة التغير في كل زمان ومكان.

إن الشريعة الإسلامية أوسع وأشمل نظام تشريعي على وجه الأرض؛ فهي أكثر تكاملاً من أي نظام قانوني وضعي قائم أو سابق. فقد طبقت من أقاصي العالم الإسلامي إلى أقاصيه على مدار الأربعة عشر قرناً الماضية. وفي العصر الحديث، عطلت الشريعة جراء الاستعمار الغربي للأراضي الإسلامية، ولم تُطبق إلا في أماكن قليلة.

وكان للشريعة الإسلامية عظيم الأثر في الدول والثقافات الأخرى على مدار تاريخها<sup>1</sup>. واستلهمت منها العديد من حضارات العالم نظمها التشريعية والقانونية، من خلال الاتصال والاحتكاك ببلاد الأندلس وصقلية وغرب آسيا والبلقان<sup>2</sup>.

وفيما يلي بعض السمات التي تتميز بها الشريعة الإسلامية:

1. نُبل الغاية والمقصد: لكل نظام تشريعي غاية يسعى إلى تحقيقها، وتتفاوت هذه الغاية من ثقافة إلى أخرى، وتختلف باختلاف الأهداف والغايات المتغيرة للمشرّعين، وتخضع للتعديل والتغيير باستمرار حيث تطبق الدول القوانين لتوجيه مواطنيها إلى أهداف معينة.

أما الشريعة الإسلامية؛ فلا يشكّلها المجتمع، بل هي التي تشكّل المجتمع، وليس الإنسان هو الذي استحدثها، بل يتعين عليه تكيف نفسه مع أحكامها. وجملة القول: إن الشريعة الإسلامية ترمي إلى تحقيق مقصد عظيم يتمثل في تحقيق مصالح الفرد والمجتمع على حد سواء، ودرء كل ما يعود عليهما بالضرر والمفسدة.

2. ربانية الشريعة الإسلامية: جميع أحكام الشريعة الإسلامية وحي من عند الله ﷻ؛ فهو خالق البشر الذي يشرّع لهم، وهو الأعم بما سيعود بالنفع على خلقه في الدنيا والآخرة، وهو العليم بالتركيبية النفسية والجسدية للإنسان، وما يصلحها وما يضرها، وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (سورة الملك: 14).

أما القانون الوضعي؛ فهو نتاج العقل البشري الذي يتسم برؤيته المحدودة واستمرارية التعلم، ويخضع إلى التعديل والتغيير، ولهذا لا يخلو من العوار والخطأ، كما أن التشريعات التي تصدر عن الجهد البشري لا تلائم

<sup>1</sup> واتانابي، ليزا (Watanabe L) (2012) المساهمة المحتملة لمؤسسات التشريع الإسلامي في ظهور سيادة القانون والدولة الحديثة في أوروبا (The Possible Contribution of Islamic Legal Institutions to the Emergence of a Rule of Law and the Modern State in Europe الروضان، نايف (Rodhan N.R.F) (محزّر)، دور العالم العربي والإسلامي في نهوض الغرب (The Role of the Arab-Islamic World in the Rise of the West)، بالجريف ماكميلان (Palgrave Macmillan)، لندن.

<sup>2</sup> بوازار، مارسيل (Boisard, M) (1980). حول التأثير المحتمل للإسلام في القانون العمومي والدولي الغربي (On the Probable Influence of Islam on Western Public and International Law). المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط. المجلد 11، العدد 4، الصفحات 429-450. مُقتبس من: <https://www.jstor.org/stable/163176>.

## الطبيعة البشرية دائماً.

3. تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية طاعة لله ﷻ وامتثال لأمره، وشكل من أشكال عبادته، ومخالفتها معصية لله تستوجب عقابه. فهناك حدود مقررة لبعض الجرائم تُطبق في هذه الدنيا، في حين تُدخر عقوبات أخرى في الآخرة لبعض المعاصي. فالمسلم يراقب نفسه في أفعاله، ليس خوفاً من عقاب الله ﷻ فحسب (مقارنة بالخوف من الدولة)، ولكن أيضاً طمعاً ورجاءً في رحمته والفوز بالثواب الأبدي الذي أعده له في الآخرة، وهذا حافز قوي لكثير من الناس لطاعة الله.

أما القوانين الوضعية؛ فيرتبط الحافز الأساسي للامتثال لها بالخوف من الملاحقة الجنائية والمسؤولية المدنية، وليس أملاً في نيل رضا الله ﷻ والفوز بثوابه. ولا يؤدي عدم الانقياد لهذه القوانين إلى الشعور بالذنب وتأنيب الضمير بالقدر نفسه الذي يشعر به المرء عند مخالفته أحكام الشريعة.

4. تتميز الشريعة الإسلامية بأنها متكاملة من جميع النواحي، فهي لا تتطلب تعديلات، ولا تخضع للزيادة والنقصان، وتنظم أربعة جوانب للتفاعل البشري، وهي: العلاقة بين الفرد وخالقه ﷻ، والعلاقة بين الفرد ونفسه، والعلاقة بين الفرد وأفراد المجتمع الآخرين، والعلاقة بين الفرد والدولة.

وإذا ما قارنا الشريعة الإسلامية في هذا الصدد بأي من الأنظمة القانونية الوضعية، سنكتشف أن الأنظمة القانونية الوضعية تتعامل بصورة أساسية مع العلاقة بين الشخص وغيره وبين الشخص والحكومة. أما فيما يتعلق بعلاقة الفرد مع نفسه، والتي هي ألد أعدائه؛ فلا تقدم تلك الأنظمة أي توجيه بشأنها، هذا فضلاً عن أنها لا تنطرق إلى علاقة الفرد بخالقه الذي أوجده من عدم، وسخر بقية الخلائق لتلبية احتياجاته وخدمته، وقد ابتدع القانون العلماني الوضعي مفهوم "فصل الدين عن الدولة" في العصر الحديث.

وترفض الشريعة مفهوم "فصل الدين عن الدولة"، لأن الله ﷻ هو المشرع. وعلى الرغم من أن الأخلاق جزء لا يتجزأ من الأنظمة التشريعية الإسلامية والأنظمة القانونية العلمانية على حد سواء، فإن الشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً دقيقاً في هذه الناحية؛ لأنها تهتم أيضاً بمستقبل الإنسان، ليس في هذه الحياة الدنيا فحسب، ولكن في الحياة الآخرة السرمدية، كذلك من خلال الأمر بأداء العبادات الواجبة على كل مؤمن في هذا الدين.

5. ثبات المبادئ ومرونة التطبيق: بُنيت الشريعة الإسلامية على مجموعة من المبادئ الثابتة والمستمدة من القرآن والسنة، وهما المصدران اللذان تم تدوينهما وحفظهما بكل دقة وحيطة وأمانة منقطعة النظير. وتحتوي العديد من تلك النصوص الدينية على قواعد تشريعية عامة، دون الخوض في جميع التفاصيل الدقيقة المرتبطة بالتطبيق، وهذا يفتح باب الاجتهاد لمراعاة الظروف المتغيرة.

فعلى سبيل المثال، فيما يتعلق بصياغة النظام السياسي الإسلامي، تعطي النصوص الدينية الخطوط العريضة لمبادئ العدالة بين المواطنين، والامتثال للسلطة السياسية، والشورى بين المسلمين، والتعاون على البر والتقوى. وفي الوقت ذاته، تترك النصوص تطبيق الخطوط العريضة هذه للظروف العملية التي تتطلب قدرًا من المرونة، وإذا حُقت الأهداف الإجمالية للحكم الإسلامي، فإن طريقة تحقيقها ليست موضع خلاف، ما دامت لم تُخالف الأحكام الشرعية وأصول الشريعة.

لكن تشتمل الأنظمة القانونية الحديثة على عدد محدود من المبادئ الثابتة، والتي تكون غالباً في شكل دساتير يُجرى تغييرها وتعديلها بصورة متعاقبة، ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى تقويض أهدافها وأسسها الوطنية بمرور الوقت، فضلاً عن خضوع أسس ومبادئ غالبية هذه الأنظمة القانونية للتغيير والاستبدال في كثير من الأحيان؛ لدرجة أنها تصبح أغراضاً لعبث وفساد بعض المحامين ورجال القانون والمشرّعين الذين يتطلعون لتحقيق مكاسب شخصية، كما هي الحال في الولايات المتحدة، وذلك على الرغم من استنادها أحياناً إلى مفهوم السابقة القضائية.

6. رفع الحرج: لا تفرض الشريعة الإسلامية أي التزامات تحمل في طياتها التشدد أو العسر. فالدارس لأحكام الشريعة الإسلامية عن كثب سيجد أنها قائمة على مبدأ التيسير، فجميع التكاليف الشرعية مبنية على الرفق والتخفيف.

فرض الله ﷻ على كل مكلف خمس صلوات في اليوم والليلة، وكل صلاة لا تتجاوز بضع دقائق لأدائها، ويجوز لمن عجز عن الوقوف فيها أن يصلي جالساً، كما يُرخص للمسافر قصر صلاته، كما فُرض الصيام شهراً واحداً في السنة، وأجيز للمسافر أو المريض الإفطار في نهار رمضان لرفع المشقة والضرر.

ولا يغيب عن أذهاننا أن التكاليف التي فرضتها الشريعة الإسلامية معدودة، ويمكن تعلمها في فترة زمنية قصيرة، ولا تتضمن كثيراً من التفاصيل والجوانب الفرعية لدراستها، ما يبسر معرفتها، وهذا ما يؤيده كلام الله ﷻ، حيث يقول: {... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (سورة المائدة: 6).

## نظام الحدود في الإسلام

لا شك أن فهم الأسس والمبادئ الرئيسية التي تركز عليها الشريعة الإسلامية أمر في غاية الأهمية، ولكن تتجه أنظار العالم هذه الأيام إلى جانب واحد من الشريعة؛ وهو نظام الحدود الذي اتهم بالبربرية والتخلف والوحشية، ولا يعرف معظم الناس، ونسبة كبرى من المسلمين، سوى القليل عن هذا النظام وأحكامه.

تتمثل الغاية الأساسية من الحدود في حفظ أمن واستقرار المجتمع؛ فالأمن حاجة أساسية للإنسان لا تقل أهمية عن الغذاء والمسكن، فإذا انعدم الأمن، تفكك المجتمع، وسقط في هاوية الفوضى. ولا يختلف نظام العدالة الجنائية في الإسلام في هذا الصدد، فكما ذكرنا سابقاً، من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الضرورات أو الكليات الخمس: النفس، والعقل، والدين، والنسل، والمال. فقد فرضت الشريعة الإسلامية القصاص لحفظ النفس، وعقوبة شرب الخمر لحفظ العقل، وحدّ السرقة لحفظ المال. ويستند نظام الحدود في الإسلام إلى عدد من المبادئ، منها:

1. لا حرام إلا ما ورد فيه نصٌ بتحريمه: فلا يجوز تحريم الأشياء إلا إذا وردت نصوص صريحة بتحريمها في القرآن أو السنة النبوية، وقد أُشير إلى هذا المبدأ في العديد من آيات القرآن، مثل: قول الله ﷻ: { ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا } (سورة الإسراء: 15)، فالأصل في الأشياء الإباحة، ما لم يَقم دليل صريح على حرمتها.

2. لا تزرر وزر أخرى: في الشريعة الإسلامية، يتحمل الفرد وحده المسؤولية عن أفعاله، وقد أكد القرآن على هذا المبدأ في آيات عديدة، مثل: قول الله ﷻ: { ... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى... } (سورة الأنعام: 164).

3. يُطبّق نظام الحدود في الإسلام، كسائر الأنظمة الإسلامية المتّبعة، على الجميع، فلا أحد فوق سلطان الشريعة، والكل أمامها سواسية، بغض النظر عن مكانة المرء أو منصبه في المجتمع، وقد رسّخ القرآن مبدأ المساواة بين الجميع أمام سيادة الشريعة في الآية التي يقول فيها الله ﷻ: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (سورة الحجرات: 13).

وضرب لنا النبي ﷺ مثلاً عملياً في مبدأ المساواة أمام سيادة الشريعة عندما سرقت امرأة من بني مخزوم، وكانت من قبيلة ثرية وذات نفوذ كبير، وقد سعى قومها في إثنائه عن إقامة الحد عليها لمكانة عشيرتها، لكن النبي ﷺ قال: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" (رواه مسلم).

4. تُدرأ الحدود بالشبهات، أو بوجود عذر شرعي (مثل: حالة الضرورة، والجهل المقبول، وعدم الأهلية، وما إلى ذلك). وقد أرسى النبي ﷺ هذا المبدأ من خلال تعامله مع الأشخاص الذين أقرّوا بوقوعهم في حدود الله، كما سيتبيّن أدناه على نحو مفصّل.

بالإضافة إلى القصاص، تقرّ الشريعة الإسلامية نوعين آخرين من الحدود: النوع الأول: هو الحدود المبيّنة في القرآن والسنة، والمفروضة على جرائم بعينها، فلا تجوز المساومة في إقامتها أو استبدالها عند صدور حكم بالإدانة.

أما النوع الآخر: فيتعلق بالعقوبات ذات الطابع المرن، وتُطبَّق في الحالات التي يرد فيها نصوص دينية على تحريم أمور معينة دون تحديد العقوبة، وفي هذه الحالات، تأخذ السلطة السياسية في حساباتها الظروف الخاصة بالجاني، وتقرر أنجع السبل لحماية المجتمع من الضرر، وإصلاح المذنب. وتنقسم العقوبات في الشريعة إلى ثلاثة أنواع:

1. القصاص
2. الحدود
3. التعزير

### الحدود

تُعرَّف الجرائم التي تندرج تحت هذه الفئة بأنها الأفعال التي حرّمها الشرع، وفرض لها الله ﷻ عقوبات مقدرة ومعينة، وتتسم هذه الحدود بخصائص تميّزها عن غيرها، منها:

1. لا يجوز الزيادة في هذه الحدود أو إنقاصها.
2. لا يجوز للقاضي أو المؤسسة السياسية أو الضحية العفو عن هذه الحدود أو إسقاطها بعد عرض الجرائم المتصلة بها على القضاء، ولا يجوز للضحية العفو عن الجاني إلا إذا كانت الجريمة ذات طابع شخصي (أي: لم تؤثر إلا على الضحية، ولم تكن ذات عواقب مجتمعية، مثل: السرقة من متجر الضحية، وقبل عرضها على القضاء). فقد قال النبي ﷺ: "تَعَاَفَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَّغَنِي مِنْ حَدِّ فَقْدٍ وَجَبَ" (أخرجه أبو داود والنسائي).
3. الحدود "حق لله"، بمعنى أن الحق الشرعي الذي تنطوي عليه ذو طابع عام يراعي المصلحة العامة للمجتمع.

تشمل الجرائم التي تندرج تحت الحدود السرقة، وشهادة الزور، والزنا لغير المحصن والزنا للمحصن، والرّدة، وتعاطي المسكرات (المخدرات أو الكحول)، والحراية (قطع الطريق)، والإرهاب (ومن أنواعه الاغتصاب). ولا يسعنا مناقشة جميع هذه الجرائم وحدودها؛ حيث إنها تتعدى نطاق هذا الكتاب التمهيدي، ولكن نظرًا للأسئلة الشائعة والمفاهيم الخاطئة التي كثيرًا ما تُثار حول الحدود المتعلقة بالسرقة والزنا والاعتصاب، سنناقش هذه الموضوعات الثلاثة.

### حد السرقة

تُعرَّف السرقة في الشريعة بأنها: أخذ مال مملوك للغير من حرز آمن خفية بنية تملكه. وحسب هذا التعريف، تُعد السرقة عملاً عدوانيًا، متعمدًا مع سبق الإصرار.

وهناك شروط لا بد من توافرها قبل تنفيذ حد السرقة، وهي قطع يد السارق، وإليك هذه الشروط:

1. انتقال المال المسروق بالكامل إلى حيازة السارق بعد أخذه من حرز آمن عند الضحية.

2. أن يكون المال المسروق منقولاً.
3. أن يكون المال المسروق محترماً بصفة عامة. وهذا الشرط لا تطبقه ما تسمى بالمجالس "الشرعية" على النحو الصحيح في بعض المناطق الريفية التي تفتقر إلى التنقيف والوعي الكامل بحدود الشريعة وأحكامها، فتلك المجالس تعاقب الناس ظلماً على سرقة أشياء ليس لها قيمة.

إذا استوفت هذه الشروط، ولم يكن ثمة شبهة أو ضرورة بسبب الفقر المدقع (التي تحول دون تطبيق الحد)، يلزم قطع يد السارق من مفصل الرسغ في حال عرض الجريمة على القضاء<sup>1</sup>. ويستند هذا الحكم إلى الآية الكريمة التي يقول فيها الله ﷻ: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...} (سورة المائدة: 38).

#### مناقشة بشأن تغليظ عقوبة السرقة

تدعي المجتمعات الحالية المتأثرة بالغرب أن قطع يد السارق عقوبة "قاسية" أو "بربرية"، ولكن تأمل المنظور التالي: في الثقافة الغربية، لا تُقطع يد السارق، وإنما "يُعزل" السارق عن المجتمع، وهذا يحدث بداية عند الحكم عليه بالسجن، فقد يمكث لفترة طويلة، ويواجه بعض المخاطر، مثل: الاغتصاب، والحبس الانفرادي، والاعتداء الجسدي، وما إلى ذلك، ثم يُنبذ أيضاً بسبب وصمة العار الاجتماعية التي تلاحقه. وهنا يمكن القول: إن العقوبة الغربية أكثر "قسوة"؛ لأن السارق سيعاني من سجل إجرامي يظل كابوساً يطارده طوال حياته، سواء أكان ذلك في التوظيف أم الزواج أم الحق في التصويت في بعض الولايات أم تقييد السفر في حالات أخرى، على الرغم من أنه قضى مدة عقوبته على الجريمة التي ارتكبها.

أما في الإسلام؛ فالعقوبة التي فرضتها الشريعة تطهر السارق من دنس ذنبه أمام الله ﷻ والمجتمع، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالصفح عن الأشخاص الذين نالوا عقوبتهم، ودمجهم في المجتمع، والسماح لهم بمواصلة أدوارهم المجتمعية الإيجابية. فينبغي ألا يكون السجل الإجرامي حجة يطارده صاحبها، وألا ينبذه الناس بعد نيل جزائه؛ امتثالاً لأمر النبي ﷺ الذي نهى عن هجران المذنب الذي نال عقوبته، بل قد يُنتى على المذنبين في بعض الحالات على شجاعتهم عندما لا يدخرون جهداً في تطهير أنفسهم من الخطيئة التي ارتكبوها في هذه الدنيا، وفي هذا السياق نورد الأحاديث النبوية التالية:

عن عمر بن الخطاب ﷺ: "أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُقَبُّ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: "أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِسَكْرَانَ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ. فَمِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ، وَمِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بِعُغْلِهِ، وَمِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَكُونُوا عَوْنِ الشَّيْطَانِ عَلَى أَحَدِكُمْ" (رواه البخاري).

وعن عبادة بن الصَّامِتِ ﷺ قال: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ "أَبَايِعُكُمْ عَلَىٰ أَلَّا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ،

<sup>1</sup>الصفح جانب إنساني متغلغل في جميع نواحي الإسلام، لذلك إذا اختار الضحية الذي تعرض للسلب أو السرقة الصَّحْفَ عن السارق قبل توجيه أي تهم إليه (أي: قبل عرض الجريمة على القضاء)، قد لا يُطبق الحد.



فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَاخَذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَظَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ إِلَيَّ اللَّهُ، إِنْ شَاءَ عَذِّبُهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَّرَ لَهُ"، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا تَابَ السَّارِقُ بَعْدَ مَا قُطِعَ يَدُهُ، قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَكُلُّ مَحْدُودٍ كَذَلِكَ إِذَا تَابَ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ" (رواه البخاري).

### حد الزنا - لغير المحصن أو للمحصن

يُعرَّف الزنا بأنه موافقة رجل امرأة ليست زوجته؛ فلا تندرج أي علاقة أخرى لا ترقى إلى الجماع الصريح<sup>1</sup> بين الرجل والمرأة تحت الزنا، ومن ثم لا تُوجب الحد. ويتفاوت الحد حسب الحالة الزوجية للطرفين المتورطين في الزنا؛ فيجلد الزاني غير المحصن الذي لم يسبق له الزواج مائة جلدة، كما قال الله ﷻ:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...} (سورة النور: 2).

أما إذا كان الزاني متزوجاً أو سبق له الزواج، فحدّه الرجم حتى الموت، وقد ثبتت هذه العقوبة في عدد من أحاديث النبي ﷺ، كما سنبين أدناه.

ومن الجدير بالذكر أن هناك شروطاً لا بد من استيفائها كاملة قبل إقامة أي من هذين الحدين، وهي كما يلي:

1. أن يشهد أربعة شهود عدول برويتهم الإيلاج على سبيل اليقين، وأن يتفقوا على تفاصيل الفعل (مكانه وزمانه وملابساته، وما إلى ذلك)؛ فإذا لم تتطابق رواياتهم عن الواقعة، رُدَّت شهادتهم ولم تُقبل، وفي هذه الحالة يُطبَّق عليهم حد القذف، وهي إحدى الجرائم التي تُوجب الحد على الشهود غير العدول، قال الله ﷻ:

{لَوْلَا جَآؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (سورة النور: 13).

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (سورة النور: 4).

من يقع في الزنا على مرأى من أربعة أشخاص يشاهدون كل تفاصيل جريمته ما هو إلا إنسان صفيق عديم الحياء، لا يراعي ديناً ولا قيماً اجتماعية، وإن كان متزوجاً، فإنه لا يبالي بقدسية الزواج، ويستحق هذا الزاني عقوبة شديدة. ومن اللافت للنظر أنه لا توجد حالة موثقة في التاريخ الإسلامي أُقيم فيها حد الزنا بناءً على شهادة الشهود، ففي معظم الحالات على مرّ التاريخ، أُقيم هذا الحد بناءً على رغبة من وقع في الزنا؛ لتطهير نفسه من الخطيئة، وإظهار التوبة.

2. انتفاء الشبهة التي قد تعوق إنزال العقوبة، ففي حالة ثبوت شبهة، أو ثغرة لمن اتهم بالزنا، لا

يجوز إقامة الحد عليه. وهناك بعض الأمور المتعلقة بهذه المسألة: أولاً: إذا ضعف إيمان المرء، ووقع في هذه الفاحشة، فمن الأحرى له أن يكتفمها عن الآخرين، ولا يتحدث عنها أو يقرّ بها أمامهم، وإنما عليه أن يتوب إلى الله ﷻ من فوره، ويستغفره، ويسعى بكل طاقة في التكفير عن هذا الذنب بفعل الأعمال الصالحة وغيرها من الطاعات، ولا ييأس من رحمة الله ﷻ، قال الله ﷻ:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (سورة الزمر: 53).

<sup>1</sup> يُعرَّف بأنه: إيلاج الحشفة - أو قدرها - في فرج محرّم.

وينبغي الإشارة إلى أن من رأى مسلماً آخر يرتكب هذا الذنب، فعليه أن يستره، ولا يفضحه أمام الناس، حيث قال رسول الله ﷺ: "... وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (رواه مسلم).

أما الفكرة القائلة بأن علينا أن نستتر على أنفسنا ذنوبنا وذنوب غيرنا؛ فهي مناقضة تمامًا لتصور الكثير من الناس في الدول الغربية؛ فكثير من المشاهير يحظون بالاحترام عندما يعترفون بخطاياهم على الملأ، ويطلبون الصفح من الجماهير. وقد يعتبر بعض الناس أن الأشخاص الذين يكتفون بذنوبهم منافقون إذا تظاهروا بالقول أو الفعل الذي يعكس شخصية غير شخصيتهم وطباع غير طبائعهم. أما الإسلام؛ فيحرم على المسلم المجاهرة بالذنوب والمعاصي التي فعلها على المستوى الشخصي -فيما عدا الذنوب التي تتعلق بحقوق الآخرين- حيث يُعتبر عدم المجاهرة بالمعاصي نوعًا من وسائل الحفاظ على المجتمع. ففي بعض الأحيان، قد يكون للاعتراف بالذنوب على الملأ أثر عكسي؛ فقد يدفع الآخرين إلى الوقوع في الذنب نفسه، ويجرئهم على فعل المنكر. ومن النفاق الظاهر أن يصير المرء على الذنب، ويأمر غيره بالبر والصلاح، وفي هذا المعنى قال الإمام الجليل الفقيه الشافعي: "أحبُّ لمن أصاب ذنبًا فستره الله عليه أن يستره على نفسه، ويتوب فيما بينه وبين ربه". وكذلك روي عن أبي بكر وعمر ؓ (وهما أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ) وأتقاهم، ومن الخلفاء الراشدين) أنهما أمرا رجلاً أن يستتر على نفسه (رواه الترمذي). فلا داعي لمن يرتكب ذنبًا يُوجب حدًا أن يذهب إلى القاضي، ويعترف بذنبه، ويطلب إقامة الحد عليه، بل من المحبذ له أن يستتره على نفسه، ويتوب فيما بينه وبين ربه ﷺ، وأن يكثر من الأعمال الصالحة؛ لأن الحسنات يُذهبن السيئات، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

كما جعل الإسلام للبيوت حرمة عظيمة؛ فلا يجوز لأحد أن يدخل بيوت الآخرين إلا بإذن أهلها، وحرّم التجسس على الناس دون سبب وجيه، كما أُشير إلى ذلك في القرآن الكريم. وإذا اعترف المرء بالوقوع في الزنا بمحض إرادته، لزم التأكد من سلامة قواه العقلية، ومن عدم تعرّضه لأي نوع من الإكراه أو الإجبار. وللمعترف بالزنا فرصة للتراجع عن اعترافه، بل ويُشجع على ذلك، فإذا عدل عن أقواله فلا يُقام عليه الحد، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع الصحابي ماعز ؓ عندما اعترف بالوقوع في الزنا، فأعرض رسول الله ﷺ عنه أربع مرات، لكنّ ماعزًا أصرّ بعدما غرق في الشعور بالذنب والندم.

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: "جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وثب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وثب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: فيم أطهرك؟ فقال: من الرني، فسأل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بجنون، فقال: أشرب خمرا؟ فقال: فقام رجل فاستنكها، فلم يجد منه ريح خمر، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أرنيت؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم. فكان الناس فيه فرقتين؛ فأنل يقول: لقد هلك؛ لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ أنه جاء إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فوضع يده في يده، ثم قال: افتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين، أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: قد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

قال: ثم جاءت امرأة من غامد من الأزدي، فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: ويحك! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حُبلى من

الرَّزَى، فَقَالَ: أَنْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكَ، فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتُ الْغَامِدِيَّةَ، فَقَالَ: إِذْنُ لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِلَيَّ رِضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَرَجَمَهَا (رواه مسلم).

كما اشتهرت هذه المرأة فيما بعد بتوبتها النصوح، كما يتضح من الرواية الصحيحة التالية:  
عَنْ أَبِي نُجَيْدٍ عُمَرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه "أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلِيَّهَا فَقَالَ: أَحْسِنِ إِلَيْهَا، فَأِذَا وَضَعْتَ فَأَتِنِي فَفَعَلْ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرَجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عَمْرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ زَنْتِ، قَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسَعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟" (رواه مسلم).

### الحكمة من إقامة حد الزنا لغير المحصن أو للمحصن

إذا راجعنا جميع العقوبات في الشريعة، لاحظنا أنها جميعًا تجتمع في خصلتين:

1. مجموعة من الشروط التي يجب استيفاؤها قبل تنفيذ أي عقوبة، ما يمنع من إساءة تطبيق أحكام العدالة، أو إدانة أي شخص بجريمة لم يرتكبها ومعاقبته عليها، فهذا من شأنه أن يحافظ على حياة المتهم، ويضمن له عدم تنفيذ العقوبة إلا بعد استنفاد كل عذر ممكن، والنظر في كل سبب من أسباب إسقاط العقوبة.

2. طابع الشدة والغلظة الذي يشير إلى مدى بغض الله صلى الله عليه وسلم للجريمة المرتبطة بهذه العقوبة، فقد تبدو بعض الجرائم -كالزنا- لعدد من الناس هينة بطبيعتها، أو "ليست أمرًا جلالًا"، ولكنها عظيمة عند الله صلى الله عليه وسلم الذي يعلم حقائق الأمور، والأثر الذي تحدثه هذه الموبقات على المجتمع بأسره؛ فهي تضر بالفرد والمجتمع على حد سواء.

ويضمن عامل "الغلظة" الذي تنطوي عليه الحدود شئبين: أولاً، المحافظة على الأمن العام للمجتمع، والحد من الجريمة؛ فالمرء الذي يريد أن يقتل ويعرف في قرارة نفسه أنه سيقتل، والذي يريد أن يسرق ويعلم أنه سيقطع يده، والذي يريد الوقوع في الزنا ويعرف أنه سيُرجم أو سيُجلد مائة جلدة- يفكر ألف مرة قبل ارتكاب جريمته.

أما إذا علم المجرم أن العقوبة والسجن غير متسقين، ولا يُعجل بتنفيذهما؛ فلن يرتدع، وفي هذه الحالة، لن يبالى بالعقوبة، ولن يثنيه ذلك عن ارتكاب الجريمة، فالقاعدة العامة تقول: كلما رجحت كفة المنافع العائدة من الجريمة على كفة العقوبة، أصبحت القوانين غير ناجعة.

وعندما ننظر في خطيئة الزنا لغير المحصن أو للمحصن نظرة فاحصة، نجد أنها تتقيد بالمبادئ سالفة الذكر، ويُعد شرط إثبات الجريمة -أربعة شهود عدول- شرطاً صارماً للغاية، كما أنّ العقوبة قاطعة، وإذا نظرنا إلى تطبيق هذه العقوبة، فسنجد العديد من أوجه الحكمة:

أ. حفظ السلم والأمن العام في المجتمع؛ نظرًا لأن أكثر الدوافع شيوعًا للقتل في العديد من المجتمعات اليوم هو الغضب المرتبط بضبط الزوجة في الفراش مع شخص آخر<sup>1</sup>، والمصنفة قانونًا على أنها جريمة بدافع العاطفة<sup>2</sup>. فتطبيق حد الزنا يخفض جرائم القتل بدافع العاطفة، ما يقلل بدوره من معدل جرائم القتل بشكل عام، ومن ثم يكون له أثر إيجابي مباشر على السلامة العامة.

ب. حماية الأسرة؛ إذ تتمتع الأسرة بمكانة خاصة في الإسلام، وثبت أن العلاقات الحميمة خارج كنف الزوجية تدمر الأسرة<sup>3</sup> وتقوّض سلامتها<sup>4</sup>. ولذلك تعمل العقوبة المغلظة المفروضة على الزنا (لغير المحصن أو للمحصن) على الحد من وقوع هذه الجريمة، والذي بدوره يؤثر تأثيرًا مباشرًا وإيجابيًا في استمرار الزوجات، وضمان الأمن للأطفال واستقرارهم، كما تُثني عن فكرة "البحث عن مغامرة" من خلال العلاقات غير الشرعية.

### حد الاغتصاب

لا يُصنّف الاغتصاب في الإسلام ضمن نوع مستقل من الجرائم في أحكام الشريعة، ما أدى إلى وقوع بعض الالتباس بشأن العقوبة المفروضة عليهِ، كما سيجري مناقشته لاحقًا، وقد رأى بعض المسلمين من محدودي الثقافة أن الاغتصاب يُصنّف كجريمة زنا (لغير المحصن أو للمحصن)، بينما في الواقع، يندرج تحت الحراية، أو الإرهاب.

والحراية كلمة عربية تعني نصب الكمان للناس، وتخويفهم بالسلاح أو بالتهديد باستخدام القوة، وقتلهم وإرهابهم، والاستيلاء على أموالهم غصبًا. ويُذكر المال تحديدًا في سياقها لارتباط الحراية عادة بالسرقة، ولكن ينطبق الحكم أيضًا على من يُرهب الآخرين بقصد الاغتصاب، والحراية في الإسلام من أكبر الكبائر، وقد ورد تحريمها في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل وصف الله ﷻ عقوبتها في القرآن على النحو التالي:

قال الله ﷻ: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَقَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (سورة المائدة: 33).

### الفرق بين الزنا والاعتصاب في الشريعة الإسلامية

وضح علماء الإسلام المتقدمون، وأبرزهم الدسوقي وأبو بكر بن العربي، سبب تصنيف الاعتصاب ضمن

<sup>1</sup> يفيد منشور مكتب إحصاءات العدالة التابع لوزارة العدل في الولايات المتحدة، بعنوان "اتجاهات القتل في الولايات المتحدة بين أعوام 1980 و2008"، أن جرائم قتل الشريك الحميم للمرأة البيضاء بين أعوام 1980 و2008 بلغت نسبتها 44% من متوسط جميع جرائم قتل المرأة البيضاء، في حين بلغ متوسط جرائم قتل الشريك الحميم للمرأة السوداء 43% من جميع جرائم قتل المرأة السوداء.

<sup>2</sup> خزان، أولغا (Khazan, O). (20 يوليو 2017). نحو نصف النساء المقتولات يُقتلن على أيدي الشركاء الحميمين. (Nearly Half of All Murdered Women Are Killed by Romantic Partners). مُقتبس من: <https://www.theatlantic.com/health/archive/2017/07/homicides-women-534306/>.

<sup>3</sup> بروكس، أندري (Brooks, A). (9 مارس 1989). يرى الخبراء أن العلاقات الجنسية خارج كنف الزوجية لها أثر بالغ في الأطفال. (Experts Find Extramarital Affairs Have a Profound Impact on Children). مُقتبس من: <https://www.nytimes.com/1989/03/09/us/health-psychology-experts-find-extramarital-affairs-have-profound-impact.html>.

<sup>4</sup> تشارني، إسراييل (Charny, IW) وبارناس، سنان (Parnass, S). (1995). أثر العلاقات خارج كنف الزوجية على استمرار الزواج (The Impact of Extramarital Relationships on the Continuation of Marriages). مجلة الجنس والعلاج الزوجي. مُقتبس من: <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/7643421>.

جرائم الحرابة وليس جرائم الزنا (لغير المحصن أو للمحصن). ويروي ابن العربي قصة لمجموعة من المسافرين تعرّضوا خلالها للاعتداء، واغتُصبت امرأة في رفقتهم؛ حيث يرد ابن العربي على الحجة القائلة بأن تلك الجريمة لا تندرج تحت جرائم الحرابة بسبب عدم انطوائها على أخذ المال أو استخدام السلاح بقوله: "إن الحرابة في الفروج أفحش منها في الأموال، وإن الناس كلهم ليرضون أن تذهب أموالهم وتحرب من بين أيديهم، ولا يرضون أن يحرب المرء في زوجه وابنته"<sup>1</sup>. وهذا التصنيف منطقي؛ لأن "الأخذ" في هذه الحال واقع على حق الضحية وما تمتلكه (عرضها وشعورها بالأمن) بالمغالبة.

وعليه، يشبه الاغتصاب الحرابة، ويُعد جريمة من جرائم العنف التي تنطوي على ممارسة الاتصال الجنسي القسري، فالعبرة في دعوى الحرابة مقصد المغتصب المتهم وأفعاله الجسدية، وليس التكهّن بموافقة ضحية الاغتصاب. ولا تتطلب الحرابة أربعة شهود لإثبات الجريمة، على عكس اعتقاد بعض المجالس الشرعية الزائفة التي تنصدر عناوين الصحف اليوم في مناطق ريفية في باكستان ونيجيريا، بل تستند الدعوى إلى بينة غير مباشرة، ومعلومات طبية، وشهادات. فإثبات أن القضية الجنائية جريمة اغتصاب أمر بالغ الخطورة؛ لأنها في ظل المحكمة الإسلامية قد تعني مسألة حياة أو موت للجاني، ومن ثم يُجرى تقييم شامل للتأكد مما إذا كان المتهم قد ارتكب الجريمة بالفعل، فإذا بيّنت الأدلة أن الاتصال الجنسي وقع بالتراضي، وكان اتهام المغتصب المُدعى عليه في غير محله، حُكم أنّ كليهما قد ارتكبا الزنا، ووجب الحد عليهما معاً.

#### العقوبة الغربية العلمانية المفروضة على جريمة الاغتصاب

بمراجعة اتجاهات العقوبة الجنائية الحالية في الغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة بصفة خاصة، يدرك المرء مدى خيبة الأمل الكبيرة التي تعترى الأطباء وضباط الشرطة والأسر وضحايا الاغتصاب. فقد أظهرت التقارير أن نحو سبعين بالمائة من حالات الاغتصاب لا تُبلّغ بها سلطات إنفاذ القانون في الولايات المتحدة<sup>2</sup>. فما الأسباب الكامنة وراء هذه الإحصاءات الصاعقة؟ أولاً: من الضروري التعرّف على الانتشار الفعلي للمشكلة.

- في عام 2002، بلغ عدد ضحايا الاغتصاب أو محاولات الاغتصاب أو الاعتداء الجنسي 247,730 ضحية، ومن بين هؤلاء الضحايا، سُجّل نحو 87,000 ضحية اغتصاباً كاملاً، و70,000 ضحية محاولة اغتصاب، و91,000 ضحية اعتداءً جنسياً<sup>3</sup>.
- وفقاً لوزارة الصحة والخدمات البشرية الأمريكية، سُجّل ما يزيد على 60 مليون ناجٍ من الاعتداء الجنسي على الأطفال في أمريكا اليوم، أي: ما يعادل نحو 20% من سكان الولايات المتحدة<sup>4</sup>.
- تتعرّض ضحية كل دقيقتين، في أي مكان بأمريكا، للاعتداء الجنسي<sup>5</sup>.
- نجم عن الاعتداءات الجنسية ما يصل إلى 4,065 حالة حمل<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> سابق، السيد (1972)، فقه السنّة. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

<sup>2</sup> وزارة العدل، برامج مكتب العدل، مكتب إحصاءات العدالة، الدراسة الاستقصائية الدولية بشأن ضحايا الجريمة في الأعوام 2010-2014 (2015).

<sup>3</sup> الدراسة الاستقصائية الوطنية لضحايا الجريمة لعام 2002، وزارة العدل الأمريكية.

<sup>4</sup> مركز مينيسوتا المركزي للاعتداء الجنسي: <https://cmsac.org/facts-and-statistics/>

<sup>5</sup> الدراسة الاستقصائية الوطنية لضحايا الجريمة لعام 2002، وزارة العدل الأمريكية.

<sup>6</sup> تقدير الشبكة الوطنية للاغتصاب وسفاح القربى (RAINN)، بناءً على الدراسة الاستقصائية الوطنية لضحايا الجريمة لعام 2002، وزارة العدل الأمريكية.

- وإذا أخذنا حالات الاغتصاب غير المُبلغ عنها في الحسبان، فإن نحو 6% من المغتصبين سيقضون يوماً واحداً في السجن<sup>1</sup>.
- يُقدّر وقوع نحو 50,000 حالة اغتصاب في المملكة المتحدة كل عام، ولكن لا يُسجن سوى 600 مغتصب فحسب، وفي عام 1985، بلغ معدل الإدانة 24% في محاكمات الاغتصاب، ولكن بحلول عام 2003، انخفضت النسبة إلى 5%<sup>2</sup>.

لماذا ينتشر الاغتصاب بصورة كبرى في المجتمعات المنفتحة مثل: أمريكا؟ في حين أن هناك العديد من العوامل المساهمة، ولمّا كانت العقوبة على جريمة معينة تنطوي على مخاطر قليلة أو معدومة بالنسبة إلى المنافع المحتملة للجريمة، فمن المرجح أن يرتكب الجاني هذه الجريمة. ومما يُؤسف له، كما أشار بذلك الخبير الاقتصادي ويليام كيب فيسكوسي (W. Kip Viscusi)، أنّ المخاطر التي يشكلها نظام إنفاذ القانون الجنائي [في الغرب] منخفضة بصورة ملحوظة، كما تُظهر المعلومات أن الجناة الأحداث يدركون ذلك<sup>3</sup>.

إن البيانات المتعلقة بالملاحقة الجنائية للاغتصاب في أمريكا مروّعة وصادمة للغاية؛ حيث إن نحو 70% من حالات الاغتصاب أو الاعتداءات التي لم تُبلغ بها سلطات إنفاذ القانون لا ينتهي أمر مرتكبيها بقضاء، أي: فترة عقوبة في السجن أو بمعاقبتهم، ولكن ماذا عن الحالات التي أُبلغ عنها؟ هل ثمة صلة بين الإبلاغ عن الاغتصاب وتحقيق العدالة للضحية؟ للأسف الشديد، لا تبعث الأرقام على التفاؤل، فمراجعة البيانات التي جمعتها<sup>4</sup> الشبكة الوطنية للاغتصاب والإساءة وسفاح القربى (RAINN)، نرى أنه من بين كل 1000 حالة اغتصاب:

- أُبلغت الشرطة بـ 310 حالة فقط.
- 57 بلاغاً (18% من الحالات المُبلغ عنها) تؤدي إلى القبض على الجاني.
- 7 حالات (2.25% من الحالات المُبلغ عنها) تؤدي إلى إدانة جنائية.
- 6 مغتصبين (1.9% من الحالات المُبلغ عنها) يتعرضون للحبس.

علاوة على ذلك، تشير الشبكة الوطنية للاغتصاب والإساءة وسفاح القربى إلى أن مرتكبي العنف الجنسي أقل عُرضة للسجن أو الحبس من المجرمين الآخرين.

وبالنظر إلى الخطر الحقيقي المتمثل في التعرّض للانتقام المغتصب، أو الخوف من الوصم الاجتماعي، مقارنة بسجل الإدانات المحدود للغاية، فإن معظم النساء في الغرب يخترن عدم الإبلاغ عن حالات الاغتصاب.

<sup>1</sup> مركز مينيسوتا المركزي للاعتداء الجنسي: <https://cmsac.org/facts-and-statistics/>

<sup>2</sup> سوير، ميراندا (Sawyer, M) (31 يوليو 2003). 50,000 حالة اغتصاب سنويًا، ولكن لا يُسجن سوى 600 مغتصب فحسب (rapes 50,000 each year, but only 600 rapists sent to jail). مُقتبس من: <https://www.theguardian.com/uk/2005/jul/31/ukcrime.immigrationpolicy>

<sup>3</sup> فيسكوسي، ويليام (Viscusi, W) (1986). المخاطر والمكاسب المرتبطة بالنشاط الإجرامي: اختبار شامل للردع الإجرامي (The Risks and Rewards of Criminal Activity: A Comprehensive Test of Criminal Deterrence). مجلة اقتصاديات العمل، المجلد الرابع (العدد الثالث)، الصفحة 317-340. مُقتبس من: <http://www.jstor.org/stable/2535056>

<sup>4</sup> <https://www.rainn.org/statistics/criminal-justice-system>

## مسألة "جرائم القتل بدعوى الشرف"

نوجّه انتباهنا الآن إلى مسألة جرائم القتل بدعوى "الشرف"، وهي إحدى جرائم الظلم الاجتماعي الحقيقية في العالم المعاصر، ويجب التنويه على أن الإسلام لا يعض الطرف مطلقاً عن هذه الممارسة القمعية والرجعية ولا يقرّها أو يؤيدها، ومع ذلك عندما تتناول وسائل الإعلام هذه الجرائم البشعة، يتبين أن معظم الحالات تقع في "الدول المسلمة"، وقد أدى هذا للأسف الشديد إلى خلق ارتباط في أذهان كثير من الناس بين هذه الجرائم المروعة وبين الإسلام.

وجرائم القتل بدعوى "الشرف" هي تلك الجرائم التي تستهدف النساء اللاتي يقعن ضحايا للاغتصاب، وبما أن هؤلاء النساء قد دنّسن "شرف" عائلاتهنّ بتعرضهنّ للاغتصاب، فإنهنّ يُقتلن، غالباً على يد أحد أفراد العائلة، من أجل التخلص من العار الذي ألحقته بها. وبالطبع، لا يمكن تقبل هذا الأمر مطلقاً في أي مجتمع متحضّر؛ لأن هؤلاء النساء ينبغي أن يتلقين المشورة والدعم العاطفي من عائلاتهنّ بعد التعرض لصدمة الاغتصاب.

وكما أوضحنا من قبل، يحق للمرأة التي تعرّضت للاغتصاب في الشريعة الإسلامية- رفع دعوى جنائية ضد المعتدي، كما ينبغي توفير الحماية لها من جانب السلطة الحكومية الإسلامية، وتقديم الدعم العاطفي الذي تحتاج إليه، لأنها لم تقترف أي ذنب أو خطيئة، بل ينبغي أن تثب العقوبة الإسلامية المفروضة على المعتدي الرعب في قلب أي رجل قد يفكر حتى في إيذاء امرأة.

ولقد كشف الواقع الحالي أن الرجال في جميع أنحاء العالم يحزّون التعاليم الدينية، ويشوهونها، في الإسلام والمسيحية<sup>1</sup> على حد سواء، لتبرير الإساءة إلى زوجاتهم وأخواتهم وبناتهم، ما أدى إلى وقوع الآلاف من جرائم القتل بدعوى "الشرف" سنوياً؛ حيث توفر المحاكم العلمانية حصانة حقيقية لمرتكبي هذه الجرائم. وفي تلك البلدان التي تنتشر فيها جرائم "الشرف"، لا يخضع أحد أفراد العائلة الذي يأخذ على عاتقه قتل قريبته المُغتصبة لأي إدانة قضائية جراء فعلته الشنعاء.

وتتواتر القصص المرعبة لنساء، بل حتى فتيات صغيرات، لا تزيد أعمارهنّ على سبع سنوات، قُطعت رؤوسهنّ أو تعرّضن للحرق حتى الموت، أو التشويه، أو الضرب، أو الاغتصاب، أو الإجبار على الانتحار، أو للإيذاء النفسي، ما يؤكد أن عنف أرباب الأسر ضد المرأة لا يتقيد بقيود الدين، ومعظم هذه الحالات مترسّخ في المعتقدات الثقافية والقبليّة التي ليس لها أصل أو أساس في الدين.

ولدى سؤال السيدة نيلوفر بختيار، مستشارة رئيس الوزراء الباكستاني لشؤون تنمية المرأة، عن الدور الذي يجب أن يؤديه الإسلام فيما يتعلق بجرائم القتل بدعوى الشرف، أجابت قائلة: "إن الإسلام بعيد كل البعد عن جرائم القتل بدعوى الشرف"<sup>2</sup>، كما ألقت باللوم في هذا النوع من العنف الحاصل في باكستان على "التقاليد الإقطاعية، والثقافة، والنظام القبلي"، وقالت أيضاً: "إنّه من اليسير على هؤلاء الرجال القول بأن ما يفعلونه هو باسم الإسلام"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> <https://www.independent.co.uk/news/world/asia/india-christian-honour-killing-kerala-kevin-p-joseph-southern-dalit-a8375891.html>

<sup>2</sup> سترويتشفسكي، جان (J. Strupczewski). (8 ديسمبر 2004). خبراء: الرجال يحزّون الدين لتبرير القتل بدعوى "الشرف". (Experts: Men) <https://wrrn.org/articles/14661>. مُقتبس من: <https://wrrn.org/articles/14661>.

<sup>3</sup> المرجع السابق نفسه.

ووفقاً لتصريحاتها، تُظهر التقارير أن العنف بسبب "الشرف" يقع أيضاً بين العائلات النصرانية، حيث قالت امرأة نصرانية من الشرق الأوسط خلال مقابلة مسجلة: "بعد أن تزوجنا، انفتحت علينا أبواب الجحيم، وبعد تعرّضها للضرب والاعتصاب بسبب شكها في الممارسات التجارية التي يقوم بها زوجها، فرّت إلى السويد عندما توّعدها ببيعها في سوق الدعارة"<sup>1</sup>.

ولا يمكن التخلص من مثل هذه الممارسات المرّوعة إلا من خلال التعليم، وإنفاذ القانون بصرامة، وبلا هوادة. فمن المخزي أن يتجاهل هؤلاء الناس أو يجهلوا توجيهات النبي ﷺ إلى الرجال حول معاملة النساء بالمودّة والصبر عليهنّ، وتذكيره إياهم بأن الله ﷻ سيسألهم يوم القيامة عن معاملتهم للنساء اللاتي تحت أيديهم.

---

<sup>1</sup> المرجع السابق نفسه.



## دولة إسلامية أم دولة مسلمة – هل ثمة فرق؟

من بين المفاهيم الخاطئة الرئيسة المنتشرة الآن بين الشعوب الغربية الاعتقاد بأن "الدول المسلمة" هي مناطق يسود فيها الحكم بالشرعية الإسلامية من المنظور الشخصي والحكومي، وهذا يقود الكثيرين في الغرب إلى معادلة كل ما يحدث في هذه الدول "المسلمة" بتطبيق الإسلام، والحقيقة معاكسة تمامًا في معظم الحالات. ويدفعهم ذلك الاعتقاد أيضًا إلى التساؤل عن سبب سعي العديد من المسلمين للعيش في الغرب إذا كان الإسلام مطبقًا في أوطانهم، والإجابة البسيطة هي أن "الدول المسلمة" ما هي إلا دول ذات أغلبية مسلمة في معظمها، وليست مناطق يسود فيها الحكم بالشرعية الإسلامية.

بل إنَّ بعض هذه الدول "المسلمة" تحكمها أنظمة قمعية، وكما جاء المهاجرون من قِبَل من أوروبا، فرَّ العديد من المسلمين من دولهم إلى الغرب بحثًا عن الحرية والحقوق، لكن إياك أن تظن أن للإسلام علاقة بالظروف القمعية التي دفعت هؤلاء المسلمين المضطَّهدين إلى الفرار من أوطانهم، بل نحن إذا فهمنا جوهر الشريعة الإسلامية، لعلمنا أن الإسلام مناقض تمامًا للممارسات القمعية القائمة في تلك الدول.

## موقف الإسلام من الإرهاب والحرب - إجابات مباشرة من المصادر

بعد أن تعلمنا من الفصول السابقة أن الإسلام أسلوب حياة متكامل، فلا غرابة أن تكون له قوانين وقواعد تنظم الحرب؛ فالمجتمعات، منذ بداية الحضارة حتى الآن، لديها دساتير تتضمن بعض القواعد الخاصة بالحرب، وقلّة من المجتمعات هي التي أغفلت هذا الأمر المهم، لأن أهل البصيرة يدركون أن الحرب حقيقة لا مفر منها في هذه الحياة.

سيكون هناك دائماً أناس فاسدون عديمو الرحمة في هذا العالم، وحكومات مارقة استبدادية تستغل قوتها العسكرية والاقتصادية من أجل نهب الشعوب والأمم المستضعفة وغزوها واضطهادها، ولا بد أن تكون لدى الحضارات المنظمة وسيلة للتعامل مع الأفراد والحكومات، وإلا هيمن الفساد على العالم؛ فبعد أن ذكر الله ﷺ تأييده لداود في هزيمة جيش جالوت الظالم قال:

{فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (سورة البقرة: 251).

ومنذ انتشار الإسلام في الأراضي التي كانت واقعة تحت القوى النصرانية في القرن السابع الميلادي، وُصف الدين الإسلامي زوراً بأنه دين العنف والحرب<sup>1</sup>. وفي ظل تصاعد أعمال العنف الأخيرة في الشرق الأوسط وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، اتُّهم الإسلام أيضاً بأنه دين الإرهاب والتعصب، فهل هذا صحيح، أم أن هناك بعض الحلقات المفقودة في هذه الاتهامات الخطيرة؟

<sup>1</sup> كيجي، والتر إميل (Kaegi, W.E) (يونيو 1969). ردود الفعل البيزنطية الأولية إزاء الفتح العربي (Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest). التاريخ الكنسي، المجلد 38، العدد 2، صفحة 139-149، صفحة 139-142، نقلاً عن تعليمات يعقوب المعمد حديثاً 86-87.

## هل هناك آيات قرآنية تحرّض على القتال والحروب؟

كما هي الحال مع الكثير من القضايا المهمة، هناك من يتعمدون خداع عامة الناس بخصوص المنظور القرآني عن العنف، ويستخدمون التصريحات التي أدلى بها المتطرفون لدعم حججهم ومزاعمهم، لكنهم لم يذكروا قط أهمية السياق، فعلى سبيل المثال: عندما يقرأ المرء الآية القرآنية التالية، قد يُصاب بالصدمة، ويبدأ في تصديق الكثير من الادعاءات والأفكار المغلوطة التي تُثار عن الدين الإسلامي: **{وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ...}** (سورة البقرة: 191).

عادةً ما يستشهد هؤلاء الذين يسعون لإثارة الكراهية والخلافات بين المسلمين وغيرهم بهذا الجزء من الآية، ومما زاد الطين بلة، أن الجهّال في بعض الدول المسلمة أعلنوا أن هذا الجزء من الآية دليلهم على جواز قتل غير المسلمين؛ فهل هم على صواب في ادعائهم هذا؟

كما هو معتاد، إذا نظرنا إلى سياق أي نص أو تصريح، سنفهم المعنى المقصود منه على نحو أفضل، ولذا لابد من مراجعة سياق هذا الجزء من الآية لنرى هل اتضحت الصورة أم لا؟

قال الله ﷻ: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}** (سورة البقرة: 190-193).

وهنا يتضح من سياق الآيات أن الله ﷻ يوجّه المؤمنين إلى مجابهة الظلم والاضطهاد وصد العدوان والاعتداء! وهكذا يصبح السؤال الصحيح، هل كان ينبغي لله ﷻ أن يقول: عانقوهم حيث وجدتموهم، وقبّلوهم نظير إخراجكم من دياركم ومحاولة قتلكم؟! لا قانون على الأرض ولا منطق بشري يؤيد هذا الطرح! وهذا جلي تمامًا في سياسات العالم المعاصر؛ حيث تهاجم بعض الدول دولاً أخرى بناءً على احتمال تعرّضها للهجوم، وهو ما يسمى بالحرب الاستباقية.

## الإسلام والتسامح مع الأديان الأخرى

لكي تتكون لدينا صورة واضحة حول الطريقة التي ينبغي للمسلمين أن يتعاملوا بها مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، يجب أن نستعرض الآيات القرآنية التي يأمر الله ﷻ المؤمنين فيها بالحفاظ على السلام مع غير المسلمين المسالمين، وعدم خوض القتال إلا مع العدو المعتدي؛ فيقول الله ﷻ:

**{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** (سورة الأنفال: 61).

**{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}** (سورة الحج: 39).

**{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ}**

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (سورة الممتحنة: 8-9).

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} (سورة النساء: 75).

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (سورة البقرة: 256).

بعد قراءة هذه الآيات يتضح لنا أن الإسلام لا يؤيد قتل أي أحد يختلف مع المسلمين في العقيدة، وترشد تلك الآيات إلى اتباع منهج دقيق ومدروس لمنع الاضطهاد والظلم للمسلمين وغيرهم، وإيجاد الحلول السلمية الممكنة لهذه القضايا قبل اللجوء إلى القتال والقوة. وبمراجعة التاريخ سيتضح لنا أن الجيوش الإسلامية أرسلت في بعض الأحيان لحماية غير المسلمين، لأنه أمر الله ﷻ؛ فالعدل والحرية مكفولان لجميع الناس.

## هل الإسلام الدين الوحيد الذي يجيز القتال والحروب؟

من المؤسف أن كثيرًا من الناس يظنون أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يبيح الحرب، ويدعون أن عيسى ﷺ مأمور في الكتاب المقدس بالسلام مع العدو، بل حتى محبته، فهل هذا صحيح؟

مما لا شك فيه أن الأمم والممالك النصرانية على مرّ التاريخ كانت في طليعة الحروب والقتل، مثل: الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش الأسبانية، وإبادة الهنود الحمر في كل من أمريكا الشمالية والجنوبية، بالإضافة إلى المجازر الرهيبة في الحربين العالميتين الأولى والثانية. وفي هذا الصدد، كتب البروفيسور خوان كول (Juan Cole)، أستاذ كرسي ريتشارد بي ميتشل الجامعي للتاريخ في جامعة ميشيغان، في مدونته على الإنترنت قائلاً: "على العكس مما يزعمه المتعصبون أمثال بيل ماهر (Bill Maher)، فإن المسلمين في الحقيقة ليسوا أكثر عنفاً من أتباع الديانات الأخرى؛ وذلك لأن معدلات القتل في أغلب أقطار العالم الإسلامي أقل بكثير إذا ما قورنت بمعدلاته في الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذا ما تحدثنا عن العنف السياسي، وجدنا أن أصحاب الإرث المسيحي أبادوا عشرات الملايين من البشر في القرن العشرين خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية فقط، هذا فضلاً عن الذين أبيدوا خلال فترة القمع الاستعماري. ولم تحدث تلك المذابح الجماعية لأن المسيحيين الأوروبيين أسوأ من باقي البشر أو مختلفون عنهم، بل لأنهم أول من اصطنع الحرب، أي حولوها إلى صناعة، وأول من تبنى منهج القومية، وأحياناً يقال: إنهم لا يقومون بتلك الحروب باسم الدين، وإنما بسبب النزعة القومية، ولكن هل هذا صحيح؟ يا لسذاجة القول! فالدين والقومية مترابطان ومتشابكان إلى أبعد الحدود؛ فالملكية البريطانية تقع على رأس الكنيسة الإنجليزية، وكما نعلم، كان لهذا الأمر أهمية بالغة خلال النصف الأول من القرن العشرين، والكنيسة السويدية ما هي إلا كنيسة قومية، وماذا إذن عن أسبانيا؟ ألم تكن على صلة بالمذهب الكاثوليكي؟ ألم تلعب الكنيسة، وكذلك قناعات فرانسيسكو فرانكو تجاه الكنيسة، دوراً في الحرب الأهلية؟ فلماذا إذن تأمر الناس بالبر ونسى أنفسنا؛ فكثير من العنف الذي يمارسه بعض المسلمين ينبع أساساً من أنماط القومية الحديثة أيضاً.

ولا يبدو لي أن المسلمين قتلوا ما يربو على مليوني إنسان أو نحو ذلك جراء العنف السياسي الذي حدث طيلة القرن العشرين، وذلك بصورة رئيسة خلال الحرب الإيرانية العراقية في الفترة ما بين 1980-1988، بالإضافة إلى الحروب التي دارت رحاها قبل انهيار الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وبعده، والتي شارك فيها الأوروبيون أيضاً.

وعند مقارنة هذا الرقم بالرقم المسجل بالأرشفيف المسيحي الأوروبي، نكتشف أنه يبلغ نحو مائة مليون قتيل (16 مليون منهم قُتل في الحرب العالمية الأولى، و60 مليون قُتل في الحرب العالمية الثانية، على الرغم أن بعض تلك الأرقام كانت تُعزى إلى البوذيين في آسيا، بالإضافة إلى ملايين أخرى لقوا حتفهم في الحروب الاستعمارية).

وماذا عن بلجيكا؟ نعم، أقصد بلجيكا المشهورة ببيرة الفراولة، وقلعة غرافنستين المنيعة والخلابة، لقد غزت بلجيكا الكونغو، وقتلت ما يقدر بنحو نصف سكانها الذين بلغوا نحو ثمانية ملايين قتيل، على أقل تقدير. يمكنني أن أسرد الكثير والكثير من هذه الأحداث المروعة والأساوية، وذلك لأنك عندما تتتبع آثار الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا، ستنتثر قدماءك في الجثث والقتلى، لأنها بالفعل لا تُحصى ولا تُعد. وعندما نفكر ملياً في هذه الأحداث السابقة، نصل إلى القناعة بأن مائة مليون قتيل في الإرث المسيحي الأوروبي خلال

القرن العشرين قد يكون أقل من العدد الحقيقي.

وأما عن الإرهاب الديني، فتلك ظاهرة عالمية باعتراف الجميع، حيث إن بعض الجماعات تستخدم الإرهاب -باعتباره منهجًا وتكتيكًا- في بعض الأوقات؛ فالصهاينة كانوا إرهابيين نشطين في الأربعينيات في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، وذلك طبقًا لوجهة النظر البريطانية. أما في الفترة ما بين 1965 و1980؛ فقد وضع مكتب التحقيقات الفيدرالي عصبة الدفاع عن اليهود ضمن أكثر الجماعات الإرهابية نشاطًا بالولايات المتحدة.

وفي الآونة الأخيرة، من الصعوبة بمكان أن نلاحظ فرقًا يذكر بين تامرلان تسارنايف ( Tamerlan Tsarnaev) وباروخ غولدشتاين (Baruch Goldstein) الذي قاد مذبحه الحرم الإبراهيمي.

وليس تفجير ضريح أجمير منا ببعيد، وهو العمل الإرهابي الذي وقع في الهند، ونفذه بدم بارد بهافيش باتيل (Bhavesh Patel) وعصابة من القوميين الهندوس. والأدهى والأمر أنهم أبدوا امتعاضهم عندما لم تنفجر قنبلة ثانية كانوا قد زرعوها، ولم يتمكنوا من التسبب في قدر أكبر من الخراب والدمار كما خططوا له. ومن الجدير بالذكر أن ضريح أجمير مزار صوفي عالمي تقصده الهندوس أيضًا، وهؤلاء المتعصبون أرادوا القضاء على تلك الحالة من المشاركة المنفتحة للساحات الروحية بهذا المكان، بسبب كراهيتهم الشديدة للمسلمين.

ولكن ماذا عن البوذيين؟ لقد ارتكبوا أيضًا الكثير من الأعمال الإرهابية، بل الكثير من صنوف العنف كذلك، فعلى سبيل المثال: أيد غالبية أتباع طائفة "زن" البوذية باليابان الخيار العسكري في النصف الأول من القرن العشرين، وهو الأمر الذي اعتذر عنه قادتهم لاحقًا. ولا يجب أن ننسى حملة اغتيالات إينو شيرو ( Inoue Shiro) التي وقعت باليابان خلال الثلاثينات، وفي الوقت الراهن، يحرّض الرهبان البوذيون المسلحين في بورما/ميانمار على القيام بحملة تطهير عرقي ضد الروهينغيا.

وفيما يتعلق بالنصرانية، فقد تسبب جيش الرب للمقاومة بأوغندا في تشريد مليوني شخص بسبب الحرب التي أدكوا لهيبتها، وعلى الرغم من أنها طائفة أفريقية، لكنها في الأصل مسيحية وظهرت كنتاج للحملات التبشيرية المسيحية الغربية في قارة أفريقيا. وإذا كان يُلقى باللائمة على دعاة الحركة الوهابية السعودية بصورة جزئية فيما يتعلق بحركة طالبان، فلماذا يتجنّب المبشرون المسيحيون الحديث عن رد الفعل السلبي من تلاميذهم؟

وعلى الرغم من العدد الهائل من المسلمين الأوروبيين، فإن حجم الأعمال الإرهابية التي ارتكبت في الفترة ما بين 2007-2009 بقارة أوروبا على يد أشخاص منتسبين إلى الإسلام يقل عن نسبة الواحد بالمائة.

إن الإرهاب منهج المتطرفين في كل ديانة، بما فيها التيارات العلمانية؛ كالماركسية والقومية، فليس هناك دين يدعو إلى ممارسة العنف العشوائي ضد الأبرياء.

ومن المثير للدهشة أن ننظر إلى المسيحيين أصحاب الإرث الأوروبي على أنهم أناس لطفاء، بينما نعتبر المسلمين أناسًا قد تأصل العنف في فطرتهم، ونغض الطرف عن أعداد القتلى الهائلة في القرن العشرين كما ذكرنا سلفًا، فالجنس البشري هو الجنس البشري في أي مكان، والناس تلجأ إلى العنف بسبب فرط الطموح أو الظلم، وكلما قويت شوكتهم زادت وتيرة العنف الذي يرتكبونه، أما عن الجانب المضيء؛ فإن الحروب تقل

بمرور الوقت، والحرب العالمية الثانية، صاحبة أكبر عدد قتلى في التاريخ، وضعت أوزارها ولم تتكرر<sup>1</sup>.

ولكن، لكي نكون منصفين، سنلقي نظرة على الحقائق الثابتة كما وردت في آيات الكتاب المقدس؛ لنرى ما إذا كانت هناك أدلة على الحرب المقدسة في العهد القديم أو الجديد، وما إذا كان المسيح نفسه قد تحدث عن الحرب أو القتال. أكاد أجزم أن معظم المسيحيين على دراية تامة بالآيات التالية:

"سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لَأَعِينِكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ" (إنجيل متى 5: 43-44).

"بَلْ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، وَأَحْسِنُوا وَأَقْرَضُوا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجُونَ شَيْئًا، فَيَكُونَ أَجْرُكُمْ عَظِيمًا، وَتَكُونُوا بَنِي الْعَلِيِّ، فَإِنَّهُ مُعْجَمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالْأَشْرَارِ" (إنجيل لوقا 6: 35).

يرى معظم الناس أن الآية السابقة تمثل توجيه الكتاب المقدس لمن يهاجمونهم، على الرغم من أنه، كما ذكرنا للتو، ليس هذا بالتأكيد ما مارسه أتباع الكتاب المقدس على مرّ التاريخ، ومن المرجح أن النصارى المتقدمين طبقوا الآيات التالية:

"لَأَيِّ أَقْوَالٍ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ. أَمَّا أَعْدَائِي، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَأَثُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا، وَادْبَحُوهُمْ قُدَّامِي. وَلَمَّا قَالَ هَذَا تَقَدَّمَ صَاعِدًا إِلَى أُورُشَلِيمَ" (إنجيل لوقا 19: 26-28).

"لَا تَطْطُوا أَبِي جِئْتُ لِأَلْقِي سَلَامًا عَلَى الْأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأَلْقِي سَلَامًا بَلْ سَيْفًا" (إنجيل متى 10: 34).

"فَصَنَعَ سَوَاطٍ مِنْ جِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ، الْعَنَمَ وَالْبَقَرَ، وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَّارِفِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ، وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هُنَا! لَا تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ!" (إنجيل يوحنا 2: 15-16).

"إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَأُمَّرَاتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلَا يَفْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلْمِيذًا" (إنجيل لوقا 14: 26).

ذكرت هذه الآيات هنا بدافع الرد على الادعاء أن النصرانية لا تتضمن نصوصًا تدعو إلى العنف أو الكراهية بين ثناياها، ولا تحت إلا على المحبة والتسامح<sup>2</sup>. ويجتزئ هؤلاء المغرضون أنفسهم جزءًا من الآية القرآنية، ويخرجونه عن السياق، لإقناع الأبرياء بأن الإسلام لم يأت إلا بالكراهية والعنف.

وبالنظر إلى العهد القديم، نجد مزيدًا من الآيات التي تأمر بالقتل والنهب وحتى الاغتصاب، كل ذلك باسم الرب.

<sup>1</sup> كول، خوان (Cole, J) (23 أبريل 2013). الإرهاب والأديان الأخرى (Terrorism and the other Religions). مُقتبس من:

<https://www.juancole.com/2013/04/terrorism-other-religions.html>

<sup>2</sup> لاد، كرييس (Ladd, C). (31 ديسمبر 2014). أي الأديان هو الأكثر عنفًا؟ (Which religion is the most violent). واشنطن تايمز. مُقتبس

من: <https://www.washingtontimes.com/news/2014/dec/31/which-religion-most-violent/>.

"قَالَانَ أَقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الْأَطْفَالِ، وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةٍ ذَكَرٍ أَقْتُلُوهَا، لَكِنْ جَمِيعُ الْأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْهُوهُنَّ لَكُمْ حَيَاتٍ" (سفر العدد 31: 17-18).

زعم البعض أن هذه كانت وصية الله ﷺ لموسى ﷺ فيما يتعلق بالفلسطينيين الكفار الذين احتلوا الأرض المقدسة الموعودة لبني إسرائيل، وجاء أيضاً:

"حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَنْ لَا يَطْلُبُ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ يُقْتَلُ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ" (سفر أخبار الأيام الثاني 15: 13).

وبصفتنا مسلمين، ندعو الجميع إلى العودة والنظر في سياق هذه الآيات ودراستها لفهمها، كيف يأمر الله ﷻ الذي يوصف بالمحبة والرحمة، بقتل النساء والأولاد الأبرياء؟

ستكشف المراجعة الدقيقة للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم عن المزيد من أوامر الحرب والقتل واستعباد الناس ومصادرة الأموال. وليس الغرض من هذا الكتاب تحليل هذه النصوص أو الأسئلة اللاهوتية التي تثيرها هذه الكتب أو انتقاد الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، بل الهدف من هذه المراجعة هو إظهار الحقيقة للباحثين الصادقين الذين يسعون إلى فهم الدين على حقيقته الناصعة، ومن ثمّ أدعو القارئ غير المتحيز إلى مقارنة هذه الأوامر الموجودة في العهد القديم، وكذلك الآيات المذكورة آنفاً على لسان عيسى، بآيات من القرآن تأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم عند التعرّض للظلم والعدوان ونصرة الأمم المقهورة.

### لماذا يُصور الإسلام على أنه مرتبط بالعنف دائماً؟

ها نحن نأتي إلى موضوع وسائل الإعلام وقدرتها العجيبة على تركيز انتباه الجماهير على قضايا أو موضوعات بعينها، وهذا يطرح السؤال التالي: كيف نحكم على أي دين من الأديان؟

وفيما يتعلق بمدى قدرة وسائل الإعلام على تركيز انتباه الجماهير على شيء معين أو صرف اهتمامهم عنه، تأمل الحقائق التالية:

- تصدرت دول أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي العالم من حيث معدلات الجريمة والعنف خلال معظم سنوات العقود الماضية، وتشمل الدول الخمسة التي أبلغت عن أعلى معدلات جرائم القتل على الصعيد الدولي في عام 2017 السلفادور وهندوراس وجامايكا وسانت كيتس وفنزويلا، وفي عام 2016، ثبت أن 43 مدينة من بين أعنف 50 مدينة في العالم تقع في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي<sup>1</sup>.
- يعتقد معظم الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع أن مشكلة التحرش بالأطفال والاعتداء الجنسي عليهم تقتصر في المقام الأول على الأبرشية الكاثوليكية، في حين أنها في الواقع مشكلة تشمل كل الطوائف المسيحية في

<sup>1</sup> موجه، روبرت وآخرون (Muggah, R. et al.) (14 مارس 2018). أمريكا اللاتينية هي المنطقة الأكثر خطورة في العالم، ولكن هناك مؤشرات على أنها تتحول إلى شبه احتكار. *Latin America is the World's Most Dangerous Region. But there are Signs it is turning a Corner*. مُقتبس من: <https://www.weforum.org/agenda/2018/03/latin-america-is-the-worlds-most-dangerous-region-but-there-are-signs-its-turning-a-corner>



أمريكا، وكذلك الديانات الأخرى<sup>1</sup>.

- تمتلك الولايات المتحدة أكبر عدد من الأسلحة المملوكة للأشخاص في العالم<sup>2</sup>. فقد بلغ عدد الأسلحة النارية المملوكة للمدنيين في الولايات المتحدة، حسب تقديرات عام 2017، 120.5 سلاحًا لكل 100 مواطن، ما يعني أن عدد الأسلحة النارية تفوق عدد المواطنين. واحتلت اليمن المرتبة الثانية في العالم، وهي دولة ذات أغلبية مسلمة شبه فاشلة مزقتها الحروب الأهلية، وبلغ فيها عدد الأسلحة 52.8 سلاحًا لكل 100 مواطن، أو أقل من نصف نسبة الأسلحة في الولايات المتحدة<sup>3</sup>! وفي الواقع، هناك دولتان فقط من الدول ذات الأغلبية المسلمة في قائمة أعلى عشرين دولة من ناحية الأسلحة النارية التي يمتلكها المواطنون<sup>4</sup>.
- مقابل كل أمريكي قُتل في عمل إرهابي داخل الولايات المتحدة أو خارجها في عام 2014، لقي أكثر من 1,049 مصرعهم بسبب الأسلحة الخاصة<sup>5</sup>.
- وفقًا لتقرير صادر عن المركز الوطني الأمريكي لمكافحة الإرهاب<sup>6</sup>، في الحالات التي يمكن فيها تحديد الانتماء الديني لضحايا الإرهاب، عانى المسلمون ما بين 82 و97% من عدد القتلى خلال السنوات الخمس الماضية، والمسلمون أكثر عُرضة لخطر الإرهاب بمقدار سبعة أضعاف غير المسلمين.
- يفيد مؤشر الإرهاب العالمي أنه بين أعوام 2001 و2015، وقعت 75% من الوفيات الناجمة عن الهجمات الإرهابية في الدول ذات الأغلبية المسلمة، ووقعت معظم الهجمات، بنسبة 98%، خارج الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، على الرغم من هيمنة هذه الدول على دورة الأخبار<sup>7</sup>.
- على الرغم من سهولة التأكد من المعلومات التي ذكرتها للتو، يتبنى الناس وجهات نظر أخرى متعارضة، بسبب تسليط الإعلام الأضواء على قضايا معينة دون غيرها.
- ومن جانب آخر، يجب طرح الأسئلة التالية: كيف نحكم على أي دين من الأديان؟ وهل نحكم على الدين أم على الفكرة التي تقوم عليها تصرفات أقلية متطرفة، أم على النصوص المقدسة؟ وعلى كل حال، تأمل الأسئلة التالية:
- هل ينبغي وسم النصارى المعمدانين بالإرهاب لمجرد أن بعض طائفة المومنانيين حرّفوا نصوص كتبهم المقدسة لتأييد وتنفيذ العديد من تفجيرات عيادات الإجهاض التي قُتل فيها العديد من الأبرياء؟

<sup>1</sup> غير متوقّر (غير محدّد). خيانة النفس. ليس الكهنة وحدهم من يسبّبون إلى الصغار، فرجال الدين من جميع الأديان مذنبون بارتكاب سوء السلوك الجنسي مع الأطفال والبالغين. *Clergy of all faiths are guilty of sexual misconduct with children and adults*. مُقتبس من: [http://www.beliefnet.com/story/101/story\\_10199.html](http://www.beliefnet.com/story/101/story_10199.html) (*Soul Betrayal. It's not just priests who abuse youngsters*).

<sup>2</sup> يشكل الأمريكيون أقل من 5% من سكان العالم، ومع ذلك يمتلكون ما يقرب من 45% من جميع الأسلحة النارية الشخصية في العالم.

<sup>3</sup> <http://www.smallarmssurvey.org/weapons-and-markets/tools/global-firearms-holdings.html>

<sup>4</sup> لوبيز، جيرمان (Lopez, G). (29 أغسطس 2018). أمريكا هي واحدة من 6 دول تتسبب في أكثر من نصف الوفيات الناجمة عن الأسلحة النارية في جميع أنحاء العالم. *America is one of 6 countries that make up more than half of gun deaths worldwide*. مُقتبس من:

<sup>5</sup> باور، حواء (Bower, E). (3 أكتوبر 2016). الوفيات الأمريكية بسبب الإرهاب مقابل العنف المسلح في رسم بياني واحد. *American deaths in terrorism vs. gun violence in one graph*. مُقتبس من: <https://edition.cnn.com/2016/10/03/us/terrorism-gun-violence/index.html>

<sup>6</sup> <https://fas.org/irp/threat/nctc2011.pdf>

<sup>7</sup> <http://economicsandpeace.org/wp-content/uploads/2015/11/Global-Terrorism-Index-2015.pdf>

• هل ينبغي وصم النصرانية بأنها أيديولوجية عنصرية لمجرد أن جماعة "كو كلوكس كلان" (Ku Klux Klan) تحرق الصليبان وتستنشهد بالكتاب المقدس لتأييد أعمال العنف والقتل بدوافع عنصرية؟

• بما أنّ مئات الآلاف من الأطفال الأبرياء قد تحطمت طفولتهم وصباهم إلى الأبد بسبب الاغتصاب والاستغلال والاعتداء الجنسي الذي عانوا منه على أيدي رجال الدين النصارى، فهل تسوّغ لنا هذه الحقيقة المرة الادعاء بأن غالبية النصارى يتحرشون جنسياً بالأطفال؟

• عُرف هتلر (Hitler) بالنصراني المتدين الذي عمل وفق مشيئة الرب، إذ قال: "أنا مؤمن بأنني أتصرف حسب مشيئة الخالق القدير، لأنني بالدفاع عن نفسي ضد اليهود أناضل عن مشيئة الخالق وإرادته"<sup>1</sup>. فهل ينبغي أن نلقي باللوم على الديانة النصرانية في أعداد القتلى التي لا حصر لها وجرائم الحرب التي أمر هتلر بارتكابها؟

• من وجهة النظر العلمانية، هل جميع الأمريكيين مسؤولون عن إبادة 200 ألف نسمة من النساء والأطفال والرجال الأبرياء جرّاء القنابل النووية التي أُلقيت على هيروشيما وناجازاكي؟ فنحن- الأمريكيين- نقول مرارًا وتكرارًا: إن الحرب ينبغي أن تكون بين الجيوش، ولا نرضى باستهداف المدنيين الأبرياء إطلاقاً، ومع ذلك، ظن بعض الناس أن قتل هذا العدد الكبير من المواطنين سيكسر إرادة اليابانيين، ويدفعهم إلى الاستسلام<sup>2</sup>.

نجد في معظم الأديان والثقافات المبدأ الذي يقول: "من كان بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة"، والآن تأمل نفسك، هل كنت ترمي المسلمين بالاتهامات والافتراءات وتتجاهل المذابح والجرائم التي ارتكبت باسم الدين؟

لكن سيقول بعض الناس إن الأشخاص المذكورين أنفأ تصرفوا من تلقاء أنفسهم، بينما ترى المسلمين في كثير من الأحيان على شاشات التلفاز يستشهدون بأيات من القرآن لتبرير جرائمهم بعد ارتكاب أي عمل من أعمال العنف. وأكرّر مرة أخرى أن دعاة العنف غير المبرر لا يختلفون عن مفجري عيادات الإجهاض الذين يستشهدون بنصوص من الكتاب المقدس لتأييد أفعالهم، أو أقوال الباباوات المتعاقبين إبان الحملات الصليبية، أو المذهب الفكري لجماعة "كو كلوكس كلان".

تأمل الاقتباس التالي المأخوذ من كتاب الحملة الصليبية الأولى: شهادات شهود العيان والمشاركين<sup>3</sup>. في نوفمبر من عام 1095، استهلّ البابا أوربان الثاني المحاولة الأوروبية الأولى لاستعمار العالم الإسلامي، والمعروفة في الغرب باسم "الحملات الصليبية"، وقد نُقل عنه العبارات التالية (العبارات الموضوعية بالخط العريض للتأكيد فحسب):

"إذ يجب أن تسرعوا إلى مساعدة إخوتكم في الشرق، أولئك الذين يحتاجون إلى نجاتكم التي طلبوها كثيرًا، فقد هاجمهم الأتراك وشعب الفرس [يشير هنا إلى الدول المسلمة]. وأتوسل إليكم باسم الرب- بصفتمكم

<sup>1</sup> هتلر، أدولف (Hitler, A). (1998). كفاحي (*Mein Kampf*) (ترجمة رالف مانهايم (R. Manheim)). شركة هوتون ميغلين.  
<sup>2</sup> كوان، إريك كو بينغ (Kuan, E.K.P). (10 أغسطس 2010). هل كان من الضروري إلقاء القنابل الذرية؟ (*Was the dropping of the atomic bombs necessary?*) مُقتبس من: <https://japantoday.com/category/features/opinions/was-the-dropping-of-the-atomic-bombs-necessary>

<sup>3</sup> *The First Crusade: the Accounts of Eye-Witnesses and Participants*

مبشرين للمسيح أن تستحثوا جميع الرجال، وتفتنوعهم مهما كانت منازلهم، سواء أكانوا من النبلاء أم من عامة الناس، أغنياء أم فقراء، بأن يسرعوا إلى إبادة هذا الجنس الوضيع من أراضي إخوانكم، فالمسيح يأمركم بهذا. وكل من يموت في الطريق، سواء في البر أو البحر، أو في معركة ضد الكفار، ستغفر له خطايا. فيا له من عار أن ينتصر أصحاب هذا الجنس الوضيع المهين الذين يعبدون الشياطين على شعب يؤمن بالرب القدير وممجد باسم المسيح! فدعوا أولئك الذين اعتادوا قتال المؤمنين يقاتلون ضد الكفار، وينتصرون عليهم، ودعوا أولئك الذين كانوا قطاع طرق لزمن طويل أن يصبحوا فرساناً للمسيح، ودعوا أولئك الذين قاتلوا الإخوة والأقارب يقاتلون الآن هؤلاء البربريين. دعوهم ينطلقون بحماسة في رحلتهم بتوجيه من الرب<sup>1</sup>.

نرى في هذا الاقتباس العديد من العبارات التي لو نطق بها أهل ديانات أو ثقافات أخرى لتعرضوا للإدانة الشديدة؛ حيث يصف البابا أوربان الثاني المسلمين هنا بالكفار والبربريين، ويأمر شعوب أوروبا النصرانية بمغادرة أراضيهم واستئصال المسلمين باسم المسيح وبإذنه. ويمضي الكتاب كذلك في وصف مشهد نهاية معركة القدس عندما هزم الصليبيون المسلمين.

"وإذا كنت ترغب في معرفة ما فعلناه بالأعداء الذين واجهناهم هناك، فاعلم أنه في رواق سليمان وهيكله [المنطقة المعروفة باسم جبل الهيكل]، خاض رجالنا في دماء السراسنة [مصطلح مهين للمسلمين] حتى بلغت منتصف قوائم الخيول".

عندما احتل الصليبيون القدس في الخامس عشر من يوليو 1099، والذين عُرفوا أيضاً باسم "الفرسان المسيحيين"، قتلوا أكثر من 60 ألف من السكان اليهود والمسلمين بوحشية. وقد أدلى أحد الشهود بشهادته على النحو التالي:

"... هناك [أمام هيكل سليمان] وقعت مذبحة عظيمة حيث كان جنودنا يخوضون في دماء أعدائنا حتى بلغت كواحلهم، وبعد ذلك، انطلق الجنود "سعداء قريري الأعين" نحو قبر مخلصنا لتمجيدته، والتعبير عن شكرهم وامتنانهم له".

ينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه لم ينج أحد من هذه المذبحة من جانب المسلمين، أو اليهود الذين كانوا تحت حماية المسلمين في ذلك الوقت، فلم يبق الغزاة النصارى المعتدون رضيعاً ولا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً، بل سقط جميعهم تحت أسنة سيوف الفرسان المسيحيين الذين ذهبوا بعد ذلك ليقدموا "الشكر" أمام قبر المسيح. فهل نحكم على النصرانية بسبب هذه الأحداث المأساوية؟ بالطبع لن يوافق أي نصراني، ولا حتى غير نصراني منصف على هذا الطرح! إذن، من باب الإنصاف ألا يُحكم على الإسلام بأفعال الأقلية من المتطرفين الذين يقتلون الأبرياء باسم الله.

ثمة نقطة أخرى جديرة بالذكر وهي أن عمليات القتل والنهب التي تمت باسم النصرانية في معظم الحالات ابتدأتها الحكومات، وشرعتها الكنيسة وأيدتها، وهو ما يمكن أن نسميه "الإرهاب المؤسسي"<sup>2</sup>. أما الأعمال التي تُرتكب باسم الإسلام؛ فغالباً ما تصدر من أفراد لا تؤيدهم حكومات معترف بها أو قيادة إسلامية معتبرة.

<sup>1</sup> كري، أوجست (Krey, A.C). (1921). الحملة الصليبية الأولى: شهادات شهد العيان والمشاركين (The First Crusade: the Accounts of Eye-Witnesses and Participants). برينستون، مطبعة جامعة برينستون.

<sup>2</sup> رايلي سميث، جوناثان (Riley-Smith, Jonathan). (1999). تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية. (The Oxford History of the Crusades). نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

## ماذا قال النبي ﷺ عن القتال والحرب؟

أودّ أن أكتفي بذكر دليل واحد لتلخيص هذه النقطة تحديداً؛ وهي وصية أبي بكر ﷺ -خليفة المسلمين الأول- التي أوصى بها قائد جيش المسلمين الذي أرسله إلى بلاد الشام؛ إذ تنبع هذه الوصية شكلاً ومضموناً من تعاليم النبي ﷺ:

"لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرَمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْفِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغْرِقْنَهُ، وَلَا تَغْلُنَّ، وَلَا تَجْبُنَّ" (موطأ مالك).

نستنتج من هذا الأثر الذي يتضمن عشر وصايا أن المسلم ملزم في حال الحرب والقتال ضد الأعداء بالتخلي بالرحمة تجاه البشر الأبرياء وغير المحاربين وتجاه البيئة والحيوانات. ولو اتبعت جميع الجيوش هذه التوجيهات النبوية في وقتنا الحاضر، لما حدث الدمار الواسع الذي تتسبب فيه الحروب الحديثة، بغض النظر عن الأطراف المتحاربة.

## هل يُدين الإسلامُ الإرهابَ في النصوص الدينية؟

يُؤمر المسلمون مرارًا وتكرارًا بأن يكونوا أهل قسط وعدل، وأن تكون أفعالهم موافقة للحق بعيدة عن الهوى والعواطف؛ فالمسلم الحق لا تكون تصرفاته مدفوعة بنار الانتقام أو مشاعر الكراهية، لأنه في هذه الحال سيكون مسؤولاً أمام الله ﷻ عن كل أفعاله، إذ يقول ﷺ في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اءِدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: 8).

في معرض تفسير هذه الآية، يقول الإمام الجليل القرطبي، العالم الأندلسي: "دلّت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم".

لا يؤمر المسلمون بأن يكونوا أهل قسط وشرف فحسب، ولكنهم مأمورون أيضاً بحفظ أيمانهم والوفاء بعهودهم ومواثيقهم مع الآخرين، وتلك حقيقة أثبتتها التاريخ الإسلامي في كل العصور، فلما أبرم النبي ﷺ صلح الحديبية مع مشركي مكة، نصّت إحدى بنود هذه المعاهدة على رد كل من أسلم من مكة ثم هاجر إلى المدينة يلتمس الحماية بين ظهراي المسلمين. وتوضح الفقرة التالية المقتبسة من كتاب الرحيق المختوم مدى صعوبة هذا القرار، ومع ذلك، نرى ثبات عزم النبي ﷺ على الالتزام به؛ لأنه أعطى عهده ومواثيقه باسم الله ﷻ.

"وبينما الكتاب يُكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل ﷺ، الذي كان قد أسلم قبل فترة وجيزة، يرُسُفُ في قيوده وقد بلغ منه الجهد والتعب مبلغًا كبيرًا. وأشفق النبي ﷺ وأصحابه عليه، وحاولوا تأمين إطلاق سراحه، لكنّ سهيل بن عمرو كان مصرًا على موقفه، فقال: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده. وقد كانت لحظة عصبية، فمن جهة، جعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ ولكن من جهة أخرى، كان الوفاء بالمعاهدة أيضًا ضروريًا، بل كان فوق كل الاعتبارات الأخرى. وامتلاً قلب النبي ﷺ شفقةً وطقًا؛ لأنه أراد أن يفي بعهده مهما كلفه الأمر، وواسى أبا جندل ﷺ قائلاً: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله؛ فلا نغدر بهم". وكان أبو جندل ﷺ في حال من الاستسلام الصامت، ثم رحل مكبلاً بقيوده"<sup>1</sup>.

حرّر أبو جندل بن سهيل نفسه فيما بعد وفرّ هاربًا، لكنه لم يستطع الذهاب إلى المدينة ليكون مع النبي ﷺ بسبب المعاهدة التي أبرمت، وبقي لعدة سنوات على ساحل البحر حتى نقض المشركون بعض بنود المعاهدة.

يجب التذكير بأن النبي ﷺ قد أعطى أيضًا توجيهاته للمسلمين بشأن التعامل مع الذين عقدوا العهود والمواثيق

<sup>1</sup> المباركفوري، صفي الرحمن (2008). الرحيق المختوم: سيرة رسول الله ﷺ. الرياض: دار السلام.

معهم، والدليل على ذلك قوله: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا<sup>1</sup> لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوَجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (رواه البخاري).

كما رُوي أن النبي ﷺ ما خطبَ حُطْبَةً إِلَّا قَالَ فِي حُطْبَتِهِ:  
"لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ" (رواه أحمد وغيره الكثير من رواية أنس بن مالك).

وبخصوص المسلمين الذين يعيشون في الغرب، بغض النظر عن البلد الذي يعيشون فيه أو الوطن الأم، وسواء أكانوا مواطنين أم مقيمين بطريقة قانونية أم غير قانونية، فهؤلاء سُمح لهم جميعًا بدخول بلادهم الجديدة بموجب ميثاق أمان متبادل، فكما أن ضباط الشرطة في تلك البلدان يتحملون مسؤولية قانونية وأخلاقية إزاء جميع المسلمين المقيمين في بلادهم، فإن المسلمين كذلك يتحملون مسؤولية قانونية ودينية وأخلاقية إزاء أرواح سكان تلك البلدان وممتلكاتهم، حتى وإن كانت تلك البلدان في حالة حرب مع المسلمين في مناطق أخرى من العالم. فالمسلمون الذين يعيشون في تلك البلاد مطالبون بالالتزام بالقانون في جميع الأمور التي لا تتعارض مع دينهم، ومن ثم يحرم عليهم السرقة والغش وتكدير السلم العام، فضلًا عن أنه يحرم عليهم العدوان على الأبرياء والممتلكات، والذي يصاحب معظم الأعمال الإرهابية.

النقطة الأخيرة التي يجب توضيحها هي أنه لا يجوز للمسلمين إعلان حرب بصفة فردية على غيرهم، كما يفعل بعض المسلمين على سبيل الخطأ في الوقت الحاضر. ففي الإسلام، يمثل النظام والبنية أهمية قصوى للحيلولة دون الفوضى التي نشهدها في بعض الأماكن هذه الأيام. وكما ذكرنا سابقًا، لا يخضع العالم الإسلامي اليوم لقيادة موحدة (الخلافة)، ومن ثم لا يجوز له إعلان الحرب على دولة أخرى، ولكن لا يعني ذلك أن المسلمين لا يؤذن لهم في الدفاع عن بلدانهم في حال تعرّضهم للعدوان، بل المحرم بشكل قاطع في الشريعة الإسلامية هو أن تعبر مجموعة صغيرة من الأفراد حدود دولة أخرى ذات سيادة بهدف مهاجمتها والاعتداء عليها.

وهكذا يتبين أن التصرفات المدفوعة بالعواطف الصادرة عن المتطرفين اليوم لا تستند إلى أساس في الإسلام، فالله ﷻ غفور رحيم، لكننا نقول بصوت عالٍ وبكل وضوح إن خرق المعاهدات، ونقض عهود الأمان مع الدول التي يعيش فيها المسلمون، وارتكاب جرائم القتل الخسيس للأبرياء وغير المحاربين- كل ذلك محرم تحريمًا قاطعًا في الإسلام ويؤدي بصاحبه إلى عقاب الله ﷻ في الآخرة.

ففي أوقات الفتنة والاضطراب أوصى النبي ﷺ المؤمنين بالأناة والتؤدة حتى تتكشف لهم الأمور، كما نصح بعدم التسرع في اتخاذ القرارات. وليس ثمة شك في أن القضايا الراهنة محيرة ومخيبة للأمل، ما يزيد من حتمية التراجع، وعدم التورط في أمور قد تهوي بأصحابها في جهنم.

<sup>1</sup> **المعاهد:** غير المسلم الذي أخذ من المسلمين عهدًا وموثقًا بالأمان، أو من أبرم معه المسلمون معاهدة.

## هل الإسلام دين تسامح؟

يتناول هذا الجزء الأخير من هذا الفصل أحد أكثر جوانب الإسلام التي يُساء فهمها؛ إذ تصفه العديد من الكتب والأبواق المغرضة بأنه دين بعيد كل البعد عن التسامح، وعاجز عن التعايش مع الأفكار التي لا تتفق معه، وعلى كل حال، سنعود إلى صفحات التاريخ لكي نفقد هذا الادعاء.

لكن أولاً: من الأهمية بمكان استعراض بعض الآيات القرآنية التي تدور حول تسامح الإسلام وتعايشه مع الآخرين:

قال الله ﷻ: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (سورة يونس: 99).

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (سورة النور: 54).

إن جميع البشر في الإسلام ليسوا سوى أسرة واحدة كبيرة، إذ يقول الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...} (سورة الحجرات: 13).

يؤكد الإسلام على حق الناس جميعهم -ومنهم المسلمون- في حرية الدين والعبادة في سلام وأمن، ويقر بحماية جميع دور العبادة (سواء أكانت معابد أم كنائس وأديرة أم مساجد)، ويأمر المسلمين بالدفاع عن حق حرية ممارسة الشعائر الدينية لجميع الناس.

قال الله ﷻ: {... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (سورة الحج: 40).

كما يُمنح اليهود والنصارى مكانة خاصة وميزة في الإسلام؛ إذ يخاطبهم القرآن بـ"أهل الكتاب"<sup>1</sup>. فاليهود والنصارى والمسلمون أهل أديان سماوية وكتب مقدسة منزلة من عند الله ﷻ؛ بها من الروابط الوثيقة والقواسم المشتركة ما بها.

قال الله ﷻ: {... وَتَلَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...} (سورة المائدة: 82).

والآن دعونا ننتقل إلى التاريخ، ونسرد أمثلة على تعامل المسلمين مع الأديان والشعوب الأخرى حينما كانت الغلبة والقوة في أيديهم. وأول شيء نتذكره في هذا المقام هو طريقة تعامل النبي ﷺ مع النصارى الذين فُتحت بلادهم في حياته؛ إذ كانت الكلمات التالية المُقتبسة من عهده مع نصارى نجران (جزء من اليمن الحديث) أساس التصور الإسلامي للعلاقات مع الأديان الأخرى:

"...ونجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على: أنفسهم، وملتهم، وأرضهم وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعتهم [وصلواتهم]، [وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير]،

<sup>1</sup> لم تكن تستند معظم الأديان في زمن النبي ﷺ إلا إلى التعاليم الشفهية، ومن ثم حث القرآن المسلمين على القراءة والاطلاع؛ لأن اليهود والنصارى لديهم أيضًا كتبهم الدينية المكتوبة، وهي: التوراة والإنجيل، فقد أطلق عليهم اسم "أهل الكتاب".

وَأَلَّا يَغْيِرُوا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ بِغَيْرِ حَقِّ مِنْ حَقُّوقِهِمْ وَلَا مَلْتَهُمْ، وَلَا يَغْيِرُ أَسْقَفَ عَنْ أَسْقَفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٍ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ. وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دَنِيَّةٌ، وَلَا دَمٌ جَاهِلِيَّةٌ<sup>1</sup>."

كما أبرم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخليفة الثاني للمسلمين، معاهدة مماثلة مع أهل بيت المقدس بعد فتحها السلمي، وكان الذي قتله وهو يوم المسلمين في الصلاة بعد فتح القدس ببضع سنوات مجوسياً<sup>2</sup>، ومع ذلك ظل عمر رضي الله عنه يأمر خليفته أن يكون رحيماً بغير المسلمين وألا يسلبهم حقوقهم. وقد ورد في أصح كتب الحديث والتاريخ الإسلامي أنه قال: "وَأَوْصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، أَنْ يُؤْفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ"<sup>3</sup>.

ثمة مثال آخر على التسامح الديني على عهد النبي ﷺ: وهو توجيهه للمسلمين بحسن معاملة القبط النصارى في مصر، لكن مما يثير الاهتمام في هذا المثال أن الإسلام لم يكن قد دخل مصر بعد، ومن ثم تضمن الحديثان الآتيان وصية التسامح مع القبط، ونبوءة فتح مصر في الوقت ذاته؛ إذ قال النبي ﷺ:

"اللَّهُ فِي قِبْطِ مِصْرَ؛ فَإِنَّمَا سَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُونَ لَكُمْ عُدَّةً وَأَعْوَانًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (أخرجه الطبراني في الكبير، وصحه الألباني في السلسلة الصحيحة).

"إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَجَمًا" (رواه الحاكم في المستدرک، وصحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحه الألباني).

ظلت روح التسامح قائمة في بلاد المسلمين، وأثناء غزوات التتار المغوليين للأراضي الإسلامية، ذهب العالم والمحارب المسلم الشهير ابن تيمية كمبعوث إلى قتلغ شاه (Qutlugh-Shah)، أحد قادة التتار، للتفاوض معه بشأن تحرير جميع الأسرى، فوافق في البداية على إطلاق سراح الأسرى المسلمين، لكن ابن تيمية أصر على طلبه بتحرير جميع أسرى الحرب -قاصداً بذلك غير المسلمين الذين عاشوا في حماية دولة الإسلام- حتى أُلبي قتلغ شاه طلبه فيما بعد<sup>4</sup>. ومن الجدير بالذكر أن هذا العالم الجليل خاطر بحياته ومصير جميع الأسرى المسلمين لتأمين فك أسر غير المسلمين؛ لأنه كان يعلم أن هذا واجبه أمام الله ﷻ.

وفي سياق متصل، يذكر توماس وولكر أرنولد (T. W. Arnold) أنه بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية (إسطنبول الحالية) عام 1453 هـ، أعلن السلطان محمد الثاني نفسه حامي الكنيسة الإغريقية<sup>5</sup>؛ فحرّم اضطهاد النصارى، ومنح البطريرك الجديد -غيناديوس- مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة كل الامتيازات القديمة التي كفلها لهم العهد السابق، وفوضه بتوجيه انتباه الحكومة إلى أي مظالم يرتكبها الولاة

<sup>1</sup> يعقوب، أبو يوسف (1969). كتاب الخراج (ترجمة محرّرة). ليدن: إيفيرارد جان بريل.

<sup>2</sup> المجوسي: اسم آخر للذي يتبع الزرادشتية، وهي ديانة توحيدية حيث ترمز النار إلى مفهومهم عن الإله الواحد، الذي يسمونه "أهورا مزدا"، وكانوا يتعبدون في معابد النار.

<sup>3</sup> حميد الله، محمد (Hamidullah, M). (1945). تدبير الدولة في الإسلام (Muslim Conduct of State). مُقتبس من:

<https://archive.org/details/MuslimConductOfStateDr.MuhammadHamidullah/page/n11>

<sup>4</sup> إيجل، دبنيس (Denise Aigle). (2007). الغزوات المغولية لبلاد الشام لغازان خان وفتاوى ابن تيمية الثلاث ضد المغول (The Mongol Invasions of Bilād Al-Shām by Ghāzān Khān and Ibn Taymīyah's Three "Anti-Mongol" Fatwas). مراجعة الدراسات

المملوكية. 11.2: 120-89، مُقتبس من: [http://mamluk.uchicago.edu/MSR\\_XI-2\\_2007-Aigle.pdf](http://mamluk.uchicago.edu/MSR_XI-2_2007-Aigle.pdf)

<sup>5</sup> أرنولد، توماس وولكر (Arnold, T.W). (1896). الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية (The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith). مُقتبس من:

[http://www.truthandgrace.com/The\\_Preaching\\_of\\_Islam.pdf](http://www.truthandgrace.com/The_Preaching_of_Islam.pdf)



المسلمون في حق النصارى.

ويقدم المؤلف النصراني بيير بايل (P. Bayle) الملاحظة التالية فيما يتعلق بالكنيسة الإغريقية في قاموسه تحت عنوان: "محمد: مقتطف من القاموس التاريخي والنقدي":

"لم يُؤمر النصارى بأي شيء سوى الوعظ والإرشاد، ومع ذلك، فإنهم منذ العصور الغابرة يعملون على إبادة كل من ليس على دينهم بالنار والسيوف. ونحن على يقين بأنه لو حقق النصارى الغربيون، لا السراسنة والأتراك [اسمان أطلقهما الأوروبيون على المسلمين]، السيادة على آسيا، لما وُجد أثر للكنيسة الإغريقية اليوم، ولما تسامحوا أبداً مع [الإسلام] كما تسامح "الكفار" مع النصرانية هناك، بل نحن (النصارى) لنا السبق والتميز في فن القتل والقصف وإبادة الجنس البشري!".

كما يجب ألا ننسى التسامح وحسن النية الذي أبداه المسلمون إزاء الشعب اليهودي، إذ أدلى العديد من المؤرخين غير المسلمين، بعد مراجعة التاريخ اليهودي، بملاحظات إيجابية حول تسامح المسلمين مع اليهود الذين عاشوا في ظل حكمهم وتحت رعايتهم، فعلى سبيل المثال: كتب دون بيرتس (Don Peretz)، الباحث في شؤون الشرق الأوسط والأستاذ الفخري بجامعة ولاية نيويورك في بينغهامتون قائلاً: "إن الفتوحات الإسلامية في القرن السابع لاقت ترحيباً من جانب اليهود؛ لأنها كفلت لهم التسامح الديني"<sup>2</sup>. وأضاف أن اليهود عُيّنوا في مناصب عليا بالدولة الإسلامية كدليل على هذا التسامح. كما يذكر كتاب تاريخ العالم الحيّ (Living World History) لمؤلفيه وولبانك (Wallbank) وشريير (Schrier) أن الشعوب التي فتحها المسلمون "كانت تلقى منهم معاملة اللين والرفق"<sup>3</sup>. وتستشهد العديد من الكتب بالطبيب والعالم اليهودي الجليل موسى بن ميمون (Maimonides) كنموذج لليهود الذين كان لهم شأن ومكانة عظيمة في عهد الحكومات الإسلامية.

أشار عالم آخر غير مسلم، وهو مارك كوهين (Mark Cohen)، مؤرخ بجامعة برينستون، في إحدى خطبه إلى أنه على الرغم من حالة عدم الاستقرار السياسي التي يشهدها الشرق الأوسط في الوقت الراهن، والتي شوّهت صورة اليهود بين المسلمين، وأدت إلى ظهور الحركات الصهيونية المعادية للإسلام، لا يوجد عداً متأسلاً بين الديانتين، وأضاف قائلاً:

"ليس لمعاداة السامية التي تُفهم على أنها اضطهاد غير مبرر لليهود أساس في الإسلام الحنيف... وثمة أمثلة من التاريخ تبين كيف تمتع اليهود بالحماية في ظل الحكم الإسلامي، في حين عانى اليهود الذين كانوا تحت نفوذ النصارى في العصور الوسطى من التهميش في أحسن الأحوال، والإقصاء في كثير من الأحيان، بل كان اليهود تحت حكم الهلال في وضع أفضل مما كانوا عليه تحت سلطان الصليب"<sup>4</sup>.

ومن يذهب إلى البلدان ذات الأغلبية المسلمة سيرى الكنائس والمعابد اليهودية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الحكم الإسلامي، وحتى قبل بعثة النبي ﷺ؛ فكيف حمى المسلمون دور العبادة هذه أثناء نشر الإسلام؟ وكيف

<sup>1</sup> بايل، بيير (P. Bayle). (1826). قاموس تاريخي ونقدي (An Historical and Critical Dictionary). لندن: هانت وكلارك. مُقتبس من: <https://archive.org/details/anhistoricaland01baylgoog/page/n8>

<sup>2</sup> بيرتس، دون (Peretz, D). (1990). الشرق الأوسط (The Middle East). بوسطن: شركة هوتون ميغلين.  
<sup>3</sup> وولبانك، توماس وولتر (Wallbank, T.W) وشريير، أرنولد (Schrier, A). (1982). تاريخ العالم الحيّ (Living World History). جلينفير، إلينوي: سكوت فورسمان.

<sup>4</sup> جايب، جيسي (Gabe, J). (2004). اليهود تحت حكم الهلال في وضع أفضل مما كانوا عليه تحت سلطان الصليب (Jews fared better under the Crescent than the Cross). مُقتبس من: [http://ctr.concordia.ca/2004-05/oct\\_21/11/index.shtml](http://ctr.concordia.ca/2004-05/oct_21/11/index.shtml)

بقي النصارى واليهود أحياء في هذه البلاد، إذا كان المسلمون مأمورين بقتل كل من لا يتبع رأيهم أو دينهم، كما يدعي بعض الناس؟ وما عليك إلا أن تقارن هذا بمحاكم التفتيش التي أذاقت المسلمين الويلات في بلاد الأندلس، وبالحملة الصليبية التي سفكت دماء الآلاف من المسلمين الأبرياء، وحينئذ ستدرك أن التسامح في صورته الناصعة الصافية وحرية الدين والتعايش السلمي من الأسس العملية التي قام عليها الدين الإسلامي على مدار ما يربو على ألف وأربعمائة عام.

## كلمة موجزة عن أحداث 11 سبتمبر

لن يشك أحد أن العالم قد تغير إلى الأسوأ صباحة يوم 11 سبتمبر المُفجع من عام 2001، ولا يختلف المسلمون وغيرهم في هذه الحقيقة، وأريد في هذا المقام نقل فحوى رسائل المسلمين ومناقشة بعض الأمور المتعلقة بهذا الموضوع الخطير.

أولاً: أحس المسلمون وغيرهم في جميع أنحاء العالم بصدمة جارفة إزاء هذه الأعمال الخسيسة المنحرفة، بل شعر المسلمون في البلدان المسلمة وفي الغرب على حد سواء بعميق الأسى والحزن على دينهم الذي اختطفه الإرهابيون وشوهوا صورته. ولكي ندلل على هذا الموقف، أجرى مركز "بيو" للأبحاث استطلاعاً للرأي عام 2013 لكي يستطلع آراء المسلمين في جميع أرجاء العالم عما إذا كانت الاعتداءات على المدنيين مبررة، فأفاد 72% من المسلمين الذين شاركوا في الاستطلاع أن العنف ضد المدنيين "غير مبرر على الإطلاق"، وأبدى 81% من المسلمين في الولايات المتحدة عدم رضاهم عن هذا العنف<sup>1</sup>. كما أفاد استطلاع مؤسسة "زغبي" لعام 2010 أن 69% من المسلمين الأمريكيين يؤيدون سن قوانين أكثر صرامة لمكافحة الإرهاب<sup>2</sup>. كما مدّ الكثير من المسلمين يد العون لضحايا الحادي عشر من سبتمبر وتفجيرات لندن اللاحقة من خلال التبرعات الخيرية التي قدموها، وسهر الليالي الطوال في خدمة الضحايا، والتبرع بالدم في مراكز الصليب الأحمر<sup>3</sup>.

ويريد المسلمون في كل العالم أن تعرف جميع الشعوب غير المسلمة أنهم يقاسون أيضاً من ويلات الإرهاب في بلدانهم. وفي هذا الصدد، أظهرت دراسة أجراها مركز "بيو" للأبحاث عام 2005، وقد شملت أكثر من 17,000 شخص في 17 دولة، الاعتقاد المتزايد بين المسلمين أن التطرف الإسلامي شكّل تهديداً لبلدانهم<sup>4</sup>، وأن المتطرفين الذين يستغلون هذا الدين الحنيف بالباطل لدعم أعمالهم الخبيثة والإجرامية لا يمثلون إلا أقلية متشبثة برأيها تحظى بالتغطية الإعلامية الكبيرة لحاجة في نفس يعقوب؛ فهؤلاء المتطرفون تسببوا في إزهاق الأرواح البريئة، وعاثوا فساداً في أماكن متفرقة من العالم: كالمملكة العربية السعودية والعراق وباكستان وإندونيسيا والمغرب ومصر؛ ما جعل إخوانهم من المسلمين -لا سيما الملتمزمين منهم- محل شبهة حتى في بلدانهم.

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن أكثر من أربعة ملايين مسلم يعيشون في الولايات المتحدة، بينما يعيش نحو ثلاثة ملايين مسلم في المملكة المتحدة، حيث يمثل الإسلام ثاني أكبر ديانة. والغالبية العظمى من هؤلاء المسلمين القاطنين بهدين البلدين مواطنون ووافدون مسالمون لطفاء مهذبون يسهمون في بناء المجتمع في جميع المجالات، ويبدلون قسارى جهدهم لجعل مدنهم ودولهم أماكن أفضل للعيش فيها، بل يعمل مؤلف هذا الكتاب نفسه طبيياً كرس أكثر من اثني عشر عاماً من حياته للدراسة الجامعية والدراسات العليا في مجال الطب لبث الأمل وعلاج المرضى الذين كان معظمهم من غير المسلمين.

<sup>1</sup> How US Muslims are different: Pew poll sheds light on global contrasts - CSMonitor.com

<sup>2</sup> زغبي، جون (J. Zogby). (26 أغسطس 2010). المسلمون الأمريكيون يمتلكون قيماً سائدة ( American Muslims Have Mainstream Values). مُقتبس من: <https://www.forbes.com/2010/08/26/muslims-polls-mosque-opinions-columnists-john-zogby.html#581c10e6648f>

<sup>3</sup> يومانس، ميريديث (Yeomans, M). (11 أكتوبر 2015). الجالية المسلمة في أرلينغتون تبرع بالدم لضحايا 11 سبتمبر (Arlington Muslim Community Donates Blood for 9/11 Victims). مُقتبس من: <https://wwCommunity-Donates-Blood-For-911-Victims-331945041.html>

<sup>4</sup> <http://www.pewglobal.org/2005/07/14/islamic-extremism-common-concern-for-muslim-and-western-publics>

يريد كل هؤلاء المسلمين إيصال الرسالة التي مفادها أنهم يشعرون ببالغ الأسف حيال كل الفظائع والأسى الذي تجرّعه جميع الناس في أمريكا أو المملكة المتحدة أو باريس أو أي دولة أخرى في العالم عقب الأفعال التي صدرت عن أولئك الذين يدّعون أنهم مسلمون ملتزمون. فكانت هذه الفترة عصيبة على جميع شعوب العالم بغض النظر عن دينهم. ومما زاد النار اشتعالًا وأجج مشاعر الكراهية تلك التعميمات السلبية المهينة التي أطلقت عن المسلمين، والتي كان يُرَوَّج لها غالبًا في محطات إخبارية معيّنة. ورغم مرور أكثر من عقد من الزمان على تلك الهجمات الإرهابية، لا يزال المسلمون متأثرين بها بدرجة كبيرة<sup>1</sup>، ومن المأمول أن تساعد هذه الرسالة الموجزة في سد الفجوة التي نشأت بين المسلمين وغيرهم من الشعوب الأخرى، وأن تكون بمثابة نقطة انطلاق للتفاهم والعمل المشترك لحل هذه المشكلة التي تمس جميع المجتمعات بغض النظر عن دينها.

### هل أخفق المسلمون في إعلان إدانتهم للإرهاب؟

إن تقصير المسلمين في شجبهم ورفضهم للإرهاب مغالطة صارخة تكررت في شبكات إخبارية معيّنة خلال السنوات القليلة الماضية، لكن السؤال الذي ينبغي طرحه هو: ما معيار إعلان الشجب والاعتراض الكافي عند هؤلاء القوم؟ للأسف لا نجد معيارًا واضحًا، على الرغم من أن المسلمين في جميع أنحاء العالم لم يلزموا الصمت حيال تلك الاعتداءات الإرهابية التي ارتكبت هنا وهناك، وإنما عبّروا عن جام غضبهم وشجبهم للهجمات الإرهابية التي وقعت في العالم منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما بعدها.

وإليك نماذج من التصريحات التي أدلى بها المسلمون فور أحداث الحادي عشر من سبتمبر:  
للعلم، أدان معظم الزعماء المسلمين، والمنظمات، والدول الإسلامية الهجمات اللإنسانية التي وقعت في 11 من سبتمبر بأشد العبارات. وقد أدلى رئيس المجلس الأعلى للقضاء في المملكة العربية السعودية بتصريحه الموجز الآتي: "يرفض الإسلام هذه الأعمال، ويحرم قتل المدنيين حتى في أوقات الحرب، لاسيما إذا لم يكونوا طرفًا في القتال؛ فالدين الذي يراعي البشر على هذا النحو لا يتغاضى بأية حال من الأحوال عن مثل هذه الأعمال الإجرامية التي يجب محاسبة مرتكبيها ومن يؤيدونها. وباعتبارنا مجتمعًا إنسانيًا، علينا أن نتحلى باليقظة والحرص على استباق هذه الشرور وتقاديها"<sup>2</sup>.

وإليك عينة أخرى من تصريحات المسلمين عقب تفجيرات لندن في 7 يوليو 2005:  
أدانت إحدى المنظمات الوطنية للحقوق المدنية والمناصرة الإسلامية التفجيرات التي وقعت صباح اليوم في لندن، ووصفتها بـ "الجرائم البربرية"، وأدلى مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (CAIR) والذي مقره واشنطن بالتصريح الآتي:

"إننا ننضم إلى الأمريكيين بكل أديانهم وأصحاب الضمير في جميع أنحاء العالم في إدانة هذه الجرائم الوحشية التي لا يمكن تبريرها أو التسامح معها. ويقدم المسلمون الأمريكيون خالص تعازيهم لأحبائهم الذين لقوا مصرعهم أو أصيبوا في الهجمات الإرهابية التي وقعت اليوم، ويطالبون بسرعة اعتقال المتورطين

<sup>1</sup> جاريجان، ماري (Garrigan, M). (11 سبتمبر 2011). مسلمو المنطقة متأثرون بشدة من جراء الهجمات (Area Muslims 'deeply affected' by attacks). مُقتبس من: [https://rapidcityjournal.com/area-muslims-deeply-affected-by-attacks/article\\_cf102b70-dc2f-11e0-8414-001cc4c002e0.html](https://rapidcityjournal.com/area-muslims-deeply-affected-by-attacks/article_cf102b70-dc2f-11e0-8414-001cc4c002e0.html)

<sup>2</sup> دودج (17 مارس 2017). إدانات المسلمين لأحداث الحادي عشر من سبتمبر (Muslim Condemnations of 9/11). مُقتبس من: <https://www.thoughtco.com/muslim-condemnations-of-911-2003741>

ومعاقبتهم<sup>1</sup>."

وأصدر المجلس الإسلامي البريطاني وجماعات إسلامية بريطانية أخرى إدانات مماثلة للهجمات، كما حثت المسلمين على تقديم المساعدة في جهود التعافي<sup>2</sup>.

وإليك عينة من تصريحات المسلمين بعد هجمات باريس 2015:

عقدَ ائتلاف يضم ثمانية كيانات إسلامية أمريكية وطنية ومحلية بارزة مؤتمراً صحفياً في واشنطن العاصمة لإدانة المذبحة... وقالت صبا أحمد، رئيسة ومؤسسة التحالف الإسلامي الجمهوري، في حوارها مع قناة إم إس إن بي سي: "إن الإرهابيين لا يمثلون الإسلام بأية حال"، وأضافت: "على تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" أن يعود إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة؛ فهم يتلاعبون بتعاليم الإسلام لتنفيذ الأعمال الوحشية المروعة التي لا تمت لهذا الدين بصلة، ويختطفون ديننا، وعليه، تدين الجالية المسلمة تلك الاعتداءات بشدة<sup>3</sup>."

وإذا راجعنا استطلاعات الرأي الأخيرة التي قيّمت آراء المسلمين بخصوص الجماعات الإرهابية، مثل داعش، فسنجد النتائج التالية؛ هكذا كما وردت من أحد استطلاعات الرأي التي أجريت في عام 2015: جمع مركز بيو للأبحاث، في 11 دولة يُوجد بها أعداد كبيرة من المسلمين، أشخاصاً من نيجيريا والأردن وإندونيسيا، وقد عبّروا بأغلبية ساحقة عن آراء سلبية عن داعش<sup>4</sup>.

وعلى الرغم من إدانة معظم المسلمين الغربيين لأعمال الإرهاب ومشاركتهم في جهود إعادة البناء، وجدوا أنفسهم في مرمى نيران الاتهامات والتمييز العنصري والمضايقات الأمنية وغيرها، وثبت ذلك في استطلاع أجراه معهد السياسة الاجتماعية والتفاهم (ISPU) في عام 2018، والذي شمل 2481 أمريكياً، تحت عنوان: "استطلاع المسلمين الأمريكيين لعام 2018: الكبرياء والتحيز"، وسجّل النتائج التالية:

رفض ثلاثة أرباع (76%) مسلمي الولايات المتحدة بأغلبية ساحقة العنف ضد المدنيين، مقارنة بنسبة 59% من الجمهور العام. وفيما يتعلق باستهداف المدنيين وقتلهم، أفاد 12% فقط من المسلمين أن مثل هذه الأعمال قد تكون مبرّرة في كثير من الأحيان أو في بعض الأحيان (بلغت هذه الأعداد 14% من الجمهور العام).

في الوقت نفسه، أفاد المسلمون على نحو غير متناسب بتعرّضهم للتمييز على أساس الدين، حيث قال 61% من المشاركين في الاستطلاع: إنهم واجهوا رهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا). ووافق 62% من المسلمين إما بشدة وإما إلى حد ما على عبارة "يربط معظم الناس الصور النمطية السلبية بهويتي الدينية". كما كانت المسلمات عُرضة للتمييز على أساس الدين؛ إذ قالت 75% من النساء المسلمات: إنهنّ تعرّضن للتمييز الديني، مقارنة بنسبة 40% من النساء بصفة عامة<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> [https://www.cair.com/cair\\_condemns\\_barbaric\\_london\\_terror\\_attacks](https://www.cair.com/cair_condemns_barbaric_london_terror_attacks)

<sup>2</sup> [http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk\\_news/4660411.stm](http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/4660411.stm)

<sup>3</sup> أتكينسون، خوري (Atkinson, K). (14 نوفمبر 2015). *Strongly condemn terror attacks in Paris*. مُقتبس من: <http://www.msnbc.com/msnbc/muslim-groups-strongly-condemn-terror-attacks-paris>

<sup>4</sup> <http://www.pewresearch.org/fact-tank/2015/11/17/in-nations-with-significant-muslim-populations-much-disdain-for-isis>

<sup>5</sup> كروندين، إيف (Crunden, E.A). (2 مايو 2018). *Muslims reject violence more than other Americans, but are increasingly targets of discrimination*. مُقتبس من: <https://thinkprogress.org/muslims-reject-violence-according-to-poll-421bda06027e>

## المرأة في الإسلام: بين الماضيين الدفين والمجيد، والحاضر الغامض

- ✓ يكرم الإسلام المرأة بصفاتها ابنة وأختًا وزوجًا وأمًا.
- ✓ منح الإسلام المرأة العديد من الحقوق الدينية والإنسانية (المساواة الدينية، وحق التملك، والحق في الميراث، والحق في الموافقة على الزواج، وما إلى ذلك) منذ مئات القرون، متفوقًا على المجتمعات الأخرى، العلمانية والدينية على حد سواء.
- ✓ لا يبيح الإسلام للرجال ضرب زوجاتهم، ويدين هذه الممارسة.
- ✓ لا يحث الإسلام على مجرد تعليم المرأة، بل يشترط ذلك، لا سيما تعليمها الأمور الدينية.
- ✓ يمنح الإسلام المرأة حق أداء الصلاة في المسجد إذا كانت ترغب في ذلك، ويحرم على الرجال منعها من ممارسة هذا الحق.
- ✓ يوثق التاريخ الإسلامي منذ بدايته سير العديد من العالمات اللاتي أسهمن في نشر الإسلام والحفاظ على صفاء تعاليمه.

### مقدمة

لا يزال دور المرأة ومكانتها في الإسلام من الموضوعات الأكثر إثارة للجدل والفضول، وكثيرًا ما يثير اقتران اسم المرأة بالإسلام صور النساء المحجبات المنقادات في الصحراء، اللاتي تقتصر مهمتهن في الحياة على إمتاع أزواجهن. وفي الآونة الأخيرة، أصبحت هذه العبارات مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالقمع والعنف الأسري وصور الخضوع البربرية. كما تركز التغطية الإعلامية على الصور المشوهة للمرأة المسلمة، ويوجه خصوم الإسلام انتقاداتهم، ويدعون أنه يجسد كل ما هو معادٍ للمرأة في نظرهم. وفي حين أن هناك مناطق كثيرة من العالم، حتى في الوقت الحاضر، لا تتمتع فيها المرأة بأي صورة من صور المساواة الحقيقية مع الرجل، تُسلط الأضواء على المرأة المسلمة باعتبارها نموذجًا للقمع والإهانة التي تتبع من أصل تعاليم دينها.

وترجع العديد من هذه التصورات المغلوطة وغيرها حول مكانة المرأة في الإسلام إلى الممارسات الثقافية في تلك البلدان التي يهيمن عليها المسلمون الرجال، وليس لها علاقة تُذكر بالتعاليم الإسلامية الحنيفة. فلقد كانت الصحاري القاسية يشبه الجزيرة العربية في القرن السابع الموطن الذي رسخ كرامة المرأة ومكانتها بعد نزول الآيات القرآنية من قبيل قول الله ﷻ:

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (سورة التوبة: 71-72).

{... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (سورة البقرة: 228).

وقد شاع من أحاديث النبي ﷺ النور الجديد الذي أبرز مكانة المرأة، ودفع الرجال إلى إعادة النظر في موقفهم إزاء النساء عامة؛ إذ علم النبي أصحابه تلك الكلمات الذهبية:

"أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا. وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ" (صحيح الترمذي).  
وسنوضح في هذا الفصل الدور الحقيقي للمرأة في الإسلام من خلال الدراسة المفصلة للنصوص الإسلامية،  
مع استطرادات موجزة من حين لآخر لتوضيح الجوانب الثقافية التي حلت محل الممارسات الدينية الصحيحة  
في حياة المسلمين.

وقبل مناقشة هذا الموضوع، من الضروري أن نتناول بعض النقاط الأساسية، أولاً: عند فهم دور المرأة في  
الإسلام، يحاول كثير من الناس مقارنة التعاليم الإسلامية بالأعراف الاجتماعية العلمانية الحديثة، معتقدين  
على سبيل الخطأ أن هذه الأعراف تعود إلى تعاليم يهودية مسيحية، ولكن غاب عنهم أن المجتمع المعاصر  
تحرّر من معظم التعاليم اليهودية المسيحية الخاصة بالمرأة منذ زمن بعيد، وفضّل عليها ممارسات علمانية أو  
لا دينية. وفي المقابل، لا تزال بعض المجتمعات المعاصرة تتمسك بالتعاليم الإسلامية الخاصة بالمرأة.  
وتحقيقاً لمبدأ الإنصاف، ستبدأ هذه الدراسة بمقارنة المجتمع الجاهلي الذي كان قائماً في شبه الجزيرة العربية  
قبل ظهور الإسلام بالمجتمع العلماني الحديث، ثم مقارنة الاتجاهات اليهودية المسيحية بموقف الإسلام من  
المرأة.

### المرأة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

كانت النظرة الدونية للمرأة التي ميّزت عالم القرن السابع الميلادي سائدة في المجتمعات الوثنية في شبه  
الجزيرة العربية قبل بعثة النبي محمد ﷺ، وكانت البيئة الاجتماعية في ذلك الوقت متأثرة بالصراعات القبلية،  
والحروب التي كانت تندلع لأتفه الأسباب، فضلاً عن أعمال النهب والفضوى العارمة التي كانت تقودها  
عصابات مسلحة من مختلف القبائل. وبالطبع كان وضع المرأة في هذه البيئة الاجتماعية المضطربة متدنياً  
دون أدنى شك. ومن المؤسف أن المصادر التاريخية التي تتحدث عن الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام في  
القرن السابع الميلادي محدودة للغاية، ولكن رغم الإجماع النسبي على جملة من الأمور والتفاصيل المتعلقة  
بهذه الفترة، يمكننا الاستدلال على العديد من هذه النقاط من القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي سجلت  
بعضاً من تلك المسائل.

على غرار التقاليد الهندوسية، كانت المرأة في الجاهلية تُعامل بازدراء منذ ولادتها كما اتضح ذلك من عادة  
العرب في وأدهم البنات قبل ظهور الإسلام. وكان ثمة اعتقاد شائع بينهم أن الأبناء الذكور هم أكرم وأنفع  
للأسرة؛ فسرعان ما يكبرون ليحاربوا الأعداء في الصراعات القبلية، وكان بوسع الذكور العمل في الضيعات  
والقوافل التجارية الخاصة بأسرهم. وفي السياق ذاته تضيف د. فريال سليمان قائلة:

"وكذلك نظرًا لأن الحروب القبلية كانت بطبيعتها شبه مستمرة في تلك الفترة، فقد كان العرب القدماء  
يفضّلون أخذ الأسرى وسبي النساء على الاستيلاء على الماشية والغنائم؛ لأن الأسرى والسبايا كانوا أكثر  
فائدة لهم؛ حيث كان بإمكانهم طلب فدية كبيرة مقابل الإفراج عن الأسرى، أو استبدال الأسرى والسبايا  
بأسراهم. وكان من المزايا الأخرى للسبايا نكاحهن دون تقديم المهور، وإنجاب مزيد من الأبناء؛ حتى يكثر  
أفراد القبيلة، وتزداد منعتها وقوتها، الأمر الذي من شأنه أن يُعلي مكانتها بين القبائل الأخرى. وإذا سُببت  
النساء، كان ذلك بمثابة العار والمذلة التي لحقت بأقوامهن، ولذلك كان الهدف الرئيس للرجال في بعض  
الأحيان سبي نساء العدو لإلحاق العار بقبيلته وإذلالها... وقد وصل الأمر إلى أن بعض النساء كنّ يفضّلن

## الموت على الأسر<sup>1</sup>.

وكان بعض الآباء يدفعون بناتهم الصغيرات أحياءً في رمال الصحراء المقفرة، خشية الفقر والعار أمام قومهم، وقد استنكر الله ﷻ عليهم هذه الفعلة البغيضة؛ إذ قال ﷻ:

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (سورة النحل: 58-59).

ومن المآسي الاجتماعية التي عانت منها المرأة قبل الإسلام حرمانها من الميراث، سواء أكانت ابنة، أم زوجة، أم أمًا، كما حُرمت من حق التملك أو حيازة الأموال، باستثناء بعض النساء اللاتي كنّ يتمتعن بمكانة اجتماعية رفيعة (مثل: السيدة خديجة ﷺ).

وكانت تُحسب المرأة الأرملة في كثير من الأحيان جزءًا من تركة زوجها التي يرثها ورثته الذكور، وفي هذه الحال غالبًا ما كان يتزوجها الابن الأكبر للرجل المتوفى والذي أنجبه من زوج أخرى<sup>2</sup>. وقد أبطل القرآن هذه العادة المهينة، إذ قال الله ﷻ:

{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} (سورة النساء: 22).

وإذا لم تُزوج الأرملة للابن الأكبر من زوجها المتوفى، كان لا بد أن يرثها شقيق زوجها، وهي ممارسة تُعرف باسم "زواج الأرملة من شقيق الزوج"، وقد أقرها الكتاب المقدس<sup>3</sup>. لكن حُرّم هذا الإرث القسري للمرأة في القرآن؛ إذ قال الله ﷻ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا...} (سورة النساء: 19).

وكان في الجاهلية يلقي أحد إخوة المتوفى ثوبه على المرأة، ويضمها في ملكه، ويدفع المهر الذي دفعه المتوفى<sup>4</sup>. ولم يكن يُسمح للأرملة بمغادرة بيت زوجها في أي من الحالتين، كما لم تستطع فسخ هذا النكاح حتى تفندي نفسها بنفسها<sup>5</sup>.

وكان أمر الطلاق بيد الزوج، فإذا قرر تطليق زوجته، كانت تُجبر على البقاء في بيته<sup>6</sup>. وفيما يتعلق بسهولة طلاق المرأة، والأسباب الباعثة على الاستياء والحنق وراءه، خلصت د. فريال سليمان إلى ما يلي:

<sup>1</sup> سليمان، فريال (Sulaimani, F. A). (1986). الموقف المتغير للمرأة في شبه الجزيرة العربية في ظل الإسلام خلال أوائل القرن السابع (The Changing Position of Women in Arabia under Islam during the Early Seventh Century). مُقتبس من: <http://usir.salford.ac.uk/14814/1/361089.pdf>

<sup>2</sup> نكاح المقت: أُطلق على هذا النكاح أيضًا اسم "نكاح الضيزن"، والذي يعني "نكاح المقت"، وكان الضيزن لقب دم يُطلق على الرجل الذي عقد هذا النكاح. وأتاح هذا النكاح للابن أن ينكح زوج أبيه بعد وفاة أبيه. (سليمان، فريال (Sulaimani, F. A). 1986، ص 24).

<sup>3</sup> "إذا سكن إخوةٌ معًا ومات واحدٌ منهم وليس له ابنٌ، فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجلٍ أجنبيٍّ. أخو زوجها يدخلُ عليها ويتخذها لنفسه زوجةً، ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لئلا يُمحى اسمه من إسرائيل. وإن لم يرَضِ الرجلُ أن يأخذ امرأة أخيه، تصعدُ امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول: قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل. لم يَشَأْ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج، فيذغوه شيوخ مدينتيه ويتكلمون معه، فإن أصرَّ وقال: لا أرضى أن أتخذها؛ تتقدم امرأة أخيه إليه أمام الشيوخ، وتخلع نعلها من رجله، وتبصق في وجهه، وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. فيُدعى اسمه في إسرائيل (بيت مخلوع النعل)" (سفر التثنية 25: 5-10).

<sup>4</sup> الطبري، محمد بن جرير. (دون تاريخ). تفسير الطبري.

<sup>5</sup> شاه، نيزان (Shah, N). (2006). المرأة والقرآن والقانون الدولي لحقوق الإنسان (Women, the Koran and International Human Rights Law). مارتينوس نيجهوف للنشر.

<sup>6</sup> علي، جواد. (1955). تاريخ العرب قبل الإسلام. العراق: مطبعة العلم. مُقتبس من: <http://www.alhasso.com/arab-history-1.pdf>.



"كان الطلاق أمرًا سهلًا؛ إذ كانت المرأة مجرد دمية في يدي زوجها؛ فكان بإمكانه التلاعب بمشاعرها وإذلالها وطلاقها ونكاحها مرة أخرى متى شاء، دون أن تتمكن هي من الدفاع عن نفسها وعن حياتها، بل وأكثر من ذلك، كان بإمكان الزوج قبل الإسلام منع زوجه المطلقة من النكاح مرة أخرى، والمساومة على صفقة مقابل موافقته على زواجها بأخر<sup>1</sup>."

كان هذا الازدراء بالمرأة وبحقها في العودة إلى بيت أهلها نتيجة عدم الاكتراث بالأسرة الأمومية، مقارنة بالأسرة الأبوية التي كانت تستحوذ على كل الاهتمام والعناية.

كما كان بعض الأطفال يولدون خارج إطار الزواج؛ نظرًا لانتشار المجون في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكانت إغارة الزوجة شائعة في المجتمع الجاهلي؛ حيث كان الأزواج يسمحون لزوجاتهم بمساكنة رجال يتميزون بالشجاعة أو النبيل، والحمل منهم لإنجاب ذرية من أصل نبيل<sup>2</sup>. وعند الزواج، لم يكن هناك حد لعدد الزوجات اللاتي يمكن للرجل أن يجمع بينهما في وقت واحد. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الرجال الأثرياء في قبيلة قريش كان من عاداتهم الزواج بعشر من النساء، وأحيانًا أكثر من ذلك<sup>3</sup>. ولم يكن للمرأة الاختيار أو الحق في رفض عقد النكاح؛ لأن قرار اختيار الزوج كان بيد وليها (الأب أو أكبر الأقارب الذكور في غيابها)، وأكّرر أن ذلك كان هو السائد ما لم تكن المرأة من طبقة اجتماعية ثرية، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن لها أن تفتت عليهم<sup>4</sup>.

وعلاوة على كل ما ذكرنا، كانت المرأة تتعرض في كثير من الأحيان للضرب المبرح في حالة نشوزها، وكانت معدومة الكرامة في معظم القبائل؛ حيث كان يُنظر إلى النساء على أنهن سلع جنسية تُجلب لإمتاع الرجال. وكان يُؤذّن لهن بارتداء الثياب الخفيفة التي تظهر مفاتهن حين يخرجن من بيوتهن، حتى عند أداء الشعائر والطقوس الدينية (مثل: الطواف بالبيت الحرام في مكة عراة<sup>5</sup>)، لغرض إمتاع الرجال وتسليتهم. وكان التعري المطلق من سمات الجواري في حين أن الحرائر كانت تتحاشى هذا الفعل الشنيع في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام<sup>7</sup>.

وعلى غرار المجتمعات القديمة الأخرى، سُمح لنساء الطبقة العليا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بتولي بعض المناصب العليا في المجتمع، وكان مفهوم الإلهة والكاهنة مقبولًا تمامًا لدى المجتمعات القبلية<sup>8</sup> (مثل: زوجة مسيلمة الكذاب التي ادّعت أنها نبيّة، واتبعتها بعض السذج من قومها). وقد اشتهرت أيضًا بعض النساء العربيات بأصواتهن الغنائية العذبة، والتي استخدمنها بكفاءة في الحروب للتعجيل بهزيمة الجيوش المعادية<sup>9</sup>. كما كنّ يتقاضين أجرًا مرتفعة (تدفع في أغلب الأحيان إلى "وكلائهم" الذكور) مقابل غنائهن، بل كنّ يُعطين

<sup>1</sup> سليمان، فريال (Sulaimani, F. A). (1986). الموقف المتغير للمرأة في شبه الجزيرة العربية في ظل الإسلام خلال أوائل القرن السابع (The Changing Position of Women in Arabia under Islam during the Early Seventh Century). مُقتبس من: <http://usir.salford.ac.uk/14814/1/361089.pdf>.

<sup>2</sup> المرجع السابق نفسه.

<sup>3</sup> علي، جواد. (1955). تاريخ العرب قبل الإسلام. العراق: مطبعة العلم. مُقتبس من: <http://www.alhasso.com/arab-history-1.pdf>.

<sup>4</sup> المباركفوري، صفى الرحمن (2008). الرقيق المختوم. الرياض: مطبوعات دار السلام.

<sup>5</sup> كما تشير بعض المصادر إلى أن الرجال كذلك كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة، ولكن لا يوجد إجماع على هذه النقطة، في حين جاء تأكيد مسألة تعري المرأة في الحديث الشريف [البخاري].

<sup>6</sup> الطبري، محمد بن جرير. (دون تاريخ). تفسير الطبري. [تفسير سورة الأعراف، الآية 28].

<sup>7</sup> سليمان، فريال (Sulaimani, F. A). (1986). الموقف المتغير للمرأة في شبه الجزيرة العربية في ظل الإسلام خلال أوائل القرن السابع (The Changing Position of Women in Arabia under Islam during the Early Seventh Century). مُقتبس من: <http://usir.salford.ac.uk/14814/1/361089.pdf>.

<sup>8</sup> أحمد، ليلي (1992). المرأة والجنوسة في الإسلام (Women and Gender in Islam). نيو هيفن ولندن: مطبعة جامعة ييل.

<sup>9</sup> دوبليداي، فيرونكا (Doubleday, V). (1999). طبل الإطار في الشرق الأوسط: المرأة والآلات الموسيقية والقوة (The Frame Drum in the Middle East: Women, Musical Instruments and Power). علم الموسيقى العرقي. المجلد: 43، العدد: 1، ص: 101-134.

مهوراً عالية مقابل زواجهن كذلك<sup>1</sup>.

وباختصار، ثمة قواسم مشتركة بين العديد من المجتمعات القديمة فيما يتعلق بمعاملة المرأة؛ حيث مُنعت عامة النساء في هذه المجتمعات من حق التملك أو اختيار الزوج أو طلب الطلاق، وكان يُنظر إليهن نظرة دونية، واعتُبرن مجرد كائنات جسدية تُجلب لإمتاع الرجال والإسراء عنهم، ولم يكنَّ يخضعن لأي تقاليد اجتماعية تتعلق بالزي الرسمي، بل كان المجتمع يحرضهن على تعرية ما تُسَنُّ من أجسادهن. ومن المنظور الديني كان يُسمح لبعض النساء من ذوات الحظوة بتولي مراكز شرفية عليا في الهياكل الدينية لمجتمعاتهن، مثل: الكهانة.

---

<sup>1</sup> علي، جواد. (1955). تاريخ العرب قبل الإسلام. العراق: مطبعة العلم. مُقتبس من: <http://www.alhasso.com/arab-history-1.pdf>.

## المرأة في المجتمعات العلمانية المعاصرة

تطورت حقوق المرأة، وحققت قفزات نوعية هائلة في العصر الحالي بمقارنتها بالمجتمعات القديمة، على الرغم من وجود بعض الجوانب المشتركة حتى يومنا هذا. فالمرأة الغربية حصلت على حقها في التملك، والعمل، والاحتفاظ بأموالها، والخروج بحرية ودون إذن، واختيار الزوج، كما اكتسبت حق المشاركة في العملية السياسية، لكن لا تزال هناك بعض التحديات في العالم الغربي فيما يتعلق بالمساواة في الأجور والعمل، وتكافؤ الفرص والترقية الوظيفية، والكرامة الإنسانية، والتي أبرزتها حركة #MeToo (أنا أيضاً) الأخيرة<sup>1</sup>. وسنبداً المناقشة الآن بقضية الكرامة العامة للمرأة.

كما سنعرض لاحقاً بالتفصيل، فإن أحد أكبر الانتقادات الموجهة ضد المرأة المسلمة تتعلق بطريقة لبسها، ففي أذهان كثير من الناس اليوم، يُعد الإقلال أو التخفيف من ارتداء الثياب معادلاً للحرية -أو تحرر المرأة-. فمن منظورهم المعيب، كلما زاد ما تظهره المرأة من جسدها أو ما يُسمح لها بإظهاره، كان ذلك مؤشراً على مدى "تحررها" الحضاري، بل كانت تُحرض المرأة المهمشة والتي كانت تنتمي إلى الطبقات الدنيا في المجتمعات القديمة وتُجبر على إظهار جسدها على الملأ وارتداء الملابس المثيرة. وهذا بطبيعة الحال لم يجسد التحرر أو الحصول على حقوقها المشروعة، وإنما كان ذلك تحرراً وانفلاتاً اجتماعياً يُشبع الرغبات الجسدية للرجال الذين كان شغلهم الشاغل التحديق بشهوانية في أجساد المرأة، كما يفعلون اليوم في المجتمعات المعاصرة التي تدعي التحضر والمدنية. وفي سياق متصل، جمعت الكاتبة لوري شريج (Laurie Shrage) العديد من وجهات النظر التاريخية التي تكشف وضع المرأة العام وظروفها، والنظرة المادية المبكرة لها، فقالت:

"... تقول [المؤرخة جيردا ليرنر]: لكي نفهم كيف تطوّر البغاء على مرّ التاريخ، يجب استيعاب "علاقته بالتنظيم الجنسي لجميع النساء في الدول القديمة وعلاقته باسترقاق الإناث. (ليرنر 1986، 124). وكتبت ليرنر الأسطر التالية: من المرجح أن يكون السبب المباشر للبغاء من أجل المال استرقاق النساء وتكوين الطبقة وترسيخها، فقد أدى الغزو العسكري في الألفية الثالثة قبل الميلاد إلى استرقاق المرأة الأسيرة واستغلالها جنسياً، وعندما أصبحت العبودية نظاماً متبعاً، عمل مالكو العبيد على تأجير إمائهم للعمل في البغاء، وأنشأ بعض الأسياد المواخير التجارية التي كانت تديرها الإماء" (ليرنر 1986، 133).

ترجح ليرنر أن الحكام استغلوا البغايا والجواري من باب المفاخرة بالثروة والسلطة، ثم قلّدهم أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية في تلك الممارسة البغيضة (ليرنر 1986، 133). وكان الفقراء يُجبرون غالباً على بيع أولادهم، ليُلقوا بالعمالة المكرسة لتجارة الرقيق الأبيض. "ومع ترسيخ التنظيم الجنسي للمرأة من الطبقة المالكة، أصبحت عذرية البنات العفيفات بمثابة ميزة لا تُقدر بثمن لأسرهن".

ترتبط رواية ليرنر الصور الحديثة للبغاء بالممارسات الاجتماعية القمعية، كاسترقاق النساء ومعاملة الحرائر كأمتعة جنسية يجري تبادلها داخل إطار الزوجية وخارجه. وبالإضافة إلى عزو ظهور البغاء التجاري إلى الاسترقاق والطبقة الرأسمالية، تعزو غايل روبن نشأة البغاء إلى ظهور أنظمة القرابة التي كانت تبيح تبادل النساء كهدايا بين العائلات بحجة تقوية الروابط الاجتماعية بينها (روبن 1975، 175). وفي هذا الصدد كتبت روبن الأسطر الآتية: "إذا كانت النساء تُعامل كهدايا، فكان الرجال هم الأطراف التي تتبادلها، وكانوا هم الذين يحظون بمزايا الترابط الاجتماعي. وبحكم تلك العلاقات التي أباحتها هذا النظام الاجتماعي كانت

<sup>1</sup> سمارت، نيكول (Smartt, Nicole). (2018). التحرش الجنسي في مكان العمل في عالم يتميز بحركة #MeToo (Sexual Harassment in the Workplace in A #MeToo World). فوربس.

النساء مكبتات لا يُسمح لهن بتحصيل الفوائد من تداولهن بين الرجال، وكانت الاستفادة من هذه العمليات التبادلية مقصورة على الرجال؛ حسب التنظيم الاجتماعي الذي كان قائماً" (روبن 1975، 174).

باختصار، كانت المرأة بحكم التكوين الطبقي خاضعة للتبادل العرفي الاجتماعي من أجل بناء روابط قرابة بين الرجال باعتبارها أساساً للنظام الاجتماعي ... وفي هذا السياق تكتب روبن:  
"مبادلة النساء" مفهوم مغرٍ ومؤثر وجذاب؛ من حيث إنه يضع اضطهاد المرأة في إطار النظم الاجتماعية، وليس في إطار خصائصها البيولوجية... (روبن 1975، 175).

وحسب آراء ليرنر وروبن، سبق البغاء (النساء اللاتي يمارسن أنشطة جنسية مقابل مكافآت خارجية)، والاتجار بالنساء (سيطرة الآخرين على القدرات الجنسية للمرأة) الاستغلال التجاري كظاهرة عابرة للحدود التاريخية ومتنوعة الثقافات والمظاهر والسياقات<sup>1</sup>.

ومن اللافت للنظر أن "الاستغلال التجاري" استمر حتى الوقت الحاضر؛ حيث أخذت النظرة المادية الجنسية للمرأة صوراً أكثر دقة، ونالت قبولاً اجتماعياً؛ مثل: النساء اللاتي يرتدين ثياباً شفافة في الإعلانات، ووسائل الإعلام (وفي أغلب الحالات لا نجد علاقة بين التعري والمنتج المعلن عنه، مثل: إعلانات منتجات لحم الهمبرجر، والمشروبات الغازية، والسيارات، وما إلى ذلك)، والمواد الإباحية، وحانات التعري، وبعض سلاسل المطاعم التي تشترط على النادل ارتداء ثياب قصيرة وكاشفة، ومؤخراً الجراحة التجميلية التي تغير بعض الأجزاء في جسد المرأة. وباختصار، تتوقف سعادة النساء في هذه الحياة المعاصرة على مدى فائدتهن المادية للرجال، بمعنى أن قيمتها الإنسانية في تلك المجتمعات المعاصرة جسدية شهوانية بحتة، ولا تُقاس بقدراتهن العقلية وسماتهن الشخصية.

### المكانة التاريخية للمرأة في النصوص الدينية

بعد أن تناولنا بإيجاز موقف الحضارات القديمة والمجتمع العلماني المعاصر تجاه المرأة، سننتقل الآن إلى مراجعة وجهات النظر اليهودية والنصرانية على وجه التفصيل. ولأن الكتب المقدسة لهاتين الديانتين تشكل حياة عدد كبير من الناس في العالم الحديث، فإنها تتطلب مراجعة تفصيلية بهدف فهم الموقف الإسلامي إزاء المرأة وتكريمها على أفضل وجه. ومن المهم أن نتذكر أن المواقف إزاء المرأة وحقوقها قد تغيرت بصورة كبيرة في المجتمعات اليهودية والمسيحية على مدار القرون العديدة الماضية؛ بسبب شيوع العلمانية وتغلغلها فيها، ومن ثم ستقتصر هذه المراجعة على دراسة الكتب المقدسة، والآراء التي تُنسب للشخصيات الموثوقة من هاتين الديانتين، حيث لا يزال عدد كبير من أتباع الديانتين يعتبرونها كلام الله، وأخيراً، سنتوصل إلى نتائج مهمة بخصوص علاقة المواقف الثقافية السائدة في معظم حقب التاريخ اليهودي المسيحي مقارنة بالتطبيق الفعلي الذي جسده الأنبياء للكتاب المقدس.

<sup>1</sup> شريج، لوري (Shrage, Laurie). (2004). منظورات النسوية عن أسواق الجنس (Feminist Perspectives on Sex Markets). موسوعة ستانفورد للفلسفة، إدوارد زالتا (محرر)، مُقتبس من: <https://plato.stanford.edu/archives/fall2016/entries/feminist-sex-markets>.

## النظرة السلبية الغالبة للمرأة في النصوص اليهودية المسيحية

لكي نفهم تصورات النصوص اليهودية المسيحية بشأن المرأة على وجهها الصحيح، يجب على المرء أولاً أن ينظر إلى الأساس المنطقي المستخدم لتحديد صفات المرأة وأدوارها. ويستند هذا الأساس إلى قصة الكتاب المقدس حول خلق آدم وحواء، وخطيئة الأكل من التفاحة المحرّمة، والتي كانت مصدر النظرة السلبية الغالبة تجاه المرأة بصفة عامة، والمفهوم اللاهوتي للخطيئة الأصلية.

جاء ذكر خلق آدم وحواء وخطيئتهما في سفر التكوين من 2: 4 حتى 3: 24. فقد أمر الله ﷻ آدم وحواء ألا يأكلا من الشجرة المحرّمة في جنة عدن، لكنّ الشيطان، متمثلاً في صورة حية، هو الذي أغرى حواء بالأكل من الشجرة، وهي بدورها أقنعت آدم أن يأكل معها، وعندما سأل الله ﷻ آدم عما اقترفه، أجاب:

"الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ هِيَ أَعْطَتْني مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ" (سفر التكوين 3: 12).

لذلك قال الله ﷻ لحواء:

"تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَتَعَابَ حَيْكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا، وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَاكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ" (سفر التكوين 3: 16).<sup>1</sup>

وَقَالَ لِأَدَمَ:

"لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ... مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ، بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ" (سفر التكوين 3: 17).

وهكذا، ظل تصويرُ حواء في الكتاب المقدس على أنها غاوية إرثاً شكّل الكثير من المواقف اليهودية المسيحية إزاء المرأة. ومفاد هذا الإرث المؤسف هو الاعتقاد بأن حواء، باعتبارها أمّاً لجميع النساء، قد ورّثت خطيئتها، وطبيعتها المخادعة، والعقوبة التي نزلت عليها لبناتها؛ أي لنساء الدنيا كلّهن، وقد ثبت الدليل على هذا الاعتقاد في العهد القديم على النحو الآتي:

"فَوَجَدْتُ أَمْرًا مِنَ الْمَوْتِ: الْمَرْأَةُ الَّتِي هِيَ سِبَاكَ، وَقَلْبُهَا أَشْرَاكٌ، وَيَدَاهَا فَيُودٌ. الصَّالِحُ فُدَّامَ اللَّهِ يَنْجُو مِنْهَا. أَمَّا الْخَاطِئُ فَيُؤَخَذُ بِهَا. أَنْظُرْ. هَذَا وَجَدْتُهُ، قَالَ الْجَامِعَةُ: وَاحِدَةٌ فَوَاحِدَةٌ لِأَجْدِ النَّتِيجَةِ الَّتِي لَمْ تَنْزَلْ نَفْسِي تَطْلُبُهَا فَلَمْ أَجِدْهَا. رَجُلًا وَاحِدًا بَيْنَ أَلْفٍ وَجَدْتُ، أَمَّا امْرَأَةٌ فَبَيْنَ كُلِّ أَوْلَيْكَ لَمْ أَجِدْ" (سفر الجامعة، 7: 26-28).<sup>2</sup>

<sup>1</sup> بُدلت جميع المحاولات في هذا الكتاب لتقديم المعلومات بطريقة منصفة من خلال تضمين السياق والمعنى المقصود من المقاطع المقتبسة كلما أمكن ذلك. يأتي سياق هذا المقطع المحدد في سفر التكوين مشفوعاً بالتفسير التالي المقتبس من التفسير النصراني المرموق والموثوق لمتى هنري (ت 1714). يذكر هنري في تفسيره للآيتين 16 و17 من الإصحاح الثالث في سفر التكوين: "وضعت المرأة نظير خطيئتها في حالة من الحزن والخضوع، وهي عقوبة مناسبة لتلك الخطيئة، التي سعت فيها لإشباع شهوة عينها، وجسدها، وكبريائها. ويلاحظ أن الخطيئة هي التي أدخلت الحزن على العالم، وجعلته وادياً من البكاء. وليس من الغريب أن تزداد أتعابنا حين تزداد خطايانا. "وهو يسود عليك": ما هو إلا أمر الله. "أيها النساء اخضعن لرجالكن": لو لم يخطئ الرجل لكانت سلطته دائماً ممتزجة بالحكمة والمحبة. ولو لم تخطئ المرأة، لكانت دائماً تطيع زوجها بخضوع ووداعة. وألقى آدم اللوم على زوجته، ولكن على الرغم من أن خطيئتها كانت في إقناعه بتناول الثمرة المحرّمة، فكانت خطيئته أنه سمع لقولها، ومن ثمّ سنتقلب حجج الناس غير المقتعة، في يوم غضب الرب، عليهم..." (هنري، متى (Henry, M). (1997). التفسير المختصر على الكتاب المقدس بأكمله لمتى هنري (Matthew Henry's Concise Commentary on the whole Bible). ناشفيل: توماس نيلسون).

<sup>2</sup> "كان سليمان مخطئاً بصورة محزنة في بحثه عن طبائع الأشياء وأسبابها، لكنه يتكلم هنا بحزن إلهي. فمن يسعى وحده باستمرار لإرضاء الله، يمكنه أن يأمل النجاة، ومن المحتمل أن المخطئ اللامبالي سيقع ولا ينهض مرة أخرى. لقد اكتشف الآن أكثر من أي وقت مضى شر الخطيئة العظيمة التي ارتكبتها، وهي محبة نساء غريبات كثيرات (سفر الملوك الأول 11: 1). لم يجد بين هؤلاء النساء امرأة واحدة مستقيمة وصالحة صلاحاً كاملاً. كيف كان من المحتمل أن يجد امرأة بهذه الصفة بين أولئك النساء اللاتي أحاط نفسه بهن؟ ولو كانت أي واحدة منهنّ مجبولة على ذلك، لكان وضعهنّ يميل إلى

ونقرأ في موضع آخر من النصوص العبرية الموجودة في الكتاب المقدس الكاثوليكي النص الآتي: "مَنْ الْمَرْأَةُ ابْتَدَأَتْ الْخَطِيئَةَ، وَبِسَبَبِهَا تَمُوتُ نَحْنُ أَجْمَعُونَ" (سفر يشوع بن سيراخ 25: 33).

وثمة آيات أخرى في العهد القديم يتجاهلها البعض عادة، حيث تحدد قيمة المرأة بمقدار يتراوح بين 50% و66% من قيمة الرجال حسب أعمارهم: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا أَفْرَزَ إِنْسَانٌ نَذْرًا حَسَبَ تَقْوِيمِكَ نُفُوسًا لِلرَّبِّ، فَإِنْ كَانَ تَقْوِيمُكَ لِذَكَرٍ مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ سَنَةً إِلَى ابْنِ سِتِّينَ سَنَةً، يَكُونُ تَقْوِيمُكَ خَمْسِينَ شَاوِلَ فِضَّةٍ عَلَى شَاوِلِ الْمَقْدِسِ. وَإِنْ كَانَ أَنْثَى يَكُونُ تَقْوِيمُكَ ثَلَاثِينَ شَاوِلًا. وَإِنْ كَانَ مِنْ ابْنِ خَمْسِ سِنِينَ إِلَى ابْنِ عَشْرِينَ سَنَةً يَكُونُ تَقْوِيمُكَ لِذَكَرٍ عَشْرِينَ شَاوِلًا، وَلِأَنْثَى عَشْرَةَ شَوَاوِلَ. وَإِنْ كَانَ مِنْ ابْنِ شَهْرٍ إِلَى ابْنِ خَمْسِ سِنِينَ يَكُونُ تَقْوِيمُكَ لِذَكَرٍ خَمْسَةَ شَوَاوِلِ فِضَّةٍ، وَلِأَنْثَى يَكُونُ تَقْوِيمُكَ ثَلَاثَةَ شَوَاوِلِ فِضَّةٍ. وَإِنْ كَانَ مِنْ ابْنِ سِتِّينَ سَنَةً فَصَاعِدًا فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا يَكُونُ تَقْوِيمُكَ خَمْسَةَ عَشَرَ شَاوِلًا، وَأَمَّا لِأَنْثَى فَعَشْرَةَ شَوَاوِلَ" (سفر اللاويين 27: 1-7).<sup>1</sup>

استمر الاتجاه في تصوير المرأة في العهد الجديد على أنها أدنى منزلة في كتابات بولس على النحو الآتي: "لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ، وَلَكِنْ لَسْتُ أَدْنَى لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلَا تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ، لِأَنَّ أَدَمَ جُيِلَ أَوْلًا ثُمَّ حَوَاءٌ، وَأَدَمُ لَمْ يُعَوِّ، لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُعْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِيِّ" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس 2: 11-14).<sup>2</sup>

ومن العهد الجديد أيضًا نجد النصوص التالية: "أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لِأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخْلِصُ الْجَسَدِ، وَلَكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذَلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس 5: 22-24).<sup>3</sup>

"أَيُّهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيْقُ فِي الرَّبِّ. أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا قَسَاءً عَلَيْهِنَّ" (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 3: 18-19).<sup>4</sup>

"كَذَلِكَ الْعَجَائِزُ فِي سِيرَةٍ تَلِيْقُ بِالْقَدَاسَةِ، غَيْرَ نَالِبَاتٍ، غَيْرَ مُسْتَعْبَدَاتٍ لِلْخَمْرِ الْكَثِيرِ، مُعَلِّمَاتٍ الصَّلَاحِ، لِكَيْ يَنْصَحْنَ الْحَدَثَاتِ أَنْ يَكُنَّ مُحَبَّاتٍ لِرِجَالِهِنَّ وَيُحِبِّبْنَ أَوْلَادَهُنَّ، مُتَعَقِّلَاتٍ، عَفِيفَاتٍ، مُلَازِمَاتٍ بَيُوتِهِنَّ، صَالِحَاتٍ، خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، لِكَيْ لَا يُجَدَّفَ عَلَى كَلِمَةِ اللَّهِ" (رسالة بولس الرسول إلى تيطس 2: 3-5).

جعلهن جميعًا يتمتعن بالشخصية نفسها تقريبًا. وهنا يحذر الآخرون من الخطايا التي تعرض للخيانة بسببها. يستطيع الرجل التقى بالعديد من الطرق أن يعبر عن شكره أنه وجد امرأة حكيمة عفيفة بين أحضانها؛ لكن أولئك الرجال الذين ساروا على طريق سليمان لا يمكنهم أن يتوقعوا إيجاد واحدة منهم" (هنري، 1997).

<sup>1</sup> "إن نوبة الحماسة لخدمة الله جعلت بني إسرائيل، في بعض الأحيان، يميلون إلى تكريس أنفسهم أو أولادهم للرب، بالاعتكاف في بيته مدى الحياة. وبذلك قد يعمل بعض الأشخاص الذين كرسوا أنفسهم بصفقتهم مساعدين، ويجب أن يُفقدوا بصفة عامة" (هنري، 1997).

<sup>2</sup> "حسب قول القديس بولس، غير مسموح للنساء بأن يكنَّ معلمات للعامة بالكنيسة؛ إذ إن التعليم يمثل سلطة، ولكن بالرغم من هذا الحظر، فالتقيات لهن دور في تعليم أولادهن مبادئ الإيمان في البيت. كذلك، يجب ألا تظن المرأة نفسها معفاة من تعلم ما هو ضروري لها للخلاص، على الرغم أنه ليس لهن أن ينتحلن سلطة على الرجل، وكما كانت المرأة هي الأخيرة من حيث الخلق، صارت الأولى من حيث التعدي، ولكن هناك كلمة تعزية من جهة المرأة التي تستمر في تعقلها أنها ستخلص بولادة الأولاد أو الإنجاب على يد المسيح المولود من امرأة. والحزن الخاص الذي يخضع له الإناث يجب أن يدفع الرجال إلى ممارسة سلطتهم بمزيد من اللطف والحنان والمودة" (هنري، 1997).

<sup>3</sup> "واجب الزوجات هو الخضوع لأزواجهن كما يليق في الرب، والذي يشمل إكرامهم وطاعتهم، من مبدأ المحبة لهم. وواجب الأزواج أن يحبوا زوجاتهم. وتعد محبة الرب يسوع للكنيسة مثالًا؛ حيث إن هذه المحبة ثابتة غير متغيرة بالرغم من النقائص والخطايا التي ترتكبها" (هنري، 1997).

<sup>4</sup> تُعد الرسائل الأكثر أهمية في إظهار مجد الفضل الإلهي، وتعظيم الرب يسوع، الأكثر خصوصية في التشديد على واجبات ومسؤوليات الحياة المسيحية. يجب ألا تفصل أبدًا بين الامتيازات التي نتمتع بها وبين مسؤولياتنا وواجباتنا تجاه الإنجيل. يُعد الخضوع من واجب الزوجات، لكن هذا الخضوع ليس لسيد قاس أو طاغية صارم، بل لزوجها، المرتبط معها بواجب معاملتها بلطف. وعلى الأزواج أن يحبوا زوجاتهم مظهرين لهن المشاعر الرقيقة والأمانة" (هنري، 1997).

وفيما يتعلق بأراء وكتابات علماء اللاهوت ورجال الدين اليهود والنصارى، فإن تفسير الآيات المذكورة سلفاً واردة بجلاء في الكتابات اليهودية. وبحسب الأبحار اليهود، وقعت على المرأة تسع لعنات، ثم الموت نتيجة السقوط من الفردوس، بل هناك ثلاث قوائم على الأقل وردت فيها اللعنات النازلة على المرأة، منها القائمة التالية، المقتبسة من تفسير "إصحاحات الحاخام أليعازر"، وقد ذكر فيها ما يلي:

"على المرأة تسع لعنات، ثم الموت: الطمث، ودم العذرية، وتعيب الحمل والولادة، وتربية الأطفال، وتغطية رأسها كأنها في حداد، وتخرم أذنها مثل الجارية، ولا يؤخذ بشهادتها، وبعد هذا كله الموت"<sup>1</sup>.

ونص مدراش راباه في التلمود<sup>2</sup> كما يلي:

"عدّد الحكماء أربع سمات تنطبق على المرأة: الطمع، والتصنّت، والكسل، والغيرة... ويضيف الحاخام يهوشوع بار نحمانى: الجدل والثثرة. ويضيف الحاخام ليفي: مجبولة على السرقة والتسكع" (بريشيت ربا 45: 5، طبعة تيودور ألبيك، ص 452-453).

صوّرت المرأة في عدة مواضع في التلمود على أنها لا تصلح للشهادة بسبب افتقارها إلى الالتزام الأخلاقي وخفة عقلها "nashim daatan kalah" (على سبيل المثال، شبّت (السبت) ب33، وقدوشتن (الخطبة) ب80).

كما يتلو الرجال اليهود الأرثوذكس في صلاة الصبح اليومية الدعاء الآتي:

"مبارك أنت يا رب؛ لأنك لم تجعلني لا وثنيًا، ولا امرأة، ولا جاهلاً" (Shelo asani ishah)<sup>3</sup>.

وإذا أعرنا انتباهنا إلى آراء مؤسسي الكنيسة الأوائل، لانتضح لنا أنهم ظلوا ينظرون إلى المرأة نظرة دونية. وتجسد المقاطع التالية صورة لجزء كبير من التاريخ النصراني من حيث علاقته بالمرأة؛ منذ تأسيس الكنيسة حتى القرن السابع عشر على الأقل، لكن لا بد أولاً من استعراض هذا التاريخ لاعتقاد النصارى على مر العصور أن قديسيهم وعلماءهم يتلقون الوحي من الروح القدس، ومن ثمّ يدافعون عن أقوالهم باعتبارها "كلام الله". ونأمل أن يقود التحليل الدقيق لهذه النصوص الناس إلى إعادة النظر في تصوراتهم حول طبيعة "كلمة الله"، ودراسة المنظور الإسلامي بعين الموضوعية والإنصاف.

أولاً: من المهم أن نتذكر أن جزءاً كبيراً من اللاهوت النصراني تشكلت تحت عباءة الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث؛ حيث كان الرومان واليونانيون ينظرون إلى المجتمع على أنه مقسم إلى طبقة عليا وطبقة دنيا، وكانت المرأة تُعامل على أنها أدنى منزلة من الرجل بطبيعتها، وقد أثر هذا التصور تأثيراً كبيراً في آراء مؤسسي الكنيسة الأوائل الذين اعتبروا المرأة مخلوقاً أقل شأنًا.

- "تضع كل من الطبيعة والشريعة المرأة في مرتبة أدنى من الرجل" (القديس إيرينيوس<sup>5</sup>، الجزء رقم

<sup>1</sup> فريدلاندر، جيرالد (Friedlander, G). (1965). إصحاحات الحاخام أليعازر (Pirkei De Rabbi Eliezer) مترجم ومشفوع بشروح مع مقدمة وفهارس. نيويورك: مطبعة هيرمون، ص. 100.

<sup>2</sup> مجموعة مكتوبة من الشرائع والأعراف الشفوية اليهودية التي تفسّر التوراة. ويتألف التلمود من مكونين هما: المشنا (200 م)، النصوص المكتوبة فعلياً للشريعة الشفوية للدين اليهودي، والجمارا (500 م)، وهو الشرح المتعلق بالمشنا في المقام الأول. يُستخدم المصطلحان "التلمود والجمارا" أحياناً على نحو مترادف.

<sup>3</sup> إتشاكوف، إسرائيل (Itshakov, I). (2015). مباركات الصباح (Morning Blessings with Keriat Shema Birkhot Hashahar Im). فلاشينغ، نيويورك: شركة ابن إسرائيل.

<sup>4</sup> شليزنجر، جوزيف (Schlesinger, J). (1891). أسفار موسى الخمسة (-Hamishah humshe Torah: 'im ha-haftarat ye-seder ha-). بوسطن، ماساتشوستس: جامعة هارفارد.

<sup>5</sup> أسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال خلال القرن الثاني الميلادي، وتعرف الآن بليون الواقعة في فرنسا، كانت كتاباته مؤثرة في التطور المبكر

(32).

- "يقضي النظام الطبيعي بين الناس بأن تخدم المرأة زوجها ويخدم الأبناء والديهم؛ لأن العدالة في ذلك متمثلة في المبدأ القائل: يستعبد الكبير الصغير... هذه هي العدالة الطبيعية التي تقول بأن المرء الأقل ذكاءً يخدم من يفوقه في الذكاء. وهذه هي العدالة الجلية في العلاقات بين العبيد وسادتهم؛ فمن يتفوق في العقل، يتفوق في السلطة" (القديس أغسطينوس<sup>1</sup> (St. Augustine)، أسئلة عن التوراة ( Questions on the Heptateuch)، الكتاب الأول، القسم 153).

- "لا فرق سواء أكانت المرأة زوجة أم أمًا؛ فحواء الغاوية التي يجب علينا الحذر منها متجسدة في أي امرأة"<sup>2</sup> (القديس أغسطينوس (St. Augustine)).

- على المرأة أن تغطي رأسها؛ لأنها ليست على صورة الرب... كيف يمكن لأي شخص أن يدعي أن المرأة شبيهة بالرب في حين أنها تخضع بصورة واضحة لسيادة الرجل، ولا تتمتع بأي نوع من السلطة؟ بالنظر إلى أنه لا يمكنها التعليم، أو الإدلاء بالشهادة في المحكمة، أو التمتع بالمواطنة، أو تولي القضاء، فبالتأكيد لا يمكنها ممارسة السيادة<sup>3</sup> (أمبروسياستر (Ambrosiaster))<sup>4</sup>، تعليق على رسالة كورنثوس الأولى (14: 34).

- يريد الرسول من النساء، الخاضعات بصورة واضحة، أن يكنّ بلا خطيئة، حتى تكون كنيسة الرب طاهرة<sup>5</sup> (أمبروسياستر (Ambrosiaster))، تفسير رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس (3: 11).

- "النساء جنس ضعيف، وغير جدير بالثقة، وضعيف الذكاء، وإنما نرى أن الشيطان يعرف كيف يجعل النساء ينشرن تعاليم سخيفة، كما نجح في ذلك من قبل مع كوينتيللا (Quintilla)، وماكسيما (Maxima)، وبريسيللا (Priscilla)<sup>6</sup> (إبيفانوس<sup>7</sup> (Epiphanius)، باناريون (Panarion) 79، القسم 1). وبعد نحو 1000 عام، لا يزال القديس توماس الأكويني (St. Thomas Aquinas)، العالم الكاثوليكي والملفان في القرن الثالث عشر الذي يعتبره العديد من الكاثوليك أعظم اللاهوتيين في الكنيسة، ينظر إلى النساء نظرة ضيقة؛ حيث يقول: "فيما يختص بطبيعة الفرد، فإن المرأة مخلوق معيب ومشوّه؛ ذلك أن القوة الفاعلة في مَنِي الذكر تنزح إلى إنتاج مماثلة كاملة في الجنس الذكري، بينما تتولد المرأة عن عيب في تلك

---

للاهوت المسيحي، وقد اعترفت كل من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية رسمياً بقدسيته، ومنحته لقب قديس، كما اعتبرته أحد آباء الكنيسة، وقد كان أيضاً أحد حواربي بوليكاربوس أسقف سميرنا، الذي اعتبره الكثيرون حوارياً ليوحنا الإنجيلي.

<sup>1</sup> أوريلوس أغسطينوس (Aurelius Augustinus)، أسقف هيبو، المعروف باسم القديس أغسطينوس (Saint Augustine) (354 - 430 م) هو أحد أكثر الشخصيات شهرة وأهمية في تطوّر النصرانية الغربية. ففي مذهب الكاثوليكية الرومانية والطائفة الأنجليكانية، يُعتبر قديساً وملفاناً مرموقاً للغاية، بالإضافة إلى رعايته للنظام الديني الأغسطيني. وينسب العديد من البروتستانتيون أساس تعاليم الإصلاح الخاصة بطائفتهم فيما يتعلق بالخلاص والنعمة إلى تعاليم القديس أغسطينوس (Saint Augustine).

<sup>2</sup> (غير متوقّر). (1977). *آباء الكنيسة: ترجمة جديدة المجلد 32 (The Fathers of the Church: A New Translation)*. القديس أغسطينوس: الرسائل المجلد الخامس (270-204) (Saint Augustine: Letters). واشنطن العاصمة: مطبعة الجامعة الكاثوليكية الأمريكية.

<sup>3</sup> (بيري، جون (Berry, J)). (2016). لماذا تحرّض الظواهر التاريخية على مقاومة الراهبات (Why Historical Phenomena Instigates Resistance to Female Clergy). Lulu.com.

<sup>4</sup> اسم أعطي لكاتب بعض التفسيرات لأسفار القديس بولس (St. Paul)، باستثناء الرسالة إلى العبرانين. عادة ما تُنشر هذه التفسيرات بين أعمال القديس أمبروسوس (St. Ambrose) (لوحة، 17، 508-45).

<sup>5</sup> أمبروسياستر (Ambrosiaster) في تفسير إنجيل يوحنا 8: 11-1. مُقتبس من:

<http://textualcriticism.scienceontheweb.net/FATHERS/Ambrosiaster.html>

<sup>6</sup> تاكر، روث (Tucker, R) وليفيلد، والتر (Liefeld, W). (1987). بنات الكنيسة (Daughters of the Church). غراند رابيدز، ميتشيجن: زوندرفان.

<sup>7</sup> أحد آباء الكنيسة من القرن الرابع، اشتهر بسعيه الحثيث وراء الهرطقات أينما وجدت في عصر الكنيسة النصرانية الحافل بالمصاعب بعد انعقاد مجمع نيقية مباشرة.



القوة الفاعلة، أو حدوث تو عك جسدي، أو حتى نتيجة لمؤثر خارجي<sup>1</sup>. يأتي هذا الاقتباس من كتاب الخلاصة اللاهوتية (*Summa Theologica*) الشهير للقديس توماس الأكويني (الجزء الأول، السؤال 92)، لكنه في الواقع مقتطف من كتاب "عن توالد الحيوان" (*On the Generation of Animals*) للفيلسوف اليوناني أرسطو (Aristotle) (384 ق.م - 322 ق.م). ويقدم القديس توماس في هذا الاقتباس بياناً علمياً حول التكوين الطبيعي للأنثى ويقتبس من كتاب أرسطو (Aristotle)؛ لأنه كان أفضل مرجع علمي في ذلك الوقت.

يوصل القديس توماس مناقشة مسألة خلق المرأة من منظور لاهوتي عقب المقطع المذكور، ولكن استنتاجه اللاهوتي يختلف عن استنتاج أرسطو المقتبس سابقاً: "أما فيما يخص الطبيعة البشرية بصفة عامة؛ فإن المرأة ليست مشوّهة، ولكنها متضمنة في اتجاه الطبيعة كما وُجّهت إلى عملية التكاثر. ويعتمد الاتجاه العام للطبيعة الآن على الرب، الخالق المطلق للطبيعة، ومن ثمّ عند إنتاج الطبيعة، لم يخلق الرب الذكر فحسب، بل خلق الأنثى أيضاً".

ما يقوله القديس توماس في الاقتباس أعلاه يعبر في الواقع عن رفضه اللاهوتي لآراء أرسطو البيولوجية. ولمزيد من التوضيح، تقول نظرية أرسطو (Aristotle): إن المقصود أن يولد جميع الأطفال ذكراً، حيث يمثل الذكر الكمال، ولكن إذا وُلدت أنثى، فإن هذا يمثل عيباً؛ ومن ثمّ ليست المرأة سوى ذكر معيب وعقيم، وعليه وُصفت بأنها "معيبة ومشوّهة". وكانت هذه هي النظرة اليونانية الرومانية المتعلقة بالإنجاب، التي تمثل وجهة النظر البيولوجية العلمية التي سادت في أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

كان القديس توماس من بين المؤلفين النصرانيين الأوائل الذين دحضوا هذا المفهوم، على الأقل من المنظور اللاهوتي، إن لم يكن من المنظور البيولوجي، بالقول بأن مشيئة الرب شملت الرجل والمرأة على حدٍ سواء. فالمرأة ليست ذكراً معيباً، بل هي جزء من خلق الرب، وعلى الرغم من أن كلماته كانت خطوة متقدمة في الاتجاه نحو المرأة، كان دورها منحصراً في "عملية التكاثر" (إنجاب الأطفال). وعلى الرغم من تقديم وجهة نظر أكثر إيجابية عن المرأة في تلك الحقبة، مثل ذلك نظرة الضيقة الأفق لدورها في أوروبا والكنيسة في القرن الثالث عشر.

وتجسيدا لهذه النظرة الضيقة للمرأة ودورها في المجتمع، استمرت التصريحات الصادرة عن لاهوتيين آخرين للكنيسة من العصور الوسطى مؤكدة على دونية المرأة والتقليل من شأنها.

- "لا تستطيع المرأة تحمّل أي مسؤولية عامة... ولا يمكن للمرأة تولي أي منصب مدني... أنتجت الطبيعة المرأة لغرض إنجاب الأطفال... الرجل مخلوق على صورة الرب... الرحم هو التربة التي ينمو فيها المني..." (يوهانس تيوتونيكوس (Johannes Teutonicus)<sup>2</sup>، الأداة (Apparatus)، في مواضع متفرقة).

- "من المنطقي ألا تمتلك المرأة قوة السلطة؛ لأنها لم تُخلق على صورة الرب، ولكن الرجل وحده هو مجد الرب وصورته. ولهذا السبب يجب أن تخضع المرأة للرجل، وأن تكون أمة له، وليس العكس"

<sup>1</sup> مانترافادي، إيمي (Mantravadi, A). (24 مارس 2017). لا شكراً لك، يا أكويني: المرأة ليست جذيرة بالازدراء (No Thank You, Aquinas: Women Are Not Misbegotten). مُقتبس من: <http://amymanttravadi.com/2017/03/24/1594>.

<sup>2</sup> جون تيوتون (John the Teuton) (1180 - 1252)، يُعد ضمن أوائل تلاميذ القديس دومينيك (Saint Dominic) ورابع رئيس عام للطائفة الدومينيكية، احتل مكانة هامة في بدايات تاريخ الطائفة الدومينيكية، وعيّن أسقفاً للأبرشية في المجر، ولاحقاً أسقفاً في كرواتيا، وسافر بصفته مبعوثاً للبابا غريغوري التاسع (Gregory IX) إلى الأمير البلغاري أسن الثاني (Asen II)، وكان له الفضل في توحيد الطقوس الدومينيكية.

(أنطونيوس دي بوتريو (Antonius de Butrio)<sup>1</sup>، التعليق (Commentaria)، الجزء الثاني، صفحة 89).

عند قراءة هذه التصريحات، يزعم البعض أنها لم تكن سوى مجرد آراء بعض قادة الكنيسة، وبغض النظر عن التعليق السابق الخاص بتلقي الوحي من الروح القدس، فإن التصريحات التالية الصادرة عن كتاب قانون جراتيان (*Decretum Graniati*)<sup>2</sup>، المعروف أيضًا باسم "توافق الشرائع المتنافرة" (*Concordantia discordantium canonum*)، المكتوب في الأصل عام 1140م، تنص بوضوح على أن النظريات المتعلقة بدونية المرأة كانت في الواقع تعاليم الكنيسة (القانون الكنسي) خلال العصور الوسطى وما بعدها بفترة طويلة.

- "لا بد أن يعلم أن أمبروسيو (Ambrose) لا يسميه "رجلا" بسبب جنسه الذكوري، ولكن لقوة روحه، كما عليه أن يدرك أن "المرأة" لم تسم كذلك بسبب جنسها، ولكن نظرًا لضعف عقلها"<sup>3</sup>.

- "تكون المرأة في خضوع ذليل، لذلك يجب عليها أن تخضع للرجل في كل شيء" (المرسوم (*Decretum*)، الفصل 11)<sup>4</sup>.

- يقول أمبروسيو (Ambrosius): "على النساء أن يغطين رؤوسهن؛ لأنهن لسن على صورة الرب، ويجب عليهن ذلك كدليل على خضوعهن للسلطة، ولأن الخطيئة دخلت إلى العالم بسببهن، ويجب أن تُغطى رؤوسهن في الكنيسة احترامًا للأسقف، وبالمثل، لا تملك المرأة سلطة الكلام؛ لأن الأسقف ممثل المسيح؛ ولهذا يجب عليهن أن يتصرفن أمام الأسقف كما يتصرفن أمام المسيح القاضي؛ لأن الأسقف ممثل الرب، كما يجب عليهن أن يكن خاضعات بسبب الخطيئة الأصلية"<sup>5</sup>.

- "حتى لو كانت المرأة متعلمة وقديسة، فلا تزال ممنوعة من تعميد الرجال أو تعليمهم في تجمّع [رعوية الكنيسة]. كما ورد في مجمع قرطاج، "فيما يختص بتعميد النساء"، نريدك أن تعرف أن أولئك اللاتي يتجرأن على التعميد يعرضن أنفسهن لخطر لا يستهان به؛ لذلك لا نوصي به، لأنه خطير، بل حتى محرّم وفعله كفر. وبعبارة أخرى، إذا ترأس الرجل المرأة ورُقّي إلى الكهنوت، فإن الإخلال بترتيب الخالق من خلال تجريد الرجل من الأفضلية الممنوحة له إلى أدنى منزلة يتعارض

<sup>1</sup> فقيه وأستاذ قانون إيطالي من القرن الرابع عشر في بولونيا، كتب دي بوتريو (De Butrio) العديد من التعليقات على مراسيم البابا غريغوري التاسع (Decretals of Gregory IX) والكتاب السادس (Liber Sextus)، والتي تعرض لمحة شاملة عن الممارسات القائمة للقانون الكنسي والقانون المدني في ذلك الوقت.

<sup>2</sup> يوهانس جراتيان (Johannes Gratian)، الذي يعتبره الكاثوليك المؤسس الحقيقي لعلم القانون الكنسي، فقد جمع قوانين الكنيسة (القوانين الكنسية) من جميع المصادر المتاحة وسمى المجموعة "توافق الشرائع المتنافرة" (*Concordia Discordantium Canonum*). وأصبحت المجموعة تُعرف باسم مراسيم جراتيان (*Decretum Gratiani*)، ويعتبرها الكاثوليك بمثابة أول مقال علمي حقيقي عن القانون الكنسي (الموسوعة الكاثوليكية)، وكانت تمثل المرجع الأساسي للقانون الكنسي لأكثر من قرن حتى ضُمَّت إلى مجموعة القانون الكنسي (*Corpus Iuris Canonici*) باعتبارها الجزء الأول من هذه المجموعة المكونة من ستة نصوص قانونية، وكانت مجموعة القانون الكنسي عندئذ بمثابة المصدر الرئيس للقانون الكنسي في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية حتى عيد الخمسين الموافق يوم الأحد، 27 مايو 1917، عندما أصدر البابا بنديكتوس الخامس عشر (Benedict XV) قانونًا منقحًا للقانون الكنسي.

<sup>3</sup> فريدبرج، إميل (Friedberg, E) (محرر). (1879). مراسيم جراتيان المسألة 32 (*Decretum Gratiani*)، السؤال 7، الفصل 18. مجموعة القانون الكنسي (*Corpus Iuris Canonici*)، طبعة معادة: غراتس 1955، المجلد الأول. مُقتبس من:

<https://geschichte.digital-sammlungen.de/decretum-gratiani/online/angebot>.

<sup>4</sup> فريدبرج، إميل (Friedberg, E) (محرر). (1879). مراسيم جراتيان المسألة 32 (*Decretum Gratiani*)، السؤال 7، الفصل 18. مجموعة القانون الكنسي (*Corpus Iuris Canonici*)، طبعة معادة: غراتس 1955، المجلد الأول. مُقتبس من: <https://geschichte.digital-sammlungen.de/decretum-gratiani/online/angebot>.

<sup>5</sup> المرجع السابق نفسه.

مع العدالة الإلهية. فالمرأة تأتي بعد الرجل، وقد خُلقت من ضلعه، وجُعِلت خاضعة له، ولهذا السبب اختيرت أيضاً لإنجاب الأطفال. ويقول الرب: "وهو يسود عليك"، جُعل للرجل سيادة على المرأة لأنه فوقها أيضاً، لكن إذا كنا قد حررنا المرأة من الكرازة، فكيف يريد أحدهم أن يُسمح لها بالدخول إلى الكهنوت؟ سيكون هذا غير طبيعي. وأن تكون المرأة كاهنة ضلال وكفر وثني، وليس من تعاليم المسيح، لكن لو كان يُسمح للمرأة بالتعميد، لكان المسيح قد عمّده أمه وليس يوحنا بالتأكيد، ولأرسل النساء معنا ليعمدن أيضاً عندما أرسلنا للتعميد"<sup>1</sup>.

ينبغي للفارئ أن يضع في اعتباره أن هذه التعاليم لم تكن مقتصرة على الكنيسة الكاثوليكية وحدها، بل كان ذلك منظوراً وموفقاً للعديد من الفروع والطوائف النصرانية، بما في ذلك الحركة البروتستانتية. كما سجل التاريخ، في القرن السادس عشر، كلمات وأفعال مارتن لوثر المثير للجدل، مؤسس حركة الإصلاح البروتستانتية؛ وهي حركة تجديد الكنيسة التي كانت إيداناً بالانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية. وعلى الرغم من أن نظرياته أحدثت تغييراً جذرياً في النصرانية، لم ينجح في تغيير الصور النمطية التي التصقت بالمرأة.

- "إذا تعبت النساء، أو حتى متن، فكل ذلك لا يهم، دعهن يمتن في المخاض؛ فلقد خلقن من أجل ذلك"<sup>2</sup> (أعمال مارتن لوثر (Works of Martin Luther)، 20.84).

- "كلمات الرب ومشيئته واضحة بجلاء؛ لقد خلقت النساء لتكون إما زوجات، وإما بائعات هوى" (أعمال مارتن لوثر (Works of Martin Luther)، 12.94).

- "خلق الرب آدم سيدياً للكائنات، ولكن حواء أفسدت هذه الميزة، عندما أفتته بتفضيل نفسه على إرادة الرب. أنتن أيها النساء، بحيلكن وتحايكن، من يقود الرجال إلى الوقوع في الخطيئة"<sup>3</sup> (عبودية الإرادة (The Bondage of the Will)، 1527).

تعليقاً على ما سبق ذكره، يتضح لنا أن حواء المذكورة في الكتاب المقدس تستحوذ على أهمية لاهوتية كبيرة، حيث تشكّل خطيئتها الموضوع الرئيس الذي تركز عليه النصرانية، وكان ارتكابها لمعصية واحدة السبب الرئيس وراء رسالة المسيح عيسى والفداء الأخير في اللاهوت النصراني، كما تسببت خطيئتها في وقوع آدم في الخطيئة، وطردهما من جنة عدن إلى الأرض. وعقاباً لهما، أصبحت الأرض نفسها مسكنًا ملعونًا، وولدت جميع الذرية بالخطيئة؛ نظرًا لأن الرب لم يقبل توبتهما؛ ولذلك، يُعتقد أن عيسى قد ضحى بنفسه على الصليب لتطهير البشرية جمعاء من هذه "الخطيئة الأصلية". وخلاصة القول، تُصوّر حواء على أنها السبب في سقوط البشرية جمعاء.

قبل الانتقال إلى القسم التالي، وبعد مراجعة العديد من هذه الآراء المؤسفة والمهينة في حق المرأة، تجدر الإشارة إلى أنها مجرد أقوال بشرية لا تستند إلى أقوال أنبياء الله أو أفعالهم، بل صدرت العديد من هذه التصريحات على ألسنة رجال دين جسدوا الآراء التي كانت سائدة في مجتمعاتهم وثقافتهم، ولكن عند مقارنة أقوالهم بأفعال عيسى ﷺ على سبيل المثال، فسرعان ما تظهر الفروق الجسيمة.

<sup>1</sup> المرجع السابق نفسه.

<sup>2</sup> إيلربي، هيلين (H. Ellerbe). (1995). الجانب المظلم من التاريخ النصراني (*The Dark Side of Christian History*). مليون، أستراليا: كتب مورنينغستار.

<sup>3</sup> لوثر، مارتن (M. Luther). (2018). الأعمال المُجمّعة لمارتن لوثر: الكتابات اللاهوتية والخطب والترانيم: الخمسة والتسعون احتجاجًا، وعبودية الإرادة، والتعليم المسيحي (-The Ninety-) (The Collected Works of Martin Luther: Theological Writings, Sermons & Hymns: The Ninety-). Amazon.com. (five Theses, The Bondage of the Will, The Catechism).

على الرغم من أن قانون الكنيسة على سبيل المثال يحرم المرأة من التعليم، فإن عيسى ﷺ نفسه كان لديه العديد من التابعات، ولم يبق معه أحد أثناء صلبه -المزعوم- سوى أتباعه من النساء وأمه، بالإضافة إلى "التلميذ الحبيب" المذكور في إنجيل يوحنا، والذي لم تُكشف هويته (إنجيل متى 27 وإنجيل يوحنا 19)، كما أن النساء، وخاصة مريم المجدلية، هن اللاتي ظهر لهن عيسى أولاً بعد ما يُقال: إنها قيامته (إنجيل مرقس 16، وإنجيل متى 28، وإنجيل يوحنا 20). ورغم تلك الحجج، لا تزال الحقيقة غامضة بسبب تباين النصوص المقدسة والآراء التي تبنتها مراجع موثوقة في الديانتين اليهودية والنصرانية.

## موقف الإسلام من المرأة – إجابات مباشرة من المصادر

قبل نزول القرآن، كانت التعاليم الدينية الحنيفة محرفة ومشوهة بسبب النظريات والتأويلات البشرية التي سادت في المجتمعات، وكانت هناك حاجة ماسة لرسالة ربانية أخرى؛ تعود بالبشرية إلى الصراط المستقيم، وتمحو من الأذهان التصورات العليقة، وتأمروهم بحسن معاملة المرأة. وليس الغرض هنا تقديم الإسلام باعتباره نداءً لليهودية أو النصرانية، بل ينبغي أن ننظر إلى الإسلام على أنه إحياء للرسالات السماوية التي سبقته.

ضمن الإسلام، منذ بدء الوحي، حقوق المرأة، وكفل لها المساواة الدينية الكاملة مع الرجل، واعتبر الرجل والمرأة شريكين في الحياة، ولكل منهما دور ومسؤوليات مختلفة تكاملية تتناسب مع إمكاناتهما وقدراتهما الجسدية والعقلية. وعندما بلغت تعاليم النبي ﷺ نساء الجزيرة العربية، عرفن أن تحريرهن سيكون بفضلها، بل إن أول من أسلم من النساء كانت السيدة خديجة ؓ، الزوجة الأولى للنبي ﷺ. ومن أبرز النساء أيضًا فاطمة بنت الخطاب ؓ، التي أسلمت قبل أخيها عمر ؓ، الذي أصبح إسلامه فيما بعد فتحًا للمسلمين، فلما وجهت النساء عبوديتها لله ﷻ، تحررن كذلك من عبادة المخلوقين، ومن برائن الظلم والاضطهاد التي فرضت عليهن من قبل. وقد ناصر النبي ﷺ حقوق المرأة، ودعمها طوال بعثته حتى آخر أيام حياته؛ حيث قال في خطبة الوداع (خطبته الأخيرة التي سلط فيها الضوء على المبادئ الأساسية للإسلام):

"... أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُؤْطِنَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكَرَّهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَلَّا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا عَيْرٍ مُبْرَحٍ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَاظٌ لَا يَمْلِكُنَّ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ... (رواه البخاري ومسلم والترمذي).

حررت المرأة أخيرًا بعد قرون من اعتبارها مواطنًا من الدرجة الثانية في جميع مجالات الحياة، فلما جاء الإسلام، أرسى حقوقها، وأقر بمساواتها مع الرجل باعتبارهما شريكين متعاونين في الحياة، وضمن لكل امرأة حقوقها، وأكسبها المكانة الرفيعة التي تستحقها، لكن كيف حدثت هذه التغييرات الجذرية والثورية في المجتمع الجاهلي؟

لم يكن تحرير المرأة في الإسلام نتيجة لحركات نسائية أو جهود بذلها الرجال، بل فرضه الله ﷻ وحيًا على البشرية كلها. فعندما كان النبي ﷺ يتلقى الوحي، كان يبلغه إلى الناس ليطبقوه في حياتهم العملية على الفور. واستمسك المسلمون بالوحي الذي ناصر حقوق المرأة، وامتثلوا لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ بحسن معاملة المرأة، وعدلوا عن آرائهم ومواقفهم السابقة عندما سمعوا آيات الله ﷻ تُتلى عليهم؛ وهذا يعني أن المرأة كُفيت عناء الكفاح من أجل حقوقها، فلم تكن هناك حاجة لإحداث ثورات ولا مسيرات ولا احتجاجات، حتى هؤلاء الرجال الذين دأبوا في الجاهلية على وأد بناتهم أحياء والانغماس في المجون والانحلال الخلقي مع النساء، باتوا الآن رحماء أقياء، نادمين على ما قدمته أيديهم من ذنوب، فسمعوا كلام النبي ﷺ واقتدوا به حين قال:

"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (رواه الترمذي).

قصة آدم وحواء من بين القصص الأولى التي ورد ذكرها في القرآن، ولكي يشكل القارئ انطباعًا أوليًا عن

موقف الإسلام إزاء المرأة يجب أن يتعرف على تلك القصة منذ البداية.

### قصة حواء: المنظور الإسلامي

عندما نزل القرآن، أبطلت جميع المفاهيم السابقة عن الطبيعة الخبيثة للمرأة، وتبين ذلك أولاً في قصة آدم وحواء التي ذكرت في عدة مواضع من القرآن: كآيات الآتية:

قال الله ﷻ: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (سورة الأعراف: 19-23).

بمقارنة الروايتين لقصة الخلق، تظهر بعض الفروق المهمة؛ فعلى عكس الكتاب المقدس، يلقي القرآن باللوم على آدم وحواء معاً في معصيتهما. فطبقاً للوصف القرآني لقصة الخلق، لا يقع اللوم على حواء وحدها في ارتكاب الخطيئة، كما لم تُفرض آلام الحيض والولادة عليها كنوع من العقاب، بل من المنظور الإسلامي، كان سقوط الإنسان من الجنة مُقدراً ومعروفاً لجميع أهل السماء؛ حيث خُلِقَ البشر لامتحانهم وابتلائهم.

### المساواة الروحية بين الرجل والمرأة

يبين الإسلام صراحة أن جميع البشر أصلهم واحد، وقد ذكرت هذه الحقيقة في الآيات القرآنية الآتية:  
قال الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...} (سورة النساء: 1).

وقوله ﷻ:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...} (سورة الحجرات: 13).

### تكافؤ الفرص في الجزاء على الأعمال الصالحة

عندما ينظر المرء إلى ما يقوله القرآن عن الوضع الروحي للمرأة، يتضح له أن المفهوم الإسلامي للمرأة يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم أي دين آخر، كما في قول الله ﷻ:

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِمِينَ وَالصَّانِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (سورة الأحزاب: 35).  
{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...} (سورة آل عمران: 195).

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...} (سورة غافر: 40).

بات جليًا أن الإسلام يسوي بين المرأة والرجل كليهما في القيمة الروحية؛ فالله ﷻ خلق الذكر والأنثى للغاية ذاتها؛ وهي عبادته ﷻ والعيش باستقامة وتقوى، فكلاهما سيحاسب وفقًا لهذين المعيارين. وبالنظر الدقيق في القرآن وأحاديث النبي ﷺ، لن يجد المرء أي ذكر للمرأة بوصفها "مدخلًا للشيطان"، أو بأنها "مخادعة" بفطرتها.

ووفقًا للقرآن والسنة، لا يقتصر دور المرأة في هذه الحياة على الإنجاب فحسب، بل يُتاح أمامها العديد من مجالات العمل التي تشجعها الشريعة الإسلامية على دخولها (طلب العلم، والرعاية الطبية للنساء بصفتهم طبيبات وقابلات وممرضات، والتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة والتعليم الثانوي، وتقديم المشورة، على سبيل المثال لا الحصر). ومن أمثلة التوسع في دور الأنثى خلال حياة النبي ﷺ: رفيده الأسلمية ﷺ الشجاعة، وهي صحابية جليلة أشرفت على مداواة الجرحى وتطبيبهم في المدينة النبوية، وقد ورد ذكرها في الحديث النبوي، حيث أمر النبي ﷺ بنقل الجرحى إلى الخيمة الطبية لرفيده ﷺ التي أذن بنصبها داخل المسجد نفسه (الأدب المفرد، والسلسلة الصحيحة)، كما شاركت نساء أخريات في ذلك الوقت في القتال في الغزوات عند الضرورة.

امتدح الإسلام نماذج نسائية سالحة، وأقر النبي ﷺ بفضل العديد من النساء في زمانه وقبله، وأثنى عليهن، وأثنى ﷺ في حديث على خديجة (زوجه)، وفاطمة (ابنته)، وآسيا (امرأة فرعون المؤمنة في زمن موسى)، ومريم العذراء ﷺ باعتبارهن أربع نساء قد بلغن درجة الكمال في إيمانهن<sup>1</sup>. كما أمر الله ﷻ جميع المؤمنين والمؤمنات في القرآن بالاعتناء بهؤلاء النساء الفضليات، مثل: مريم العذراء وآسية زوجة فرعون:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِلِينَ} (سورة التحريم: 11-12).

تتساوى أيضًا قيمة العبادات الروحية للنساء والرجال، بل قد تفوق أعمالهن أعمال الصالحين من الرجال؛ إذ يقول الله ﷻ:

{... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ...} (سورة الحجرات: 13).

توضح هذه الآية أنه لا فضل لأحد على أحد بسبب العرق أو الجنس أو الثروة أو العقل أو النسب، وإنما معيار التفاضل هو صلاح المرء وتقواه، وقد روي أن النبي ﷺ قال:

"تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ" (رواه مسلم).

ولو كانت قيمة المرأة مقتصرة على إنجاب الأطفال، لنصح النبي ﷺ باختيار الفتاة ذات الجمال! وإنما غرس الاحترام والإعجاب بالمرأة ذات الدين في أذهان الرجال وقلوبهم، وحثهم على النكاح من أجل الدين والصلاح. وقد شدّد على هذه النقطة في حديث آخر ذكر فيه النبي ﷺ أن المرأة الصالحة خير متاع في هذه

<sup>1</sup> عن ابن عباس ﷺ قال: "خط رسول الله ﷺ أربعة خطوط ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون" (أخرجه أحمد).

الدنيا، فقال ﷺ: "الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ" (رواه مسلم).

تحظى المرأة بتقدير ومكانة كبيرة في الإسلام؛ حتى أصبح حسن معاملة الزوجة معيارًا للحكم على فضل الرجل وإيمانه؛ إذ قال النبي ﷺ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ..." (رواه الترمذي).

بعد أن علمنا تساوي المرأة مع الرجل في الجانب الروحي، دعونا نراجع إذن قيمة حياة المرأة في الإسلام.

### الحق في الحياة والكرامة

منذ بزوغ فجر الإسلام، سُوي بين الرجل والمرأة من حيث قيمتهما في الحياة والغاية منها، وما كانت جريمة وأد البنات أحياء في الجزيرة العربية لتنتهي للأبد لولا استهجان القرآن لها وتحريمها؛ إذ قال الله ﷻ:

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} (سورة الإسراء: 31).

{يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (سورة النحل: 59).

ينظر القرآن إلى ولادة الابن أو البنت باعتبارها هبة ونعمة من الله ﷻ، ويذكر هبة ولادة الأنثى قبل الذكر، فيقول ﷻ: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} (سورة الشورى: 49).

ولقد شدد النبي ﷺ على أهمية المعاملة العادلة بين البنات والأبناء، وعدم التمييز بينهم، ووعد الأب الذي يسوي بين أولاده في المحبة والإحسان والعناية بالجنة، وعلمنا ﷻ ما يلي:

"مَنْ ابْتَلَى مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كَنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ" (متفق عليه).

"مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ" (رواه مسلم).

"مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، يُؤْوِيهِنَّ، وَيُكْفِيهِنَّ، وَيَرْحَمُهُنَّ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ: وَثْنَتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَثْنَتَيْنِ" (صحيح الأدب المفرد).

وعن عائشة ﷺ قالت: "جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ" (رواه مسلم).

### الأمومة في الإسلام: أكثر من "مجرد ربة منزل"

من أكثر التطورات المعاصرة الباعثة على الأسف الاتجاه المتعالي والمهين نحو النساء اللاتي يتفرغن لتربية أطفالهن وإقامة البيت، وكثيرًا ما نرى النساء اللواتي يخرجن لحضور مناسبات اجتماعية، حيث تتباهى



النساء الأخريات بحياتهن المهنية، يقلن بنعمة يصاحبها الشعور بالعار: إنها "مجرد ربة منزل"، ولكن منذ متى أصبحت مهمة إعداد الأجيال القادمة والتفاني في تربيتهم أمرًا باعثًا على الخزي والحرج؟ والواقع المزري هو الذي أدى إلى تربية كثير من أطفال اليوم على يد غرباء، مثل: العاملين في مجال الرعاية النهارية، والمربيات، وجليسات الأطفال، بينما يتفرغ الوالدان لطموحاتهما العملية أو الأكاديمية؛ أفلا تدعو حالات التآكل والتفكك التي آل إليها الهيكل الأسري أو الزيادة في معدلات الحمل بين المراهقات (الذي يدل على انتشار التحرر الجنسي بدرجة كبيرة) إلى التعجب؟ لقد أغفلنا الأهمية البالغة للأم في مجتمعنا المادي اليوم.

ومن أسباب هذا الإغفال في الوقت الحاضر عدم احترام الأمومة وعدم الاكتراث بها، وعلى الرغم من أن الوصايا العشر التي تشدد على أهمية الأم في معظم النصوص المقدسة لا يضاهاها نصوص أخرى في الكتب السابقة، فإن الإسلام ضمن للأم الكرامة والاحترام والتقدير بصورة لا مثيل لها على الإطلاق؛ ولذا قرن القرآن البرَّ بالوالدين والإحسان إليهما بعبادة الله؛ إذ يقول ﷺ:

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} (سورة الإسراء: 23-24).

وقد أكد رسول الله ﷺ كثيرًا في حديثه مع أصحابه وأتباعه ﷺ على الشرف والكرامة التي مُنحت للأم، ففي أحد الأحاديث النبوية، سئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ والتي ينبغي على المسلم المواظبة على أدائها؛ فأجاب بأن أحب الأعمال هي الصلاة على وقتها، ولما سأله الشخص نفسه عن العمل الذي يلي الصلاة من حيث الأهمية، أجابه النبي ﷺ: "برُّ الوالدين" (رواه البخاري).

وفي حديث آخر، فضل النبي ﷺ برَّ الأم وخدمتها على الجهاد في ساحة المعركة؛ فقد روي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: "يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها؛ فإن الجنة تحت رجلها" (رواه النسائي، وابن ماجه).

وخلافاً للنصوص اليهودية المسيحية، يركز القرآن بصفة خاصة على عظم دور الأم في إنجاب أولادها ورعايتهم؛ إذ يقول الله ﷻ: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (سورة لقمان: 14).

وقد أوضح النبي ﷺ المكانة المتميزة التي تحتلها المرأة في الإسلام عندما جاء إليه رجل وسأله: "يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك" (رواه البخاري).

وكان النبي ﷺ يتجوّز حتى في صلاة الفريضة عندما يصلي مع أصحابه مراعاة للأمهات اللاتي يصلين في الجماعة ومعهن أطفالهن، قائلاً: "إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فاتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه" (رواه البخاري).

وعلى الجانب الآخر، يُعدّ عقوق الوالدين من كبائر الذنوب في الإسلام، وقد خُصّصت كبيرة العقوق هذه بالأم لإظهار مدى أهميتها ومكانتها الرفيعة؛ فقد علّم النبي ﷺ أصحابه الحديث الآتي، قائلاً:  
"إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ... " (رواه البخاري).

## مسائل خاصة بالمرأة: مقارنات تفصيلية

خلال هذا الفصل سنناقش مراجع تاريخية شاملة وتفسير الكتاب المقدس، وبالتحديد في البحث الذي سنذكره في هذا القسم. وقد نجد تصريحات أدلى بها هذا الحاخام الموقر أو ذاك القديس النصراني أو أحد آباء الكنيسة، وقد يكون الأمر مربكاً بعض الشيء؛ ورغم ما يحظى به هؤلاء العلماء البارزون من احترام، يعتقد بعض أتباع اليهودية والنصرانية اليوم أن هذه المراجع لا تعني لهم شيئاً.

لا شك أن اليهودية والنصرانية كذلك إلى حد كبير قد تطورتا على مدار الألفي سنة الماضية، ونتيجة لهذا التطور، تلاشت بعض الآراء والأحكام التي كانت في السابق جزءاً من هذه النصوص الدينية لهاتين الديانتين منذ فترة طويلة؛ فلماذا إذن تُناقش الأفكار والتفسير القديمة؟ لأن هذا التاريخ كله يفودنا إلى استنتاج مهم للغاية.

منح الإسلام المرأة كافة حقوقها التي ضمنت كرامتها بالاستناد إلى النصوص الدينية التي نزلت في حقها، ولم يضطر المسلمون قط إلى تغيير نصوصهم الدينية أو إعادة تفسيرها بحجة محو الآراء التي عفا عليها الزمن أو بدعوى رفع الظلم البين. أما علماء اليهود والنصارى رغم رسوخ علمهم وتعبدهم؛ فهؤلاء في أغلب الأحوال أقحموا ممارساتهم وآراءهم المجتمعية في النصوص المقدسة، وأدت هذه الممارسة بعد ذلك إلى اضطراب النساء اليهوديات والنصرانيات إلى النضال من أجل الحصول على حقوقهن التي منحها الله ﷻ لهن، إما بإعادة تفسير النصوص المقدسة، أو بنبذها وراء ظهورهم لصالح القوانين العلمانية، ولذلك كانت الدقة التاريخية لهذه المسائل معياراً أساسياً لإظهار كل من المواقف الأصلية التي اتخذها العلماء اليهود والنصارى بشأن هذه القضايا، فضلاً عن التغييرات التي اضطروا إلى إحداثها.

## التعليم

هناك أدلة كثيرة في اليهودية تشير إلى استهجان دراسة النساء للكتب المقدسة الدينية، ومن ثمّ تعليمهن الدين؛ حيث يقول التلمود في قسم قدوشين 29 ب:

"كيف لنا أن نعرف أن [الأم] ليس من واجبها تعليم أبنائها؟ لأنه مكتوب، [وَعَلِّمُوهَا]، والذي ينص أيضاً على [تَلْهَجُ فِيهِ]: لذلك من يُؤمر بالتعلم، مأمور كذلك بالتعليم، ومن لم يُؤمر بالتعلم فغير مأمور بالتعليم. وكيف نعرف أنها ليست ملزمة بتعليم نفسها؟ لأنه مكتوب، [وَعَلِّمُوهَا] - [لِكَيْ تَتَعَلَّمَ]: الشخص الذي يُؤمر غيره بتعليمه مأمور بتعليم نفسه، والشخص الذي لا يُؤمر غيره بتعليمه غير مأمور بتعليم نفسه؛ فكيف نعرف إذن أن غيرها غير مأمورين بتعليمها؟ لأنه مكتوب: "وَعَلِّمُوهَا أَوْلَادَكُمْ" - وليس بناتكم".

وهكذا استنتج أحبار اليهود إعفاء المرأة من وصية تعلم التوراة في ثلاثة جوانب:

1. المرأة غير مأمورة بتعليم أبنائها التوراة.
2. المرأة غير مأمورة بتعلم التوراة بنفسها.
3. الأب غير مأمور بتعليم بناته التوراة.

يقول الحاخام إيلعازر (Eliezer)<sup>1</sup>؛ أحد علماء القرن الأول الميلادي في هذا الصدد: "كل من يعلم ابنته

<sup>1</sup> الحاخام إيلعازر بن هوركونوس (Eliezer ben Horkonus)، عالم يهودي من الجيل الثاني (القرن الأول الميلادي)، تنتع نسبه لعشرة أجيال إلى نبي

التوراة، فكأنه يعلمها الفحش (تترجم أحياناً - كأنه علمها المجون)<sup>1</sup> (التلمود البابلي: المشنا سوتا: 3، 4).

زعم أحابار اليهود أن النساء ناقصات عقل، وغير قادرات على تولي مهمة تعلّم النصوص المقدسة، فمثلاً: نقرأ في كتابات الحبر موسى بن ميمون (Maimonides) أحد علماء القرن الثاني عشر الميلادي، الذي تُعتبر أعماله وآراؤه حجر الأساس الذي يرتكز عليه الفكر اليهودي الأرثوذكسي حتى اليوم، ما يلي:

"تُوجر المرأة التي تتعلّم التوراة، ولكن ليس بقدر أجر الرجل، فهي غير مأمورة بذلك، وكل من يفعل ما لم يُؤمر به لا ينال نفس أجر من يؤمر به، وإنما أجره أقل. ورغم حصولها على الأجر، فقد أمر العلماء الآباء بعدم تعليم بناتهم التوراة؛ لأن معظم النساء ليس لديهن ميل لتعلم أي شيء، وبسبب سوء فهمهن يحوّلن التوراة إلى هراء! وقال علماؤنا: إن من يعلم ابنته التوراة فهو كالذي يعلمها أشياء تافهة وغير مهمة. فما الذي كانوا يشيرون إليه؟ إنها التوراة التي تُدرس شفهيًا، ولكن إذا علّمها التوراة المكتوبة، فليس ذلك من تعليم المجون في شيء (تيفلوت)<sup>2</sup> [هيكوت تلمود تورا 1:13]."

وبخصوص هذه النقطة، تنص شرائع الناموس اليهودية المعروفة باسم "المشنا" بوضوح على ما يلي:

"لحرق مخطوطات التوراة [الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم] خير من أن نسلمها للنساء"<sup>3</sup> [التلمود البابلي سوتا، 10].

وعلى النقيض من ذلك، تذكر الأناجيل أن عيسى ﷺ لم يعلم النساء فحسب، بل بلغ به الأمر أن مدح امرأة بعينها (مريم أخت مرثا في إنجيل لوقا 10: 38-42)؛ لحرصها على التعلّم مقارنة باهتمام أختها بخدمة الضيوف؛ ومع ذلك، استمرت النصرانية بصفة عامة في اتّباع العرف اليهودي من حيث الحد من فرص تعليم النساء، كما يظهر جلياً في تعليمات بولس الرسول في العهد الجديد. ويجب أن نتذكر أن النصرانية تركز على العهد القديم الذي هو منبع العديد من الوصايا القانونية اليهودية، ومن ثمّ ينبغي أن يكون هناك فرق بسيط بين الديانتين من الناحية الشرعية، كما ثبتت صحة ذلك من الناحية التاريخية؛ فبماذا تخبرنا كتابات القديس بولس عن تعليم النساء؟ هناك مقطعان رئيسان يشير إليهما النقاد في هذا الصدد.

"لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَأْدُونًا لِهِنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا، وَلَكِنْ إِنْ كُنَّ يُرَدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 14: 34-35).

"لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ، وَلَكِنْ لَسْتُ أَدْنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلَا تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ، لِأَنَّ آدَمَ جَبَلٌ أَوَّلًا ثُمَّ حَوَاءٌ، وَآدَمُ لَمْ يُعْو، لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي، وَلَكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلَادَةِ الْأَوْلَادِ، إِنْ تَبُنَّتْ فِي الْإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقِدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ"<sup>4</sup> (رسالة بولس الرسول الأولى إلى

الكتاب المقدس عزرا، واعتبره العديد من اليهود أحد المعلمين العظماء في فترة المشنا، وكان معروفًا في التلمود ببساطة باسم الحاخام إيعازر على الرغم من وجود إشارات إليه باسم الحاخام إيعازر الأكبر.

<sup>1</sup> سويدلر، ليونارد (Swidler, L). (1979). العبارات التشجيعية للمرأة في الكتاب المقدس (Biblical Affirmations of Woman). وستمنستر: مطبعة جون نوكس.

<sup>2</sup> مارك أنغل (Angel, M.D). (2009). موسى بن ميمون وسبينوزا ونحن: نحو يهودية نابضة بالحياة فكريًا (Maimonides, Spinoza and Us: Toward an Intellectually Vibrant Judaism). وودستوك: دار الأنوار اليهودية للنشر.

<sup>3</sup> سويدلر، ليونارد (Swidler, L). (1979). العبارات التشجيعية للمرأة في الكتاب المقدس (Biblical Affirmations of Woman). وستمنستر: مطبعة جون نوكس.

<sup>4</sup> تعليق: عندما يحث الرسول المسيحيات على أن يسألن أزواجهن في البيت عن أية معلومة دينية، فهذا يدل على أن الأسر المؤمنة يجب أن تجتمع لتعزيز العلم الروحي بينها... إن السبيل للحفاظ على السلام والحق والنظام في الكنيسة، هو السعي وراء ما فيه نفعها، والصبر على ما لا يضر بمصالحها، والحفاظ على حسن السلوك والنظام والحشمة. (التفسير المختصر لمتى هنري (Matthew Henry's Concise Commentary، 1706).

تيموثاوس 2: (11-15).

أما في الإسلام؛ فلا يُسمح للمرأة بالتعليم فحسب، بل اعتُبر فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ إذ إن الإسلام دين العلم والمعرفة، ولقد شددت الآيات الخمس الأولى التي نزلت من القرآن على النبي ﷺ على أهمية القراءة باعتبارها مفتاح العلم والفهم، فيقول الله ﷻ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (سورة العلق: 1-5).

لا بد أن نفهم من هذه الآيات أن الله لم يميّز بين الرجل والمرأة؛ ففضل العلم حُسم لصالح كل من يسعى في طلبه، ولم يقتصر على الرجال، وليس طلب العلم مجرد تشجيع للمرأة على سلوك هذا الطريق، وإنما فرض عين عليها، صغيرة كانت أم كبيرة، غنية أم فقيرة؛ إذ قال النبي ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (أخرجه ابن ماجه).

اهتم النبي ﷺ بتعليم النساء حتى أمر الرجال الذين وفدوا إليه من الأفاصي بالتعلم منه مباشرة، ونقل ما تعلموه إلى نسائهن:

حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ أَبُو سُلَيْمَانَ، قَالَ: "أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَابَةٌ مُتْقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا -أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا- سَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرَنَا، قَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ... " (متفق عليه).

ولا يفرض الإسلام أي قيود على تعلم المرأة، وهو ما أتاح لها الوصول إلى أعلى المناصب التعليمية على مرّ التاريخ الإسلامي. وبذلت السابقات في الإسلام جهودًا في طلب العلم والعمل به، وخصص النبي ﷺ وقتًا لتعليم النساء أمور دينهن بناءً على طلبهن، كما أقر الإسلام بعلم المرأة في عصر لم تنتج لها فيه فرصة التعلم، فضلًا عن التعليم. وقد تتفوق المرأة في بعض الأحيان على الرجل في تعلم العلوم الإسلامية، بل كانت كذلك في الواقع، وليس من المبالغة أن نقول: إن المرأة شاركت في التعليم وتطوير الفكر الفقهي الإسلامي منذ زمن النبي ﷺ.

كما أوضحنا سابقًا، يتألف الوحي في الإسلام من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية معًا، وكانت الأحاديث النبوية من أكثر النصوص التي خضعت للرعاية والحفظ بأعلى درجات الدقة على مدار التاريخ الإسلامي كله. لقد كانت للمحدثين مكانة خاصة منذ فجر التاريخ الإسلامي، ويرجع ذلك إلى قوة حفظهم وضبطهم المذهل، ولأن علمهم ومؤلفاتهم حفظت علم الحديث من التحريف والتلفيق؛ ومن المثير للدهشة أن عددًا من هؤلاء العلماء الكرام الأجلاء كانوا في الواقع نساءً مسلمات.

منذ فجر التاريخ الإسلامي كان للمرأة المسلمة دور مهم في حفظ الحديث من الضياع، وقد ورثت التابعيات بعدهن هذه المهمة بنفس القدر من الاهتمام والعمل على مرّ القرون، بل في كل جيل من أجيال التاريخ الإسلامي كان هناك العديد من المحدثات البارزات، حيث كان إخوانهن الرجال يعاملونهن بأقصى درجات التوقير والاحترام، ليس بصفتهن معلّماتهن الجليلات فحسب، ولكن أيضًا بصفتهن أقرانهن وطلابهم في بعض الحالات الأخرى.

وخلال حياة النبي ﷺ، وردت أشهر أحاديث النبي ﷺ عن عدد كبير من النساء، وكان أيضًا من نقل هذه الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ إلى إخوانهم المسلمين والمسلمات، وبعد وفاة النبي ﷺ كان يُنظر إلى العديد من الصحابيات، ولا سيما زوجات النبي المطهرات، على أنهن الحافظات الأساسيات لهذا العلم، وقد اعتمد الصحابة الآخرون عليهن للتعلم منهن، فقدمن لهم دون ترددٍ دررًا نفيسة من الفهم والحكمة التي جمعنها خلال صحبتهن للنبي ﷺ. ولا تخفى على طلاب الحديث أسماءً، كالسيدة عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وميمونة، وأم حبيبة، أولئك اللاتي كنّ من أوائل رواة الحديث وأبرزهن. وتُعد عائشة ﷺ - على وجه الخصوص - واحدة من أكثر الشخصيات الرئيسية في جميع كتب السنة النبوية، ليس باعتبارها واحدة من الرواة الأكثر رواية للحديث فحسب<sup>1</sup>، ولكن باعتبارها واحدة من أعلم المفسرين لأحاديث النبي، وأكثرهم موثوقية كذلك.

ولم تكن عائشة ﷺ "أم المؤمنين"<sup>2</sup> - كما ورد اسمها في القرآن - نموذجًا للزوجات والأمهات فحسب، بل كانت أيضًا مفسرة بارزة للقرآن، وحجة في الحديث، وعلى دراية كبيرة بعلوم الشريعة الإسلامية والأدب والتاريخ العربي. ونقول للذين يشككون في دور المرأة في الإسلام: عليكم أن تتأملوا كيف كانت السيدة عائشة ﷺ تُستفتى بصفة دورية في شتى أمور الدين، وعلى نحو يفوق الحصر، سواء خلال حياة النبي ﷺ أم حتى بعد وفاته.

رُوي عن أبي موسى الأشعري، أحد أشهر الصحابة، ومن كبار علماء الإسلام في صدره الأول، أنه قال: "ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة، إلّا وجدنا عندها منه علمًا" (موطأ الإمام مالك).

"كما قال العالم التابعي الجليل عروة بن الزبير: "ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن، ولا بفريضة، ولا بحلال ولا حرام، ولا شعر ولا نسب من عائشة ﷺ". لهذا السبب نجد حتى كبار صحابة النبي ﷺ يستفتون عائشة ﷺ للبت في القضايا المعقدة" (ابن القيم وابن سعد، جلاء الأفهام، المجلد الثاني، الصفحة 26). كما قال العالم الجليل ابن حجر، أحد علماء القرن الثامن الهجري، عن عائشة: "... حتى قيل: إن ربع الأحكام الشرعية منقول عنها ﷺ"<sup>3</sup>.

تقف السيدة عائشة ﷺ شامخة في علم الحديث؛ حيث روت 2210 من الأحاديث الصحيحة (أكثر من أي صحابي آخر سوى أبي هريرة وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك)، كما روى عنها أكثر من 300 راوٍ للحديث<sup>4</sup>. ومن ثم، فقد أسهمت إسهامًا كبيرًا وقيمًا، ليس في الحفاظ على السنة النبوية لخاتم أنبياء الله فحسب، ولكن أيضًا في جميع العلوم الإسلامية بصفة عامة؛ فهي بلا شك واحدة من أبرز الشخصيات، ليس في التاريخ الإسلامي وتاريخ المرأة فحسب، ولكن في تاريخ العالم بأسره.

على الرغم من أن عائشة ﷺ كانت أبرز المحدثات من جيل صحابة النبي ﷺ، فإنها لم تكن بأي حال العالمة

<sup>1</sup> احتلت المرتبة الرابعة من بين الصحابة الأكثرين للرواية؛ إذ روت 2210 أحاديث عن النبي ﷺ.

<sup>2</sup> أطلق على جميع زوجات النبي ﷺ لقب "أم المؤمنين"؛ لمكانتهن وشرفهن.

<sup>3</sup> جيسينجر، آش (Geissinger, A). عائشة بنت أبي بكر وإسهاماتها في تكوين التراث الإسلامي ('A'isha bint Abi Bakr and her Contributions to the Formation of the Islamic Tradition) | Ash Geissinger - Academia.edu (PDF) البوصلة الدينية 1/5 (2011): 37-49. مُقتبس من: "A'isha bint Abi Bakr and Her Contributions to the Formation of the Islamic Tradition" | Ash Geissinger - Academia.edu

<sup>4</sup> الندوي، محمد أكرم (Nadwi, M.A) (2007). المحدثات النساء في الإسلام (Al-Muhaddithat: the Women Scholars in Islam). أكسفورد: مطبوعات الملتقى.

الوحيدة البارزة وذات العلم الراسخ. ويقدم أحد أشهر علماء ومؤلفي القرن الثامن، وهو ابن القيم، سرداً تفصيلياً لاثنتين وعشرين صحابية عُرِفَ عنهنَّ اشتغالهنَّ بالفتاوى الدينية في السنوات التي تلت وفاة النبي ﷺ مباشرة<sup>1</sup>.

كما شغلت النساء في عصر التابعين مناصبَ حيوية بصفتهن عالمات متبحرات في جميع العلوم الإسلامية، ولا سيما علم الحديث، وشهد أواخر القرن السابع الهجري (بعد أقل من نصف قرن على وفاة النبي ﷺ) ظهور العديد من كبار المحدثات البارزات، مثل: حفصة بنت سيرين (التي حفظت ما يربو على نصف مليون حديث)، وأم الدرداء الصغرى، ومعاذة العدوية، وبنت عبد الرحمن بن سعد؛ فهؤلاء كنَّ من التلميذات النجيبات لعائشة زوج النبي ﷺ. وبالإضافة إلى أن عمرة وحفصة كانتا من أشهر المحدثات، فقد كانتا فقيهتين كذلك، وبرزت حفصة في تفسير القرآن وعلومه، وكان قتادة -المفسر القرآني المعروف- أحد تلاميذها.

وفي العقود التي تلت، جاءت عالمات أخريات، مثل: عابدة المدنية، وعبدة بنت بشر، وأم عمر الثقفية، وزينب حفيدة عبد الله بن عباس، ونفيسة بنت الحسن بن زياد، وخديجة أم محمد، وعبدة بنت عبد الرحمن، والعديد من النساء المسلمات الأخريات اللاتي اشتهرن بحلقات التدريس العامة في علم الحديث. وتنوعت بيئات هؤلاء النسوة التقيات العالمات؛ مما يدل على أن الطبقة والجنس لم يشكلا عقبة أمام الترقى في صفوف علماء الإسلام.

استمر هذا التعاون بين النساء والرجال في ميدان جمع السنة النبوية وحفظها حتى القرن التاسع الميلادي، عندما جُمعت أعظم مصنفات الحديث الرئيسية. ويؤكد التحليل التفصيلي لهذه المصنفات الأساسية أن جميع مصنفي الحديث الأوائل تلقوا قسطاً كبيراً من تعليمهم من محدثات، بل يسرد كل مصنف من مصنفات الحديث النبوي المتداول في وقتنا الحاضر أسماء العديد من النساء بصفتهنَّ العالمات أو الراويات اللاتي روين الأحاديث وشرحنها لمؤلفي هذه المصنفات الرئيسية؛ وحتى بعد جمع هذه الكتب الرئيسية، كان العديد من المحدثات الأخريات يتعلمن هذه الكتب لاحقاً، ثم ينقلن العلم الذي اكتسبته من خلال تدريس تلك الكتب في المجالس العامة لأعداد كبيرة من طلاب العلم وطالباته اللاتي سيصدرن لهم "الإجازات" في هذه الكتب.

كانت كريمة المروزية واحدة من هؤلاء المحدثات المتميزات، حيث عاشت في القرن الحادي عشر الميلادي، واعتُبرت حجة في صحيح البخاري (جامع الأحاديث الصحيحة للمحدث محمد البخاري) في عصرها، بل كان من بين العديد من تلاميذها العالمان المشهوران الفذان: الخطيب البغدادي، والخميدي<sup>2</sup>.

كتب د. محمد زبير صديقي (Muhammad Zubayr Siddiqi) ما يلي فيما يتعلق بالمحدثات المتأخرات في كتابه المتميز "الحديث النبوي: نشأته وتطوره وسماته الخاصة ونقده" (*Hadith Literature: Its Origin, Development, Special Features & Criticism*):

"يقدم ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة" العديد من التراجم المختصرة لنحو 170 عالمة بارزة في القرن الثامن، تخصص معظمهن في علم الحديث، وقد تتلمذ المؤلف نفسه على يد العديد منهن. واعتُرف ببعض

<sup>1</sup> الجوزية، ابن القيم (دون تاريخ) إعلام الموقعين عن رب العالمين. بيروت: دار الكتب العلمية.  
<sup>2</sup> تزعم العديد من الكاتبات "النسويات المسلمات" المعاصرات زوراً ودون مبرر أن الممارسات الشرعية والمجتمعية الإسلامية المبكرة كانت نتيجة مباشرة للهيمنة الذكورية على العلم، ومن ثمَّ تفسير النصوص المقدسة الأساسية (القرآن والحديث)؛ ومع ذلك، ومن خلال الاستعراض الخاطف لتاريخ العلوم الإسلامية نكتشف أن أصح كتب الحديث، صحيح البخاري، تلقاه الرجال في عدد من الحالات عن بعض النساء، كما ذكر بعض العلماء المتأخرين الذين قدموا شروحات على صحيح البخاري، أمثال العالم الفلسطيني الشهير: ابن حجر، عدداً من العالمات اللواتي كنَّ شيوخات لهم، وساعدت هؤلاء الشيوخات ابن حجر في فهم آلاف الأحاديث النبوية ما سمح له بتأليف كتابه الشهير في شرح صحيح البخاري (فتح الباري).

هؤلاء النساء على أنهم أفضل علماء الحديث في عصرهم، وعلى سبيل المثال: درست المحدثّة المشهورة جويرية بنت أحمد سلسلة من كتب الحديث على يد علماء وعالمات ممن كانوا يدرسون في أكبر الجامعات في تلك الفترة، ثم تقدمت لإلقاء العديد من المحاضرات في عدد من فروع العلوم الإسلامية، ويقول ابن حجر: "وَسَمِعَ مِنْهَا بَعْضَ مَشَايِخِنَا وَكَثِيرٍ مِنْ أَقْرَانِنَا". وكانت عائشة بنت عبد الهادي، التي كانت واحدة من شيوخات ابن حجر لفترة طويلة، من أفضل المتخصصات في علم الحديث في عصرها، وكان العديد من الطلاب يقطعون مسافات طويلة من أجل الجلوس أمامها ودراسة علوم الإسلام.

كما يذكر ابن عساکر، مؤرخ دمشق الشهير، أنه تلقى العلم عن أكثر من ألف ومائتي شيخ وثمانين شيخة، ونال إجازته في "الموطأ" للإمام مالك على يد عالمة زينب بنت عبد الرحمن، كما درس جلال الدين السيوطي رسالة الإمام الشافعي على يد هاجر بنت محمد، وقرأ عفيف الدين الجُنيد، أحد العلماء المحدثين في القرن التاسع الهجري، سنن الدارمي على فاطمة بنت أحمد بن القاسم... وهلم جرا<sup>1</sup>.

كانت زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرّانية -التي كانت واحدة من العالمات البارزات في القرن الرابع عشر، وهي من دمشق، وشيخة ابن تيمية، والمحدث الشهير المرّي، وغيرهما- من أبرز العالمات خارج مجال الحديث النبوي. وكذلك زينب بنت سليمان بن إبراهيم الإسعري، التي كانت من بين معلمي عالمين جليلين في منتصف القرن الرابع عشر؛ هما: السبكي، والذهبي. وتلقت زينب صحيح البخاري عن العلامة ابن الزبيدي. وهذا بالإضافة إلى فاطمة بنت عباس الحنبليّة، وهي فقيهة بارزة في منتصف القرن الرابع عشر في المذهب الحنبلي، فلقد عملت مفتية في دمشق ثم في القاهرة. ومن العالمات المتأخرات حنيفة بنت عبد الرحمن بن القمني، ومليكة بنت شرف الدين بن عبد الله المقدسي، وأم عمر بنت تقي الدين رافع السلامي من علماء القرن الخامس عشر، وقد تتلمذ على أيديهن العالمان الجليلان جلال الدين السيوطي وابن حجر.

ومما سبق نستنتج أن المسلمات، منذ عهد النبي ﷺ وحتى القرن الخامس عشر على الأقل، كنّ يلقين كل احترام وتبجيل من أقرانهن الرجال؛ ليس على أساس المساواة في العبودية أمام الله فحسب، ولكن أيضاً باعتبارهن شيوخات لعلماء أجلاء وأقرانهن المتعاونات في تدريس أمهات الكتب، مثل: صحيح البخاري. وفي تناقض صارخ مع الديانات الأخرى التي تعايشت مع الإسلام والتي قيّدت دراسة النساء للكتب المقدسة أو منعهنّ من تعلمها، كرم الإسلام المرأة، وأباح لها دراسة القرآن الكريم، وكلفها بمهمة حفظ المعاني العميقة التي تضمنها وشرحها لطلاب العلم وعمامة المسلمين على حد سواء. وما كانت لتكتمل أصول الإسلام، خاصة فيما يتعلق برواية الأحاديث النبوية ﷺ وحفظها، لولا الإسهامات الجليلة التي قدمتها المرأة المسلمة على مرّ التاريخ.

### تعدد الزوجات

تشير الأدلة المستمدة من الكتب المقدسة إلى أن تعدد الزوجات، على الرغم من عدم شيوعه، لم يكن عرفاً غريباً بين العبرانيين القدماء، ولم يكن محرّماً أو مستهجناً. ويوثق الكتاب المقدس نحو أربعين شخصاً ممن تزوجوا بأكثر من زوجة، بمن فيهم الأنبياء: إبراهيم، وموسى، ويعقوب، وعيسو (الأخ التوأم ليعقوب)، وداود ﷺ. وتتطرق التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) إلى مسألة تعدد الزوجات في حالات أخرى أيضاً؛ مثل: زواج الأرملة من شقيق زوجها، حيث يُجبر الرجل على الزواج من أرملة شقيقه المتوفى

<sup>1</sup> صديقي، محمد زبير (Siddiqi, M.Z). (1961). الحديث النبوي: نشأته وتطوره وسماته الخاصة ونقده (Hadith Literature: Its Origin, Development, Special Features & Criticism). كامبريدج: جمعية النصوص الإسلامية.



وإعالتها:

"إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، فَلَا تَصِرْ امْرَأَةُ الْمَيِّتِ إِلَى خَارِجِ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، وَيَقُومُ لَهَا بِوَأَجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيِّتِ، لِئَلَّا يُمَحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلَ" (سفر التثنية 25: 5-6).

ولقد حرّمت اليهودية في الوقت الحاضر تعدد الزوجات بسبب تحريم حاخامي أعلن عنه في القرن الحادي عشر؛ ورغم ذلك، لم تتوقف بعض الطوائف اليهودية -السفارديم والمزراحيين- عن ممارسة التعدد إلا من عهد قريب، بسبب الهجرة إلى بلدان كان يحظر فيها التعدد. وقد حظرت دولة الكيان الصهيوني التعدد، واستثنت من هذا القانون العائلات التي مارست التعدد بالفعل في الدول التي هاجرت منها.

أما النصارى؛ فقد حرّموا التعدد على مرّ التاريخ. وقد تناول القديس أغسطينوس (St. Augustine)، على سبيل المثال، مسألة تعدد الزوجات في العهد القديم في كتابه "صلاح الزواج" قائلاً: "على الرغم أنه كان جائزاً عند الآباء الأولين، وإن كان جائزاً الآن أيضاً، فإنني لن أتسرع وأصرح بذلك". لم يصدر القديس أغسطينوس حكماً على بطارقة الكتاب المقدس، لكنه أيضاً لم يسمح بتعدد الزوجات اقتداءً بهم، وتحدث عن الممارسة التي شاعت في المجتمع الحديث في عصره، فكتب: "في وقتنا الحاضر، لم يعد مسموحاً باتخاذ زوجة أخرى بجانب زوجة لا تزال على قيد الحياة، وذلك تمسكاً بالتقاليد الرومانية".

وفي الوقت ذاته، أجاز دعاة الإصلاح النصارى، الذين جاءوا في فترة لاحقة، وأعادوا بناء العقيدة النصرانية على أساس الكتاب المقدس- تعدد الزوجات بصفة مؤقتة، باعتباره ممارسة دينية، وقد ذكر الأب البروتستانتي مارتن لوثر (Martin Luther)، مثلاً، في رسالة إلى المستشار السكسوني جريجور بروك (Gregor Brück) أنه لا يستطيع "منع أحد من الزواج بعدة زوجات؛ لأن ذلك لا يتعارض مع الكتاب المقدس"<sup>1</sup>.

علق كثير من الناس في معظم المجتمعات الغربية المعاصرة، على أنه بالرغم من أن التعدد قد يكون محظوراً، فإن المحصلة النهائية للرجل الذي لديه أكثر من شريكة واحدة هي استمتاعه بالحياة وبالصحة الجيدة، لكن الفرق الوحيد هو أن واحدة فقط من هؤلاء النساء اللاتي يصادقن الرجل الغربي تتمتع بالأمن وحقوق الزوجة، في حين أن الأخريات، سواء أكن عشيقات أم رفيقات- قد "يتخلص منهن" في أي لحظة دون منحهن أي حقوق أو اكرامات بمستقبلهن<sup>2</sup>.

التعدد مباح في الإسلام، وليس واجباً؛ إذ يقول الله ﷻ: {فَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَاكٍ مِّنَ نِّسَائِكُمُ فَالْمَأْتَلُونَ أَغْلَبُونَ وَيَكْتُمُونَ بَيْنَهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ إِنَّهُ كَانَ بَرَّءًا مِّنْهُمْ} (سورة النساء: 3).

إذن، يجوز للرجل أن ينكح حتى أربع نساء في وقت واحد بشرطين: أولهما: أن يعدل بين زوجاته، حيث يقول الله ﷻ: {... فَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَاكٍ مِّنَ نِّسَائِكُمُ فَالْمَأْتَلُونَ أَغْلَبُونَ وَيَكْتُمُونَ بَيْنَهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ إِنَّهُ كَانَ بَرَّءًا مِّنْهُمْ} (سورة النساء: 3).

فإذا خشي الرجل ألا يعدل بين زوجاته إذا تزوج بأكثر من واحدة، حرم عليه التعدد. والمراد بالعدل في هذه

<sup>1</sup> لوثر، مارتن (Luther, M). (1972). أعمال مارتن لوثر: الرسائل 2 (Luther's Works: Letters II). حرره ياروسلاف جان بيليكان (Jaroslav Jan Pelikan) وآخرون. ميسوري: دار كونيورديا للنشر.

<sup>2</sup> بارتليت، نيكولا (Bartlett, N). (19 فبراير 2015). الزنا: ما الدول التي تشهد أعلى نسب خيانة؟ (Adultery: Which countries are most unfaithful?). مقتبس من: <https://www.mirror.co.uk/news/world-news/adultery-countries-most-unfaithful-5188791>.

الآية هو المساواة بين الزوجات في المعاملة من حيث: النفقة، والكسوة، والمأكل، والقسم بينهن.

وأما العدل في المحبة؛ فلا يُحاسب عليه الرجل؛ لأنه ليس له سلطان على قلبه، وهذا ما جاء في الآية، قال الله ﷻ: { ... وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ... } (سورة النساء: 129) <sup>1</sup>.

أما الشرط الثاني الأساسي؛ فهو القدرة المالية والبدنية على النكاح في المقام الأول، كما دل عليه قول الله ﷻ: {وَلَيْسَتُغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...} (سورة النور: 33).

يجب أن يكون الرجل قادرًا على إعالة كل زوجة من زوجاته، وليس له أن يجبرهن على السكن في البيت نفسه، كما يفعل أحيانًا بعض المستهترين هذه الأيام، كما يجب أن تتوافر للزوج القدرة على التحمل الجسدي؛ حتى يلبي رغبات جميع زوجاته؛ لأنه إذا أرضى الرغبات الجسدية لزوجته وحرّم الأخريات من إشباعها، أخل بشرط العدل بينهن.

من الناحية الإحصائية، يشكل تعدد الزوجات نسبة ضئيلة من جميع الزيجات بين المسلمين<sup>2</sup> في وقتنا الحاضر، على الرغم من أنها من الموضوعات التي تثير اهتمام غير المسلمين وتساؤلاتهم. وعلى كل حال، أصبحت النفقة عائقًا أمام مزاوله هذه الممارسة لكثير من الرجال، وورد أنه عندما طلب من مارك توين (Mark Twain) ذات مرة أن يستشهد بدليل من الكتاب المقدس يحرم تعدد الزوجات، أجاب قائلاً: "لَا يُقَدَّرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ".

### ضرب الزوجة

سنشهد في هذا القسم خروجًا مؤقتًا عن النمط المعتاد لغرض مناقشة الموقف الإسلامي أولاً، قبل موقف النصوص اليهودية والمسيحية، حيث كان لقضية ضرب الزوجة في الإسلام النصيب الأكبر من سوء الفهم والمغالطات المغرضة المضللة التي تضمنتها الانتقادات التي وجهها الغرب إلى الإسلام. وينبغي أن نعلم أن الإسلام حرّم العنف الأسري على الإطلاق، ويرد هذا التحريم في أحاديث النبي ﷺ الذي أمر أصحابه في مناسبات عدة بعدم ضرب زوجاتهم.

عن معاوية بن حَيَّدة القُشَيْرِي- رضي الله عنه- قال: "قلتُ: يا رسول الله، ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تُطعمَها إذا طَعِمْتَ، وتكسُوها إذا اكتسَيْتَ، ولا تُضربَ الوجهَ، ولا تُقَبَّحَ، ولا تهجُرَ إلا في البيت" (رواه أبو داود).

إذن، لماذا كل هذا الجدل حول هذه القضية إذا ثبت أن النبي ﷺ منع أصحابه صراحة من ضرب زوجاتهم؟ يمكن إرجاع هذا النقد إلى آية واحدة في القرآن تتناول الطريقة التدريجية في إدارة الخلاف الزوجي بين

<sup>1</sup> يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "لن تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن عائشة ؓ قالت: "كان رسول الله ﷺ يقسم بين نساؤه فيعدل، ثم يقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"، يعني: القلب" (تفسير ابن كثير).

<sup>2</sup> ستاك، بيغي فليبنشر (Stack, PF). (2001). تعدد الزوجات: ليست ممارسة نادرة كما قد تظن ( Polygamy: Not as Rare as You May ) (Think). صحيفة سولت ليك تريبيون. مُقتبس من: <http://www.beliefnet.com/Faiths/2001/02/Polygamy-Not-As-Rare-As-You-May-Think.aspx>

الرجل وزوجه وحسمه، والتي قال الله ﷻ فيها:  
 {الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} (سورة النساء: 34).

الجزء المثير للجدل في هذه الآية هو قوله ﷻ: "اضربوهن"، ولكن، كسائر الآيات القرآنية الأخرى، يتضح المعنى من آيات أخرى، ومن سلوك النبي ﷺ وأحاديثه.

أولاً: تشير الكلمة الواردة في الآية إلى المعنى الحقيقي للضرب، كما ورد في جميع كتب التفسير المتقدمة. أما أولئك الذين يسعون إلى إعادة تفسير القرآن بتحريف معنى هذه الكلمة، فليس لديهم أساس يستندون إليه، وإنما يجب فهم الضرب الذي نتحدث عنه الآية بالمعنى الصحيح.

يكون ضرب شخص آخر بإحدى طريقتين: (1) الضرب بعنف وإهانة بقصد الإيذاء والإيلام أو (2) الضرب بصورة رمزية بقصد تنبيه الشخص المضروب إلى شيء مهم. ويمكن الاستدلال على هذا المعنى الثاني من العبارة الإنجليزية شائعة الاستخدام، "a slap on the wrist"، والتي يفهم أنها تعني تحذيراً ودياً أو عقوبة خفيفة. وينطبق هذا المعنى أيضاً في العديد من دول الشرق الأوسط، حيث تعبر صفة خفيفة على القفا عن الاستياء من تصرفات الشخص أو كلامه؛ فلا "العقوبة الخفيفة"، ولا الصفة على القفا في الشرق الأوسط تسببان أذى أو ألماً، لكنهما تحملان معاني رمزية؛ فهل نفهم الضرب الوارد في هذه الآية على أنه ضرب رمزي فحسب؟ نعم، هو كذلك.

وكما ذكرنا سلفاً، من مبادئ التفسير القرآني أنه لا يمكن فهم آية من القرآن بمعزل عن غيرها من الآيات الأخرى. ولكي نفهم الآية المعنية بصورة أفضل، ينبغي النظر فيما يقوله القرآن عن التعامل مع الزوجة، كما في الآيات الآتية:

- {... وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا...} (سورة البقرة: 231).

- {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (سورة النساء: 128).

- {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (سورة الروم: 21).

وإليك هذا التوجيه النبوي:

"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (رواه الترمذي وابن ماجه).

هذا الحديث من بين أحاديث كثيرة تدل على أن النبي ﷺ قد أمر أصحابه بحسن معاملة زوجاتهم، امتثالاً للتوجيهات القرآنية من حيث العيش معهن بالمودة والرحمة، وعدم ضربهن؛ وكيف يكون الرجل زوجاً صالحاً ويحسن معاملة زوجته ثم يضربها ويهينها؟ وقد أُشير إلى ذلك في حديث آخر للنبي ﷺ قال فيه:

"إِلَام يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجِدُ امْرَأَتَهُ جُلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُضَاجِعَهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ؟" (رواه الترمذي).

قال العالم المكي الجليل عطاء بن أبي رباح، أحد علماء القرن الأول الهجري: "قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح<sup>1</sup>؟ قال: بالسواك ونحوه" (تفسير الطبري).

ويذكر الرازي في تفسيره أن هذا الضرب، بصفة عامة، له شروط: (أ) أن يكون خفيفاً و(ب) يجب اتقاء الوجه، وأضاف أن الفقهاء قالوا: يحرم استخدام "السوط أو العصا" على الإطلاق، ولا يمكن استخدام أي منهما لضرب المرأة، وإنما يجوز الضرب بشيء، كمنديل ملفوف، أو بيده، ويؤكدون أن المقصد ليس الإيذاء والإيلام من الضرب، وإنما هما محظوران تماماً.

من هذه الآيات القرآنية وأحاديث النبي ﷺ والتفسيرات المتقدمة استنتج الفقهاء أن الأصل في الضرب التحريم الشديد، يليه الترخيص المقيد كإشارة رمزية، كما نص عليها النبي ﷺ صراحةً في الحديث أدناه: قال رسول الله ﷺ: "لا تضربوا إماء الله، فجاء عمرُ إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذُئِرْنَ النساءُ على أزواجهنَّ، فرخص في ضربهنَّ، فأطاف بالرسول الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهنَّ، فقال النبي ﷺ: لقد طاف بال محمدٍ نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهنَّ، ليس أولئك بخياركم" (أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه).

إذا ترك هذا الضرب الرمزي كدمات، فيجب معاقبة الزوج في المحكمة الشرعية وفقاً للشريعة الإسلامية، كما أن الفقهاء مجمعون على أن ضرب الزوجة سبب صحيح لتطليق الزوجة من زوجها حتى لو أراد إمساكها. يُعد الاقتباس التالي مثلاً على رأي أحد المفتين المسلمين المعاصرين بخصوص امرأة كان زوجها على حد تعبيرها - "يسيء إليها في كلامه ويجرح عواطفها... ويؤذيها جسدياً... وقد سدد إليها بعض اللكمات الخفيفة؛ أي: ضربها":

"بناءً على ما ذكر في السؤال، فإنه يجوز لك طلب الطلاق (وهو ما يُسمى بالخلع)؛ لأن الحياة مع هذا وأمثاله لا تُطاق، ولعل الله ﷻ أن يخلقك خيراً من هذا الرجل، فإن لم تجدي غيره فبقاؤك بلا زوج في بيت والدك معززة مكرمة خيرٌ لك من البقاء مع هذا الرجل، إذا لم تخافي على نفسك الفتنة أو الوقوع في المحرم...<sup>2</sup>". وعلى الرغم من أن العنف الأسري واقع ملموس في المجتمع المسلم، وجميع المجتمعات غير المسلمة قديماً وحديثاً، فإنه لا يسمح به ولا يُغفل عنه مقارنة بالجرائم الأخرى في الإسلام، وللمرأة المسلمة الحق في العيش بأمان وسلام، وقد ضمنت الشريعة الإسلامية منع هذه الممارسة المشوهة والخبثية.

وأخيراً، من الأهمية بمكان أن ندرك أن الضرب الرمزي المشار إليه في الآية هو في الواقع آخر الإجراءات الثلاثة التي يمكن اتخاذها عند التعامل مع المشكلات الزوجية.

وفي الختام، يسعنا القول: إن الفكرة المغلوطة بأن الإسلام يتغاضى عن ضرب الزوجة، أو يوصي به - لا أساس لها، وهي أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع، بل لا يُسمح بضرب الزوجة إلا بالمعنى الرمزي؛ فالتسبب في إصابة المرأة أو إيذاها أو إيلامها محرم قطعاً، وتعاقب عليه الشريعة؛ وأعظم دليل في هذا الأمر هو أن النبي ﷺ - وهو قدوتنا - لم يضرب زوجاته قط بيده، وأمر أصحابه بعدم ضرب زوجاتهم. فالعنف

<sup>1</sup> قال النبي ﷺ: "... فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِنَنَّ فُرُوسَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ، فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَأَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...". (رواه مسلم)

<sup>2</sup> كما أجاب عنه د. محمد صالح المنجد، مُقتبس من: <https://islamqa.info/en/answers/13803/her-husband-beats-her-severely>.

الأسري في الإسلام من مبررات طلب المرأة للطلاق، وأيًا كان ما قد يحدث في المجتمعات المسلمة من العنف الأسري فهو حرام، ويستند إلى أعراف ثقافية معيبة، حيث يُستغل الدين لتبرير هذه الممارسات؛ فلا بد من توعية المسلمين بهذه الجريمة لتفاديها، ولكي تعيش المرأة المسلمة في طمأنينة وأمان كما أراد الله ﷻ أن تنعم بهما.

يختلف المنهج اليهودي المسيحي المتبع في هذه القضية بصورة واضحة عن منهج الإسلام، ويكشف التاريخ الديني اليهودي المسيحي عن التساهل إزاء الضرب الجسدي، بل التشجيع عليه، من أجل إبقاء النساء منضبطات، ولم تُلغ القوانين الخاصة بهذا الشأن إلا في القرون القليلة الماضية.

بداية من الكتابات الدينية اليهودية، أوصى الحبر الشهير موسى بن ميمون، من علماء القرن الثاني عشر الميلادي، في تفسيره "مشناه تورا"، بضرب الزوجة الناشز باعتباره صورة مناسبة من صور التأديب: "الزوجة التي تمتنع عن أداء أي مهمة تلتزم بها، يحق لزوجها إجبارها على أداؤها، ولو بجلدها بعصا (وأحيانًا بالسوط)"<sup>1</sup> (إيشوت 21:10).

وفي وقت لاحق، أقرت الكتابات اليهودية في القرن السادس عشر بعدم صحة ضرب الزوجة، لكنها في الوقت ذاته تحايلت على إعفاء المرأة من الزواج الذي تتعرض فيه للعنف والأذى. وتشكل تلك الآراء المراوغة جزءًا من القانون الديني اليهودي (هالاخاه<sup>2</sup>)، وترتكز على الوضع المهيمن للرجل في الزواج، ومن ثم لا يُعد العنف الأسري سببًا تلقائيًا للطلاق في اليهودية. وعلى الرغم من أنه في العصر الحديث تكاد تتعدم السلطات الحاخامية التي تبرر ضرب الزوجة لغرض التعليم أو بسبب الإهمال في المهام المنزلية، فلا يزال هناك كثيرون ممن لا يجيزون الطلاق القسري؛ لتحرير الضحية التي تتعرض للضرب...<sup>3</sup>

كما كان ضرب الزوجة مسموحًا به في النصرانية بموجب القانون الكنسي (الأمر 35)، كما هو منصوص عليه في القانون المدني أيضًا، والذي يأذن بحق "التأديب المعتدل". ويشير بيرن ستيدمان (Beirne Stedman) في مقالته التي كتبها عام 1917 عن الولايات المتحدة، والتي تلخص حقوق الزوج في ضرب زوجته، إلى ما يلي:

"اعترف بحق الزوج في تأديب زوجته في [الولايات المتحدة الأمريكية]، وأرست المستشارة كينت (Kent) القاعدة التي تنص على أنه: يجوز للزوج أن يضع "قيودًا خفيفة على حريتها إذا كان سلوكها يتطلب ذلك". وبالنسبة للمبادئ القديمة التي تفيد بأن للرجل الحق في ضرب زوجته متى شاء، بشرط عدم "استخدام سوط أكبر من حجم إبهامه"، أو عدم "إلحاق ضرر جسدي خطير، أو التسبب في إصابة مستديمة"، فُدمت ثلاثة أسباب: (1) "من واجب الزوج أن يجعل زوجه تحسن التصرف"، ويضربها إذا لزم الأمر تحقيقًا لهذا الغرض. (2) "حجب العلاقات بين الرجل وزوجته"، والفكرة هي أن التأديب الصحي السري المحدود للزوجة، "لجعلها تحسن التصرف"، لا يسبب ضجيجًا وفضائح، مثل: إشهار المحاكمات. (3) وجود الأحكام التي تمنح الزوج امتيازًا وحصانة للتأديب"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> بيسكويتز، ميريام (Peskowitz, M) وليفيت، لورا (Levitt, L). (1996). اليهودية منذ الجنس (Judaism Since Gender). آينجودون: شركة روتليج.

<sup>2</sup> الشريعة اليهودية وهي مجمع القوانين، التقاليد والإرشادات الدينية الموجب عليها لمن يتمسك بالديانة اليهودية.

<sup>3</sup> غراتس، نعومي (Graetz, N). (دون تاريخ). العنف الأسري في القانون اليهودي. كيف ترى اليهودية مسألة ضرب الزوجة (Domestic Violence in Jewish Law. How Judaism views wifebeating). مُقتبس من: <https://www.myjewishlearning.com/article/domestic-violence-in-jewish-law>.

<sup>4</sup> ستيدمان، بيرن (Stedman, B). (أغسطس 1917). حق الزوج في عقاب زوجته (Right of Husband to Chastise Wife). سجل قانون ولاية

وثقت مقالة مراجعة أخرى استمرار ظاهرة الضرب المُقنّن للزوجة أو "التأديب" على النحو الآتي:  
"حتى أواخر القرن التاسع عشر، نظم القانون العام الأنجلو أمريكي الزواج لمنح الزوج امتيازات على زوجته في معظم جوانب العلاقة المشتركة بينهما، وبموجب القانون، اكتسب الزوج حقوقاً في شخص زوجته، وقيمة عملها مدفوع الأجر وغير مدفوع الأجر، ومعظم الممتلكات التي انتقلت معها في الزواج. وكانت الزوجة ملزمة بطاعة زوجها وخدمته، في حين أن الزوج يلتزم بإعالة زوجته وتمثيلها في النظام القانوني. وبحسب مبدأ الوحدة الزوجية، "اندمجت" الهوية القانونية للزوجة في هوية زوجها، لدرجة أنها لم تتمكن من رفع دعوى دون مشاركته، سواء لإنفاذ العقود أو المطالبة بتعويض عن الضرر، وكان الزوج بدوره مسؤولاً عن سلوك زوجته، وعن عقودها—ذلك في ظل ظروف معينة، والأضرار التي تتسبب فيها، بل حتى عن بعض الجرائم التي ترتكبها.

وأجيز للزوج المطالبة بطاعة زوجه -بصفته رباً للأسرة- وإخضاعها للعقاب البدني أو "التأديب" إذا لم تدعن لسلطته، وأوضح بلاكستون، في أطروحته عن القانون العام الإنجليزي، أن الزوج يستطيع "تأديب زوجه على نحو معتدل..."<sup>1</sup>.

بالإشارة إلى تعليقات بلاكستون على قوانين إنجلترا<sup>2</sup>، نقرأ ما يلي:  
"لكن على الرغم من أن قانوننا يعتبر الرجل وزوجه شخصاً واحداً بصفة عامة، فإن هناك بعض الحالات التي يُنظر فيها بصورة منفصلة على أن الزوجة أدنى منه مرتبة، وتتصرف حسب مشيئته كرهاً ... كما يجوز للزوج (بموجب القانون القديم) أن يؤدب زوجه تأديباً غير مبرح؛ حيث رأى القانون أنه، باعتباره المسؤول عن سوء سلوك زوجته، من المنطقي أن تُسند إليه هذه الصلاحية المتمثلة في زجرها، من خلال التأديب المنزلي، بدرجة الاعتدال نفسها التي يُسمح بها للرجل في تأديب خدمه أو أولاده الذين يُحاسب السيد أو الوالد على تصرفاتهم أيضاً في بعض الحالات، لكن انحصرت صلاحية التأديب هذه ضمن حدود المعقول، ومُنع الزوج من إظهار أي من أشكال العنف ضد زوجته، [في غير الأمور التي تتعلق بسيادة الزوج على زوجه وتأديبها بصفة قانونية وعلى نحو معقول]، كما منح القانون المدني السلطة ذاتها أو سلطة أكبر للزوج على زوجه بالسماح له [بضرب زوجه ضرباً مبرحاً بالوسط والعصى] عند ارتكابها بعض المخالفات، أما في غير ذلك؛ فيُسمح له بعقابها [عقوبة معتدلة] فحسب. ولكن بدأت صلاحية التأديب هذه، في عهد تشارلز الثاني الأكثر رقياً، تصبح محل شك، وقد تحظى الزوجة الآن بالسكينة مع زوجها، أو في المقابل الزوج مع زوجه. ومع ذلك، لا يزال الأشخاص ذوو الرتب الدنيا، الذين كانوا دائماً مولعين بالقانون العام القديم، يطالبون بامتيازهم القديم، بل ويمارسونه، وستظل المحاكم القانونية تسمح للزوج بتقييد حرية زوجته، في حال ارتكابها أي مخالفة جسيمة"<sup>3</sup>.

ويعلق هنري ديتريتش (D. Dieterich) على سماح المؤسسة الدينية النصرانية في أوروبا في القرن السادس عشر بضرب الزوجة:

فرجينيا (سلسلة جديدة). المجلد الثالث، العدد الرابع، الصفحات 241-248.  
<sup>1</sup> سيجل، ريفا (Siegel, Reva). (1996). قاعدة الحب: ضرب الزوجة باعتباره حقاً وخصوصية (The Rule of Love: Wife Beating as Prerogative and Privacy). سلسلة البحوث العلمية لأعضاء هيئة التدريس. الورقة 1092. مُقتبس من: [http://digitalcommons.law.yale.edu/fss\\_papers/1092](http://digitalcommons.law.yale.edu/fss_papers/1092).

<sup>2</sup> التعليقات على قوانين إنجلترا عبارة عن أطروحة مؤثرة كتبها السير ويليام بلاكستون (William Blackstone) في القرن الثامن عشر حول القانون العام لإنجلترا، ونشرتها في الأصل مطبعة كلارندون في أكسفورد في الفترة من 1765 إلى 1769. وما فتئت التعليقات تُعتبر بمثابة العمل الرائد في تطوّر القانون الإنجليزي، كما كان لها دور في تطوّر النظام القانوني الأمريكي، بل كانت بمثابة أول أطروحة منهجية عن القانون العام تناسب جمهور القراء العاديين منذ العصور الوسطى على الأقل.

<sup>3</sup> بلاكستون، ويليام (Blackstone, William) (1780-1723). (1962). تعليقات على قوانين إنجلترا (Commentaries on the Laws of England). بوسطن: مطبعة بيكون.

"بينما يشير أوزمنت (Ozment) إلى أن "ضرب الزوجة... بكل تأكيد لا يعرف أي عقيدة دينية"، فإنه يشير إلى أن البروتستانت كان رأيهم في هذا الاعتداء أكثر حدة من الكاثوليك، ويشاركه هذا الرأي جون ويت (John Witte) في دراسته "من القربان المقدس إلى العقد" (*From Sacrament to Contract*). وينسب قوانين الزواج في جنيف إلى عدد من "البدع أو التأكيدات الجديدة" بما يشمل "الحظر الصارم على إساءة معاملة الزوجة". غير أنه من الناحية العملية حتى في جنيف، لم يغير هذا الحظر الممارسة القانونية في التعامل مع الزيجات التي تتعرض فيها النساء للعنف؛ ففي قوانين الزواج "لم يكن الاستقلال في المسكن والمأكل خيارًا، إلا في أكثر الحالات خطورة على جسد الزوجة البريئة وروحها". ولا يمثل ذلك تحولًا كبيرًا في ممارسة العصور الوسطى، كما لا يتناقض كثيرًا مع السلطات القضائية الكاثوليكية، كما يشير جويل هارينجتون (Joel Harrington) في دراسته الأكثر توازنًا للدول الكاثوليكية والبروتستانتية في منطقة بالاتينيت رينيه. وتشير شهادته إلى أن سبل الانتصاف من العنف المنزلي كانت متشابهة من الناحية العملية، ويؤيد ادعاء أوداي (O'Day) أن قدرًا معيّنًا من العنف كان أمرًا عاديًا، ويلخص مشكلة العنف المنزلي، مستشهدًا بحالات من ولايات قضائية مختلفة، على النحو التالي: من الجدير بالذكر أن عددًا قليلًا من السلطات، سواء بروتستانتية أم كاثوليكية، اعتبرت الإيذاء البدني في حد ذاته -باستثناء المواقف التي تهدد الحياة- يستحق إنزال العقوبة الشديدة... رأى المسؤولون الكنسيون أن إمكانات تعديل السلوك بدرجة كبيرة محدودة للغاية، على أقل تقدير، وذلك معتمدين بصورة تكاد تكون مقصورة على التحذيرات والتهديدات بالحرمان الكنسي لتحقيق مبتغاهم" (جويل هارينجتون (Joel F. Harrington)، إعادة ترتيب الزواج والمجتمع في حركة الإصلاح في ألمانيا (*Reordering Marriage and Society in Reformation*)، الصفحة 266)<sup>1</sup>.

ومن ثمّ، تبنت المواقف التاريخية اليهودية-المسيحية تجاه ضرب الزوجة، والتي استمر بعضها حتى يومنا هذا نوعًا من تقويم السلوك، من خلال التأديب الجسدي المشابه لنظام التأديب المطبق مع العبيد، وغالبًا ما كان هذا الضرب دون قيود أو سبب وجيه، ولذا سُمح للرجال، لا سيما في اليهودية في العصور الوسطى، بضرب زوجاتهم حتى لو تعلق الأمر بعدم أداء الأعمال المنزلية، وغالبًا ما كانت المحاكم القضائية أو رجال الدين يتغاضون عن هذه الأفعال عند عرضها عليهم، بل يبررون لها حتى ما يترك المرأة تعاني دون اللجوء إلى الطلاق، كما هي الحال مع العديد من الأغوانة<sup>2</sup> اليهوديات في الوقت الحاضر. ولحسن الحظ، أُلغيت العديد من هذه الممارسات في الكتابات الدينية اللاحقة، على الرغم من أن العنف المنزلي من الناحية الإحصائية لا يزال يمثل مشكلة كبيرة في عالمنا اليوم، بما في ذلك المجتمعات اليهودية والمسيحية.

## الطلاق

يُفهم الطلاق على أنه: حلّ رابط النكاح بصورة كاملة بين الزوج والزوجة، وإعفاؤهما من جميع الالتزامات الزوجية. ظلت هذه القضية المهمة محل خلاف وجدل كبير على مر العصور، وموقف الديانات الثلاثة (اليهودية والنصرانية والإسلام) إزاء الطلاق متباين إلى حد ما، ويعبّر بدرجة كبيرة عن وضع المرأة.

<sup>1</sup> ديتريتش، هنري (Dieterich, D.H). (أكتوبر 1998). الكنيسة والممتلكات وضرب الزوجة في لبيج في القرن السادس عشر: حالة كاترين وويت دو تريكس (*Church, Property, and Wife-Beating in Sixteenth-Century Liège: The Case of Catherine Woet de Trixhe*). ورقة مقدمة في مؤتمر دراسات القرن السادس عشر، تورنتو، أونتاريو، 1998. مُقتبس من: <http://www-personal.umich.edu/~hdiet/frames6.htm>.

<sup>2</sup> المرأة غير القادرة على الحصول على كتاب الطلاق من زوجها الذي يسيء معاملتها.

ظل الطلاق في الشريعة اليهودية على مرّ التاريخ مقبولاً تماماً، ومن الممكن إيقاعه لأي سبب من أسباب عدم الرضا، بيد أن الشرط الرئيس الوحيد هو أن الزوج وحده هو الذي له حق الشروع في الطلاق. ينبع المعتقد اليهودي من فكرة جواز تطليق الرجل لزوجته إذا:  
"... لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ؛ لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ... (سفر التثنية 24: 1).

وفي هذه الحالة، يجوز للرجل أن "يكتب لها كتاب طلاق" ويطردها من بيته، وقد أثارت هذه الآية الواردة في سفر التثنية كثيراً من الجدل بين العلماء اليهود بسبب اختلاف الآراء حول ما تعنيه عبارتا "لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ" و"عَيْبَ شَيْءٍ" في سياقهما؛ فالتلمود يشير إلى التفسيرات المختلفة لهؤلاء العلماء على النحو الآتي:  
"يقول بيت شماي: ينبغي للرجل ألا يطلق امرأته إلا لأمر غير لائق وجده فيها، كما جاء في الآية: "لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ"<sup>1</sup>، لكن بيت ههل يقول: [يجوز له أن يطلقها] حتى لو كانت قد أفسدت طعامه فحسب، كما جاء في الآية: "لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ". ويقول الحاخام عقيبا: [يجوز له أن يطلقها] حتى لو وجد امرأة أخرى أجمل منها، كما جاء في الآية: "فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ"<sup>2</sup>.

تستند الشريعة اليهودية السابقة والمعاصرة على هذا التفسير الهليلي الذي يجيز للرجل تطليق زوجته بدعوى الكراهية التي يجدها في نفسه، كما تشير تعاليم التلمود إلى أنه يجب على الزوج تطليق زوجته إذا كانت عقيماً، أي: لم تنجب طيلة عشر سنوات.

يقول المشناه (التلمود: يفاموت 6.6) إنه إذا لم ينجب الزوجان طيلة سنوات عديدة، فيجب على الزوج أن يتزوج من أخرى من أجل أداء وصية أئتمروا وتكاثروا: "إذا تزوج رجل امرأة، ومكث معها عشر سنين ولم تنجب، فليس له أن يتوقف [عن أداء وصية أئتمروا وتكاثروا]<sup>3</sup> 4. وإذا طلقها، فإنها تحلّ لأخر، ويجوز للثاني أن يمكث معها عشر سنوات.

على الرغم أن حق المرأة في الطلاق مختلف تماماً في الشريعة اليهودية، فلا وجود له البتة؛ حيث لا يمكنها بأية حال من الأحوال طلب الطلاق أو تقديم كتاب طلاق، فإذا رغبت الزوجة في الطلاق من زوجها، لجأت إلى محكمة يهودية، شريطة أن يكون لديها سبب وجيه لرغبتها في الطلاق. فإذا كان الزوج عقيماً، أو لا يفي بواجباته الزوجية، فقد يُقبل التماسها في المحكمة، التي لا تملك سلطة فسخ الزواج، بل الزوج وحده هو الذي له الحق في منح كتاب الطلاق. أما إذا صدر حكم لصالح الزوجة، كان للمحكمة حينئذ جلد الزوج أو تعزيمه أو سجنه أو حرمانه كنسبياً لإكراهه على منح الزوجة كتاب الطلاق. وإن أُتخذت كل هذه الإجراءات لإجبار الزوج، فقد يصر على رفض منح كتاب الطلاق لزوجته؛ إذ إنه وحده الذي يملك هذا الحق.

كان لهذا النظام القانوني بعض النتائج بعيدة الأثر؛ ففي بعض الحالات، يقرر الأزواج ترك زوجاتهم وهجرهن، وهذا يضع الزوجة في معضلة المرأة المعلقة، ولا تستطيع الزواج برجل آخر، حيث يُعد ذلك نوعاً من الزنا. وإذا اختارت المرأة أحد هذين البديلين (الوقوع في الزنا)، ثم أنجبت أطفالاً، اعتُبر هؤلاء الأطفال،

<sup>1</sup> سفر التثنية 24: 1.

<sup>2</sup> مشنا التلمود البابلي: الورقة 190أ.

<sup>3</sup> يقتبس الحاخام تحليفة بار أبيمي كلمات صموئيل: "حتى لو تزوج زوجة ومكث معها لمدة عشر سنوات فلم تنجب [خلال هذه المدة] طفلاً، فإنه يُجبر [على طلاقها]".

<sup>4</sup> في زمن التلمود، كان الطلاق يتوقف كليةً على رغبة الرجل، كما سُمح بتعدد الزوجات. ولم يبدأ القانون في التغيير بخصوص هاتين المسألتين إلا في القرن الثاني عشر، بظهور القوانين المعروفة باسم حظر رابينو غيرشوم. للاطلاع على مزيد من المعلومات حول هذا الحظر، انظر: موسوعة التلمود (Encyclopedia Talmudit)، المجلد 16، الصفحات 384-390.



الذين يُطلق عليهم اسم "مامزر"؛ ومعناه "أبناء زنى"، بالإضافة إلى الأجيال العشرة التالية، غير شرعيين<sup>1</sup>. أما "أغوانه" (معناها الحرفي: المرأة المقيدة)، فهو الاسم الذي يُطلق على المرأة الواقعة في هذه المحنة.

أما الزوج الهارب؛ فجائز له قانونًا الزواج مرة أخرى، أو مساكنة امرأة عزباء، ونظرًا لشرعية هذين الأمرين، يُعد الأطفال الناتجين عن أيٍّ من هاتين العلاقتين شرعيين. أما الطلاق في النصرانية؛ فإنه محظور تمامًا بالاتفاق مع موقف مدرسة شمالي اليهودية، وليس هناك سوى استثناء واحد لهذه القاعدة؛ وهو في حال ثبوت خيانة الزوجة لزوجها؛ ففي هذه الحالة يجوز للزوج تطليق زوجته؛ حيث ينقل العهد الجديد قول عيسى ﷺ:

"وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلَّاقٍ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعِلَّةِ الزَّنى يَجْعَلُهَا تَرْزِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقةً فَإِنَّهُ يَتَزَوَّجُ تَرْزِي" (إنجيل متى 5: 31-32).

إذن يجوز للزوج منح زوجته كتاب طلاق إذا وقعت في الزنا أثناء زواجهما، أما ما عدا ذلك؛ فلا يمكن للزوج ولا للزوجة تطليق بعضهما بعضًا.

ينتهج الإسلام منهجًا وسطًا بين النصرانية واليهودية فيما يتعلق بأحكام الطلاق؛ فالإسلام لا يحرم الطلاق تحريمًا قاطعًا، بل ينفّر منه، ولا يشجع عليه بكل السبل، ويقدم حلولًا للصالح بين الزوجين على أمل الحفاظ على الزواج، والرجال مأمورون شرعًا بالتحلي بالصبر ومعاشرة زوجاتهم بالمعروف، حتى لو رأوا منهن ما يكرهون؛ إذ يقول الله ﷻ: {... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} (سورة النساء: 19).

كما وجّهنا النبي ﷺ، فقال ﷺ: "لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ" (رواه مسلم).

يمنح الإسلام الحق لكلا الزوجين في إنهاء علاقتهما الزوجية إذا استحالت الحياة الزوجية، ووصلت إلى نقطة اللاعودة، فللزوج الحق الأساسي في الطلاق، في حين أن المحكمة، على عكس اليهودية، لها كامل الحق في منح الزوجة الطلاق. وإذا فسخ الزوج الزواج بطلاق زوجته، فلا يمكنه استرداد أي من هدايا الزواج التي قدمها لها؛ حيث نص القرآن صراحة على تحريم ذلك، بغض النظر عن كلفة الهدايا أو قيمتها، قال الله ﷻ:

{وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا} (سورة النساء: 20).

وإذا فسخت الزوجة الزواج، فعليها أن ترد المهر إلى زوجها؛ لأن رد المهر في هذه الحالة بمثابة تعويض عادل للزوج الذي لم يرغب في إنهاء عقد الزواج. وقد أمر القرآن الزوج بعدم استرداد شيء من المهر الذي أعطاه لزوجته، إلا إذا عرضته الزوجة عندما تقرر فسخ الزواج، وفي ذلك يقول الله ﷻ:

{... وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ

<sup>1</sup> "لَا يَدْخُلُ ابْنُ زَنْى فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ" (سفر التثنية 23: 2).

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا...} (سورة البقرة: 229).

هذا الحكم، الذي يُطلق عليه في الشريعة الإسلامية الخلع، يعني فراق الزوجة مقابل عوض، حيث يأخذ الزوج المهر الذي دفعه لزوجته ويطلقها.

ثمة دليل آخر على الخلع، وهو حديث النبي ﷺ عندما جاءته امرأة<sup>1</sup> تطلب الطلاق، على الرغم أنها لم تعتب على زوجها في خُلق ولا دين؛ فكانت تبغضه فحسب، فسألها النبي ﷺ: "أتردين عليه حديقته؟" فقبلت، وأمر النبي ﷺ زوجها أن يقبل حديقته ويطلقها. (رواه البخاري).

أما في حالات أخرى؛ فقد ترغب المرأة المسلمة في استمرار زواجها، لكنها تجد نفسها مضطرة لطلب الطلاق لأسباب قاهرة، مثل: قسوة الزوج، أو هجرها دون سبب، أو عدم أداء الزوج لواجباته الزوجية، أو الامتناع عن الإنفاق عليها، وما إلى ذلك. وفي هذه الحالات، تفسخ المحكمة الشرعية الزواج<sup>2</sup>، بل يُعتبر كذلك حكم المحكمة المدنية في هذه الحالات صحيحاً من الناحية الشرعية، كما يتضح من الفتوى التالية المقدمة إلى امرأة تعرضت للإيذاء البدني والعاطفي، وطلقت زوجها في محكمة أمريكية:

"أما ما ذكرته من أن المرأة في بلدكم يمكنها أن ترتب إجراءات طلاقها من خلال [المحكمة المدنية]؛ فإذا كان هناك سبب شرعي لطلبها الطلاق، بأن كرهت الزوج، أو لم تستطع العيش معه، أو كرهته في دينه وخلقته، فحينئذٍ لا حرج عليها أن تطلب الطلاق، ولكن في هذه الحال تُخالعه، بأن ترد عليه ما أعطاه ثم يفسخ نكاحها، ولكن إذا طالبت بالطلاق دون سبب على الإطلاق، فلا يجوز ذلك، وأما حكم المحكمة في مسألة الطلاق في هذه الحالة؛ فلا وزن له البتة في الشريعة الإسلامية، فتظل المرأة على عصمتها. وأنا أرى أننا الآن أمام مشكلة؛ فبقاؤها في عصمتها يمنعها من الزواج برجل آخر، وظاهراً حسب حكم المحكمة أنها طلقت منه، وأنها إذا انتهت عدتها جاز لها الزواج بآخر، وللخروج من هذه المشكلة أرى أنه لا بد من أن يتدخل أهل الخير والصالح في هذه المسألة؛ من أجل الإصلاح بين الزوج وزوجه، وإلا فعليها أن تعطيه عوضاً، حتى يكون ذلك خلعاً شرعياً<sup>3</sup>."

وباختصار، منح الإسلام المرأة المسلمة حقاً لا نظير لها؛ حيث يجوز لها إنهاء عقد الزواج من خلال الخلع وطلب الطلاق من الزوج العنيف القاسي.

### تغطية شعر المرأة- هل هو فرض ديني مقصور على النساء المسلمات؟

لا نكاد نجد قضايا تستحوذ على أضواء وسائل الإعلام الغربية هذه الأيام بنفس القدر الذي مُنبت به مسألة لباس المرأة المسلمة، بيد أن للحجاب<sup>4</sup> معنى مختلفاً بناءً على الشخص الذي تسأله؛ ففي الغرب، تُثير المرأة التي ترتدي الحجاب الغضب والتعاطف معاً؛ حيث يعتبرها البعض مسلوقة الرأي، ولا تتمتع بأي حقوق، وغير مسموح لها بالخروج من بيتها. وقد أتهم الحجاب بأنه يقمع المرأة ويحط من كرامتها، كما وُجّهت دعوات صريحة "لتحرير المرأة" من هذه الملابس المقيدة، لكن ثمة مشكلة واحدة في هذه الدعوات الحماسية؛

<sup>1</sup> زوجة ثابت بن قيس بن شماس.

<sup>2</sup> سابق، السيد (1972). فقه السنة. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

<sup>3</sup> لقاء الباب المفتوح، ابن عثيمين.

<sup>4</sup> طريقة اللبس المحتشم للمرأة المسلمة، والذي يشمل غطاء الشعر، ولكنه لا يقتصر على ذلك.

فلم يهتم أحد بأن يسأل النساء المسلمات عن رأيهن في الأمر برمته. وقبل دراسة هذا السؤال المهم للغاية، ستجرى مراجعة موجزة لوجهات نظر الأديان الثلاثة فيما يخص الحجاب؛ حيث إن جميع الأديان الثلاثة إما تُلزم المرأة بارتداء الحجاب في الوقت الحالي، وإما سبق لها أن ألزمتها به في الماضي.

وإذا بدأنا باليهودية، اكتشف المرء أن المرأة مأمورة بتغطية شعرها، حتى وقتنا الحاضر، بين الطوائف الأرثوذكسية اليهودية، غير أنه في اليهودية- هناك بعض العوامل التي لها دور عند محاولة فهم الأسباب الكامنة وراء إلزام المرأة بتغطية شعرها. فمن جهة، يعتبر "مدراس التلمود" أن جمال حواء، دون أي تحفظات، أسهم في إغوائها لأدم، ولذلك، أمرت بتغطية شعرها من باب الاحتشام، حيث كانت فاتنة، ولا يستطيع الرجال المقاومة كلياً. أقتبس مجدداً من المدراس:

"لماذا تغطي المرأة رأسها، ولا يغطي الرجل رأسه؟ فبم يمكن مقارنة ذلك؟ بامرأة دنّست نفسها، ولأنها عملت عملاً مشيئاً، فإنه ينتابها الخجل في حضرة الناس. وعلى نفس المنوال، فعلت حواء فعلاً مشيئاً، وجعلت بناتها يغطين رؤوسهن!"<sup>1</sup>.

يواصل المدراس في هذا الصدد، موضحاً أن المرأة ملزمة بتغطية رأسها أثناء مشيها أمام النعش في مواكب الجنازات؛ من أجل التكفير عن حواء بعد أن جلبت الموت إلى العالم بسبب خطيئتها، كما يرتبط ذلك باللعنات العشر التي حلت على المرأة، والتي سبق ذكرها.

من منظور آخر، يُنظر إلى تغطية الشعر في اليهودية، كما سنرى في الإسلام، على أنه وسام شرف وتمييز. ففي الحالة اليهودية، لا يلزم سوى تغطية شعر المرأة المتزوجة أو التي سبق لها الزواج فحسب، ولا يُلزم معظم العلماء اليهود المرأة التي لم تتزوج بعد بتغطية شعرها، ويعتبر التلمود [كيسوفوس 72أ] أن مصدر هذا الإلزام هو سفر العدد 5: 18 الذي يتناول قوانين سوطا (الزانية المشتبه بها)، وينص على: "وَيُوقَفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيَكْشِفُ رَأْسَ الْمَرْأَةِ...".

يقدم الحاخام شلومو يتسحاقي -من علماء القرن الحادي عشر- تفسيرين للاستنتاج التلمودي بإلزام المرأة بالحجاب. أولاً: أنها تُعاقب على كشف شعرها لحبيبها، ما يدل على أن كشف الشعر أمام رجل آخر (غير أفراد أسرتها) محرّم أيضاً، وثانياً: من واقع أننا عندما نسمح لبعضهن بكشف شعرهن نفهم أنه في ظل الظروف المعتادة، ينبغي تغطية شعر المرأة اليهودية.

يجب على الرجل اليهودي، سواء أكان متزوجاً أم لا، تغطية رأسه في كل الطوائف اليهودية، بيد أن هذا الإلزام ليس من باب الحشمة أو الفتنة، ولكن من باب "الخشية من السماء". ويأتي هذا المفهوم من التلمود، حيث إنّ والدته الحاخام نحمان بار يتسحاق لم تكن تسمح له بالخروج كاشفاً رأسه قائلة: "غَطِّ رَأْسَكَ، عسى أن تعشاك الخشية من السماء"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> برونر، ليلي ليا (Bronner, L.L). (1994). من حواء إلى إستير: المحاولات الحاخامية لإحياء المرأة التوراتية (From Eve to Esther). وستمنستر: مطبعة جون نوكنس.

<sup>2</sup> كراوس، صموئيل (Krauss, S). (1945). الطقوس اليهودية المتعلقة بتغطية الرأس (The Jewish Rite of Covering the Head). كلية الاتحاد العبري السنوي، المجلد 19، الصفحات 121-168. مُقتبس من:

[https://www.jstor.org/stable/23503676?seq=1#page\\_scan\\_tab\\_contents](https://www.jstor.org/stable/23503676?seq=1#page_scan_tab_contents)

## تغطية الرأس والوجه في النصرانية

ظلت النصرانية في أول عهدها تلزم المرأة بتغطية الرأس والوجه ليس من باب العرف والتقليد فحسب، ولكن أيضاً بسبب نصوص من الكتاب المقدس، إذ يكتب القديس بولس في العهد الجديد ما يلي:

"وَأَمَّا كُلُّ امْرَأَةٍ تُصَلِّي أَوْ تَتَنَبَّأُ وَرَأْسُهَا غَيْرُ مُعْطَى؛ فَتَشِينُ رَأْسَهَا؛ لِأَنَّهَا وَالْمَخْلُوقَةُ شَيْءٌ وَاحِدٌ بَعِيْنِهِ. إِذِ الْمَرْأَةُ، إِنْ كَانَتْ لَا تَتَّعْطَى، فَلْيُقْصَّ شَعْرُهَا. وَإِنْ كَانَ قَبِيْحًا بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُقْصَّ أَوْ تُحْلَقَ، فَلْتَتَّعْطَ. فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْطَى رَأْسُهُ لِكُونِهِ صُورَةَ اللَّهِ وَمَجْدُهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ؛ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ؛ لِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا، مِنْ أَجْلِ الْمَلَائِكَةِ" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 11: 5-10).

على الرغم من أن هذا هو المقطع الوحيد في الكتاب المقدس الذي يُلزم المرأة صراحة بتغطية رأسها، فقد ناقش عدد من آباء الكنيسة الأوائل أغطية الرأس في مؤلفاتهم باستفاضة. ويُمثل زي الراهبة الكلاسيكي، على سبيل المثال، النمط المحافظ للباس المرأة في العالم النصراني، كما يُظهر الفن النصراني منذ صوره الأولى النساء، مثل: مريم العذراء، وهن يرتدين أغطية الرأس. وفي الكتابات والفنون النصرانية، على عكس الكتابات والفنون اليهودية، يُولى اهتمام أكبر لمسألة الاحتشام من حيث صلته بغطاء الرأس، بل حتى غطاء الوجه في بعض الأحيان. وفي السياق ذاته، يكتب د. آلان إينغلس (Alan Ingalls)، الأستاذ المساعد للعهد القديم في كلية الكتاب المقدس المعمدانية بجامعة كلاركس ساميت في بنسلفانيا:

"من الأفضل تعميق دراسة مسألة "هل كانت المرأة ترتدي الحجاب دومًا أم لا؟". فالمرأة، شأنها شأن الرجل، كانت ترتدي نوعًا من غطاء الرأس باعتباره جزءًا من ملابسها العادية. ومن المرجح أن غطاء الرأس ذلك كان مختلفًا عما كان يرتديه الرجل، ومن الأسلم أن نقول: إن النقاب ربما كانت ترتديه المرأة، على الأقل في بعض الأحيان، باعتباره علامة على الحشمة أو الاستقامة والأدب، بينما كان نزع غطاء الرأس الاعتيادي علامة على عدم الحشمة أو ضعف الإيمان!"

سنراجع الآن بعض الاقتباسات المأخوذة من كتابات العديد من آباء الكنيسة والشخصيات المهمة الأخرى في تاريخ الكنيسة، وذلك لفهم الأسباب الكامنة وراء تغطية رأس المرأة في النصرانية على نحو أفضل.

غالبًا ما يُستشهد بكلام أبي الكنيسة العظيم تيرتليان (Tertullian) حول هذا الموضوع؛ لأنه خصص كتابًا كاملاً حول الموضوع تحت عنوان "حول حجاب العذارى" (*On the Veiling of Virgins*). ويقول في هذا الكتاب إن العذارى لسن مستنثيات من قانون الحجاب. ويستند إلى نص القديس بولس (St. Paul) الذي يلزم بارتداء الحجاب "من أجل الملائكة"، كما يدعو تيرتليان (Tertullian) النساء إلى الاحتجاب، بدافع الحشمة، حتى خارج القداس:

"... كما يرتدين الحجاب في حضرة الوثنيين، فليغطين عذريتهن على أية حال في الكنيسة، كما يغطينها خارج الكنيسة؛ هن يخشين الغرباء؛ فليخوفن كذلك من الإخوة، أو ليتمتعن بالعزم الثابت للظهور بمظهر العذارى في الشوارع أيضاً، بدرجة العزيمة التي يبدينها في الكنائس".

<sup>1</sup> إينغلس، آلان (Ingalls, A). (2000). أغطية الرأس في العهد القديم (Headcoverings in the Old Testament). مجلة الخدمة واللاهوت. المجلد الرابع، العدد الثاني، الصفحات 41-52.

وأضاف:

"أصلي لك، سواء أكنتِ أمًا أم أختًا أم بنتًا عذراء. اسمحي لي أن أخاطبكِ حسب المسمى الملائم لعمرِك: غطّي رأسك؛ إن كنتِ أمًا، فلأجل ابنك، وإن كنتِ أختًا، فلأجل إخوتك، وإن كنتِ بنتًا، فلأجل أبائك... ارتدي لباس الحشمة، وأحيطي نفسكِ بحاجز الخجل، وصوني عفتك...<sup>1</sup>".

زادت هذه الكتابات في القرنين الثاني والثالث بفضل مؤلف نصراني بارز من القرن الثالث يُدعى القديس إكليمنضس الإسكندري (St. Clement of Alexandria). يتوسّع القديس إكليمنضس في كتابه الشامل المسمى المُربي (The Instructor)، ويربط بين غطاء الوجه ومسألة الاحتشام فيقول:

"يجب أن يتوجه كل من المرأة والرجل إلى الكنيسة بملابس محتشمة... وأن تراعي المرأة على وجه الخصوص تغطية جسمها تمامًا... لأن هذه الملابس المحتشمة تجلب كل وقار واحترام، وتحميها من نظرات الأشرار، وتلك التي تتمسك بأهداب الحياء لا يمكن أن تسقط في الخطيئة؛ لأنها تلقي على جسدها إزارها، كما أنها لا تكون مدعاة لسقوطٍ آخر في الخطيئة بكشف وجهها. وهذه هي رغبة الإنجيل؛ لأنه يريد أن تصلي وهي مغطاة الرأس والوجه"<sup>2</sup>.

ننظر بعد ذلك إلى كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم (John Chrysostom)، أحد أشهر علماء الكتاب المقدس في عصر النصارى الأوائل، والذي كان يُطلق عليه أحيانًا "الملفان ذو الفم الذهبي". ويقول القديس يوحنا في عظاته حول نص القديس بولس، المقتبس من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، إن القديس بولس يلزم النساء بتغطية شعرهن على الدوام، وليس في الكنيسة فحسب:

"...لا يستلزم على الرجل أن يكشف رأسه دائمًا، بل عندما يصلي فحسب... لكنه يأمر المرأة أن تغطي رأسها على الدوام... كما شرّح يقول: "لأنّها وَالْمَحْلُوقَةَ شَيْءٌ وَاحِدٌ بِعَيْنِهِ"، لكن إذا كان مستقبلاً أن تطلق المرأة رأسها دائمًا، فمن الواضح كذلك أن عدم تغطية رأس المرأة دائمًا يكون عارًا. ولم يكتف بهذا أيضًا، بل أضاف مرة أخرى قائلاً: "لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطانٌ على رأسها، من أجل الملائكة"، يشير إلى أنه يجب على المرأة أن تغطي رأسها ليس في وقت الصلاة فحسب، بل على الدوام كذلك"<sup>3</sup>.

بالانتقال إلى العصور الوسطى، نرى بعد ذلك في شرح القديس توماس الأكويني (Thomas Aquinas) استنتاجه لمقطع الكتاب المقدس ذاته (التعليق على رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس) بأن المرأة يجب عليها الاحتجاب "من أجل الملائكة". ويقول القديس توماس: إن هذه العبارة يمكن فهمها بالمعنى الحرفي والمجازي، أما المعنى الحرفي؛ فكلمة "الملائكة" تعني: الملائكة حقيقة:

"يمكن فهم ذلك من جهتين: من جهة الملائكة السماويين الذين يُعتقد أنهم يحضرون التجمعات الدينية للمؤمنين، خاصة عند الاحتفال بالأسرار المقدسة؛ ولذلك يجب على النساء والرجال في ذلك الوقت أن يقدموا أنفسهم باحترام تقديسًا يليق بهم حسب سفر المزامير 138 (الآية 1): "قُدَّامَ الإِلَهِةِ أَرْتِمُ لَكَ"، وجاء عن

<sup>1</sup> بورسين، كاري (Børresen, Kari). (1986). Tertulian. حول حجاب العذاري (De virginibus velandis). الأغسطيني: (3) 26-591-593.

<sup>2</sup> إكليمنضس الإسكندري (Clement of Alexandria). (1867). المُربي (The Instructor)، الكتاب الثالث. ترجمة: وليام ويلسون. إدنبرة: تي أند تي كلارك. مُقتبس من: [https://en.wikisource.org/wiki/Ante-Nicene\\_Christian\\_Library/The\\_Instructor:\\_Book\\_3](https://en.wikisource.org/wiki/Ante-Nicene_Christian_Library/The_Instructor:_Book_3).

<sup>3</sup> القديس يوحنا ذهبي الفم (St. John Chrysostom). (دون تاريخ). العظات على رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (Homilies on First Corinthians)، العظة 26، الإصدار الرابع. مُقتبس من: [http://www.documentacatholicaomnia.eu/03d/0345-0407\\_Iohannes\\_Chrysostomus\\_Homilies\\_on\\_First\\_Corinthians\\_EN.pdf](http://www.documentacatholicaomnia.eu/03d/0345-0407_Iohannes_Chrysostomus_Homilies_on_First_Corinthians_EN.pdf).

الترجمة السبعينية والقبطية: "أمام الملائكة أرتل لك"<sup>1</sup>.

ومن المنظور المجازي، يقول القديس توماس: إن كلمة "الملائكة" يمكن فهمها أيضًا على أنها تعني: الكهنة الذين يحتفلون بالقداس، وبذلك يربط هو أيضًا بين مسألة الحجاب والحشمة: "لذلك ينبغي أن يكون للمرأة غطاء على رأسها دائمًا من أجل الملائكة، أي: الكهنة، لسببين: أولاً، توفيراً لهم، حيث ينبغي أن تتصرف المرأة باحترام أمامهم... ثانياً: لضمان سلامتهم؛ خشية أن تتسبب صورة امرأة غير محجبة في إثارة شهوتهم"<sup>2</sup>.

كما ألزم المصلحون البروتستانت الأوائل المرأة بتغطية رأسها. ومن المعروف أن "كاترينا فون بورا" (Katharina von Bora)، زوجة مارتن لوثر (Martin Luther) وراهبة سابقة، كانت ترتدي غطاء الرأس حتى بعد ترك الكاثوليكية، كما دعا الآباء المؤسسون البروتستانتيون في القرن السادس عشر، مثل: جون نوكس، وجون كالفن، النساء إلى تغطية رؤوسهن. وترتبط آراء جون كالفن بخصوص حجاب المرأة أيضًا بمسألة الاحتشام، فكتب يقول:

"فإذا سُمح للنساء أن يكنّ كاشفات للرأس، فسيؤول بهن ذلك إلى أن يستبحن كشف صدورهن كاملةً، وسيقمن بعرض أنفسهن وكأتهن في استعراض وقح، سيكنّ صفيقات إلى درجة أنه لن يكون هناك مجال للحشمة والحياء، وباختصار، سينسين واجب الطبيعة"<sup>3</sup>.

كما صوّر فنانون عصر النهضة الأوروبية ومن أتى بعدهم -في القرنين السادس عشر والسابع عشر- النساء بانتظام، سواء أكنّ من عامة الشعب أم من ذوات الحظوة، وهنّ يغطين كل شيء ما عدا الوجه واليدين. واستمر هذا الاتجاه مع استيطان أمريكا، كما يظهر في اللوحات البيوريتانية لنساء يرتدين أغطية الرأس، واستمر حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وفي أوائل القرن العشرين، ألغت الكنائس البروتستانتية إلزامها المرأة بتغطية رأسها أثناء القداس في الكنيسة. وعلى الرغم من أن النساء في الكاثوليكية ينبغي لهن أن يغطين رؤوسهن في القانون الكنسي، كما كان "من المستحب" فصل النساء عن الرجال في الكنيسة، فقد ألغت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أيضًا هذا الإلزام في مدونة القانون الكنسي عام 1983. وعلى هذا النحو، ظلت النصرانية تغير موقفها إزاء هذه المسألة حتى وقتنا الحاضر، حيث لا يزال هناك عدد قليل من الطوائف النصرانية التي لا تزال نساؤها يرتدين أغطية الرأس.

## الحياء وغطاء الرأس في الإسلام

الحياء خصلة من خصال إيمان الرجل والمرأة في الإسلام، حيث لا يكتمل إيمان العبد إلا بها. مرّ رسول الله ﷺ ذات مرة على رجل وهو يعيب على أخيه شدة الحياء، فقال رسول الله ﷺ: - "دَعُهُ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ" (متفق عليه).

وفي حديث آخر قال فيه النبي ﷺ:

<sup>1</sup> الأكويني، توماس (Aquinas, T). (دون تاريخ). تفسير رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ( Super I Epistolam B. Pauli ad Corinthios lectura). ترجمة: فابيان لارشر مُقتبس من: <https://dhspriority.org/thomas/SS1Cor.htm>.

<sup>2</sup> المرجع السابق نفسه.

<sup>3</sup> سكوولنييتسكي، سيث (Skolnitsky, S) (مترجم). (1992). الرجال والنساء والنظام في الكنيسة: ثلاث عظات لجون كالفن ( Men, Women and Order in the Church: Three Sermons by John Calvin). دالاس، تكساس: مطبوعات التراث المشيخي.

- "إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ" (أخرجه ابن ماجه).
- "الحياء لا يأتي إلا بخير" (الأدب المفرد)، وفي رواية لمسلم: "الحياء خير كله"، أو قال: "الحياء كله خير".
- "إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرْنَا جَمِيعًا فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ" (الأدب المفرد).
- "ما كان الحياء في شيء إلا زانه، ولا كان الفحش في شيء إلا شانه" (الأدب المفرد).

الحياء، وتمثله الحشمة والتواضع وكبح جماح النفس عن المعصية، يقي العبد من الوقوع في الفحش والإثم. ومن صور الحياء: حياء العبد من الله ﷻ، ومن ثم من الوقوع في الفواحش والمنكرات؛ حيث يقف الحياء حاجزاً بين العبد والذنب، أما العبد الذي يضيع خلق الحياء؛ فإنه يطلق العنان لنفسه بارتكاب الآثام والذنوب.

ومن مظاهر حياء المسلم حسن الكلام، والاحتشام في اللباس، وتجنب الانفلات الجنسي. وانطلاقاً من مبادئ الكرامة الأخلاقية هذه، أحدث الإسلام ثورة أخلاقية ذات أبعاد غير مسبوقة، حيث أصبح الحياء ركناً من الركين، وقد عرفت مجتمعات الجاهلية بعض مظاهر الحياء في حياتها، لكنها لم تستوعب معنى الحياء في صورته الكاملة لتطبيقه ظاهراً وباطناً؛ فكيف غيرت التعاليم الإسلامية تلك المجتمعات؟

أولاً: لنلق نظرة على قضية اللباس البشري؛ ففي الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الأخرى تستخدم الملابس بصورة أساسية كنوع من الزينة، ولإثارة المشاعر الشهوانية لدى عامة الناس، جاء الإسلام ليذكر الناس بأن الغاية الأساسية من ارتداء الملابس هي ستر عوراتنا، قال الله ﷻ: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ...} (سورة الأعراف: 26)، فالحاجة إلى الملابس لستر العورة قد عُرس في طبيعة الإنسان منذ بداية خلقه، والشعور الفطري بالخجل هو الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات الأدنى مرتبة.

ولا ينعم المسلم بحياة إسلامية دون التحلي بأخلاق الإسلام، ولا تكتمل أخلاق الإسلام إلا بالحياء؛ ففي القرآن الكريم، يحث الله ﷻ المؤمنين والمؤمنات على غض أبصارهم وحفظ فروجهم، ثم يحث المؤمنات على أن يرخين بخمرهن على جيوبهن ليسترن بذلك أعناقهن وأجسادهن، ودليل وجوب الحشمة في اللباس الآيات التالية التي يقول فيها الله ﷻ:

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...} (سورة النور: 30-31).

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ...} (سورة الأحزاب: 59).

وإليكم هذا الحديث الذي بيّن في النبي ﷺ مسألة لباس المرأة: دخلت أسماء بنت أبي بكرٍ على رسول الله ﷺ فقال: "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه" (رواه أبو داود والبيهقي).

الاحتشام نوع من الوقاية، وقد أمرت الشريعة الإسلامية به لحماية المرأة من التحرش والازدراء؛ فالحشمة في الملبس كفيلة بالصد عن النظر إلى المرأة باعتبارها كائنًا جنسيًا، وستجعلها تحظى بالتقدير والاحترام لشخصها، وتلك الوقاية إحدى الغايات الأساسية لغطاء رأس المرأة في الإسلام. فعلى عكس غطاء الرأس على الطريقة النصرانية، فهو ليس علامة على سلطة الرجل على المرأة، ولا خضوعها له، كما أن غطاء الرأس في الإسلام، بخلاف غطاء الرأس على الطريقة اليهودية، ليس علامة على كون المرأة متزوجة ولا على الحداد؛ فقواعد اللباس المحتشم في الإسلام ليست سوى علامة على التمييز لغرض حماية جميع المؤمنات.

كما يهتم القرآن غاية الاهتمام بحماية جسد المرأة وسمعتها، تعاقب الشريعة الإسلامية الرجل الذي يجروء على قذف امرأة عفيفة؛ وذلك لأن الإسلام جاء لحفظ كرامة المرأة وعرضها؛ وقد أولت الشريعة الإسلامية أقصى درجات الاحترام للمرأة للحفاظ على عفتها وسمعتها الطيبة، فقذف المحصنات من الكبائر في الإسلام؛ حيث قال الله ﷻ:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (سورة النور: 4).

فيجب احترام عفة المرأة وحفظها مهما كانت الظروف، وتعني هذه الآية جميع النساء، وليس النساء المسلمات فحسب.

نعود الآن إلى السؤال الرئيس الذي طرح في بداية هذا القسم: "هل تشعر المرأة المسلمة بالظلم والاضطهاد بسبب لبس الحجاب؟" تأتي الإجابة عن هذا السؤال من استطلاع للرأي أجرته مؤسسة غالوب عام 2005 بعنوان: "ماذا تريد النساء: الاستماع إلى آراء النساء المسلمات".

كشف الاستطلاع أن أكثر شيء استاءت منه غالبية النساء المسلمات اللاتي شملهن الاستطلاع بشأن مجتمعاتهن، في أكثر من 8 آلاف مقابلة شخصية أجريت في ثمان دول ذات أغلبية مسلمة، هو الافتقار إلى الوحدة بين الدول الإسلامية، والتطرف القائم على العنف، والفساد السياسي والاقتصادي. وقال محللو الاستطلاع: لم يرد في إجابات النساء عن الأسئلة المفتوحة شيء بخصوص الحجاب والبرقع، اللذين ينظر إليهما بعض الغربيين على أنهما أداتان للقمع.

تري غالبية النساء اللاتي شملهن الاستطلاع أن تبني القيم الغربية لا يساعد في التقدم السياسي والاقتصادي للعالم الإسلامي، وكان أحد الردود المتكررة على السؤال: ما الذي لا يثير إعجابك في الغرب؟ هو التصور العام للانحلال الأخلاقي والتحرر الجنسي والمواد الإباحية التي أطلق عليها منظمو استطلاعات غالوب "صورة هوليوود" التي ينظر إليها الكثيرون على أنها مهينة للمرأة.

أما غالبية العظمى من النساء اللاتي شملهن الاستطلاع في كل بلد؛ فذكرن "الارتباط بالقيم الأخلاقية والروحية" باعتباره أفضل سمة مميزة لمجتمعاتهن، وقالت 53% من النساء اللاتي شملهن الاستطلاع في باكستان: إن الارتباط بمعتقداتهن الدينية هو أكثر الميزات إثارة للإعجاب في بلادهن، وبالمثل، ذكرت 59% من النساء اللاتي شملهن الاستطلاع في مصر حب الإسلام، باعتباره أفضل جانب في حياتهن في ذلك المجتمع!

<sup>1</sup> أندروز، هيلينا (Andrews, H). (8 يونيو 2006). دراسة استقصائية تكشف أن النساء المسلمات لا يعتبرن أنفسهن مضطهدات. نيويورك تايمز. مُقتبس من: <https://www.nytimes.com/2006/06/08/world/middleeast/08women.html>.



وفي الختام نقول: إن غطاء الرأس في الإسلام لا يفضي إلى مشاعر سلبية بين النساء المسلمات، فمن الحقائق الثابتة منذ أربعة عشر قرناً من رسالة الإسلام، كما بلغها النبي - ﷺ أن النساء لا يزلن يرتدين لباس الحشمة والتميز الديني بكل فخر واعتزاز، ولا يزال الاحتجاب لملايين المسلمات في الوقت الحاضر خياراً يتخذنه بحرية، وليس التزاماً يُكرهن عليه كما يُصوّر في الغرب. وتختار النساء ارتداء ثيابهن بهذه الطريقة "لإرضاء الله"، على حد تعبير إحداهن، في حين أن الأخريات يلبسنه بالطريقة التي اخترنها من أجل إرضاء المجتمعات التي يعشن فيها. ولتسليط الضوء على قضية الاختيار هذه والنظرة الإيجابية لعدد من النساء بخصوص غطاء الرأس، سيُختتم هذا الجزء بقصيدة رائعة كتبتها هيدر غلادن (Heather Gladden)، وهي أمريكية دخلت في الإسلام:

بالحشمة قد غدوت للخُبِّ أهلاً وللتوقير والإجلال  
وعزة النفس اكتسبتُ فأنعمُ بذا الفوز وذا النوالِ  
ولأنني أحبُّ اللهَ جَلَّ في علاه وأطيعُهُ كيما أنالَ رضاهُ  
لبستُ الحجابَ لربي طاعةً، ولأظهرَ كمَّ أخشاهُ  
بذا الحجابِ أحفظُ حشمتي وبه أصونُ وقاري  
وأكونُ قد أثرتُ الصدقَ على الزيفِ والأوزارِ  
يأفوتةُ أنا ومصونةٌ به كما يحمي اللآلئُ الصدفُ  
من دونه أغشى ظلامَ السرى يلقني السدفُ  
ومن دونه كآني أخيرُ الورى وأنبئُ كلَّ الدُّنا  
أنِّي لستُ بمسلمةٍ وقلبي بربي ليس مؤمنا  
وأنِّي أريدُ أن أموتَ وأحسَرَ مع العصاةِ والفجارِ  
وأنِّي وإياهمُ سنصلى يومَ القيامةِ عذابِ النارِ  
ومن دونه كآني أقولها علناً وأعربُ بلسانِ حالي:  
أنْ هاؤُمُ كلموني وخادِنوني يا كلَّ الرجالِ؛  
فأنا زوجةٌ لا تعباً بعفةٍ ولا بشرعِ اللهِ ثبالي،  
وإني لأعطيكمُ الإذنَ صراحةً وبغيرِ دلالِ  
أنْ تنهشوني بعيونكم وثقِّطعوا بها أوصالي  
دُونكم مَفاتني أرخصُّها معروضةً سهلةً المنالِ  
وأريدُ منكم يا رجالاً أنْ تشتهوني وترغبوا  
لتحسدني المحجباتُ ورهُوا أتبه وأطربُ  
لكني العفيفةُ التي إلى الصدقِ تلوذُ وتهربُ  
وأروعُ الأمثلةُ في الصدقِ والعفافِ تضربُ  
ليعلمَ الورى أني المسلمةُ العفيفةُ التي  
تسنَّرتُ بحجابها طوعاً وفي رضا ربِّها ترغَّبُ  
وأنِّي قد نجوتُ من قيِّدِ الشيطانِ  
طيراً في جنةِ الطاعاتِ بالجناحينِ يضربُ  
تجلَّى ذلكَ الحجابُ فوقَ الرأسِ ليغمُرني  
بنعمٍ تنرى تتدلَّى غدقاً من ربيِّ الكريمِ المنانِ  
قَطعَ من القماشِ عن أعينِ الناسِ تسنُرني  
وتحرَّرني من قيِّدِ النفسِ ومن شركِ وكيدِ الشيطانِ

لسانُ حالي قد أعلَّنها ولو همسًا  
ينداحُ وينهمرُ من مُهجَّتي وجَناني:  
مُسلمةٌ أنا بملءِ إرادتي لا قَهْرًا  
وبكلِ الفخرِ تُرِدُّها مَآذُنُ قلبي وكياني  
لا أحدَ يملكني لا أحدَ يأسرُني  
فأنا الأبيَّةُ الحرَّةُ والأسرُ أباةُ  
أنا لله أمةٌ.. بيده ناصيتي  
هو مالِكُ أمري.. رَبِّي اللهُ  
اللهُ يُحِبُّني أمةً له  
وأنا أُحِبُّ اللهُ وأهواهُ  
رَبِّي اللهُ! واللهُ خالقي  
ولا معبودَ بحقِّ إلهةُ  
مُسلمةٌ أنا وطوعًا ذاتُ حجابِ  
وعزَّةُ نفسي طِبْعًا مِلءُ إهابي  
قد نِلْتُ به حُبًّا وِجْلالًا  
وغداً الوقارُ حَشَوُ ثيابي

## جدول مقارنة

يلخص هذا الجدول المقارن عددًا من الموضوعات من حيث صلتها بالمرأة.

الإسلام	النصرانية	اليهودية	
النساء مأمورات بطلب العلم الشرعي؛ حيث أسهمت العالمات بدرجة كبيرة في تطوّر الإسلام ونشر تعاليمه.	ينبغي للمرأة أن تتعلم على يد زوجها، ويحظر على المرأة تعليم الكتاب المقدس إلا للأطفال.	يحرم على المرأة تعلم التوراة والتلمود.	التعليم
لا فرق بين المولود الذكر والأنثى.	كان الوضع مشابهًا لليهودية، لكنه لا يُمارس في النصرانية المعاصرة.	تبقى المرأة غير ظاهرة لمدة 33 يومًا عند ولادة الذكر، و66 يومًا عند ولادة الأنثى.	ما بعد الولادة
لا يصح الزواج بغير رضا المرأة وموافقتها، كما ثبت في أحاديث النبي ﷺ.	لم يكن لها الحق في الموافقة على زواجها حتى فترة ما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين.	لا يحق للمرأة حسب الكتاب المقدس الموافقة على زواجها، ولكن يجب عليها أن تقبل قرار ولي أمرها.	الموافقة على الزواج
يجوز للرجل الجمع بين أربع زوجات في وقت واحد، بشرط أن يعدل في القسم والنفقة بين الأربعة.	محظور تمامًا	أجيز كتابيًا وتاريخيًا حتى القرن العاشر دون تحديد لعدد الزوجات.	تعدد الزوجات
الضرب الرمزي فحسب، وقد نقرّ منه النبي ﷺ بشدة، ويحرم إيذاء المرأة أو إيلاؤها، كما أن العنف الذي يُمارس ضد الزوجة قد يكون أحد الأسباب المبررة للطلاق.	كان جزءًا مكتوبًا من قانون الكنيسة والقانون العام الإنجليزي حتى القرن السادس عشر كنوع من أنواع التأديب المنزلي.	ورد ذكره تاريخيًا باعتباره عقابًا للمرأة الناشز حتى القرن السادس عشر، لكنه ليس من الأسباب الوجيهة لحصول المرأة على الطلاق.	ضرب الزوجة
يجوز للمرأة فراق زوجها بخلعه واللجوء إلى المحكمة.	الطلاق محرم حسب كلام يسوع، وفي القانون بناءً على هذا.	لا يحق للمرأة عقد الطلاق، بل يجب عليها الحصول على كتاب طلاق من الزوج.	حقوق الطلاق
المرأة لها الحق في الميراث الذي وهبه الله ﷻ لها، ولا يحق لأحد منعها من أخذ نصيبها فيه.	يحرم قانون الكنيسة أيضًا المرأة من حقوقها في الميراث، وفقًا لآيات العهد القديم.	ليس للمرأة الحق في الميراث حسب التوراة/التلمود.	الميراث

<p>تُقبل شهادة المرأة في جميع القضايا القانونية، باستثناء حالات الحدود، كما أنه في بعض القضايا القانونية، لا تُقبل شهادة أحد سواها (يُمنع الرجل من الإدلاء بشهادته).</p>	<p>لها نفس الحكم كما في الشريعة اليهودية.</p>	<p>لا يُسمح للمرأة بالشهادة في جميع الأحوال نظرًا لافتقادها إلى المصدقية بصفة عامة، ولنقص عقلها حسب الكتاب المقدس.</p>	<p><b>الشهادة</b></p>
--	---	--	-----------------------

## 1- هناك الكثير من الجدل هذه الأيام حول منع المرأة المسلمة من الصلاة في المساجد؛ فهل هناك سبب وجيه لهذا المنع؟

لا تُمنع المرأة المسلمة بأية حال من الصلاة في المساجد، كما ثبت عن النبي ﷺ، بل هناك بعض الأحاديث النبوية التي تذكر ذهاب المرأة إلى المسجد لأغراض مختلفة (مثل: حضور الدروس النبوية الخاصة بالنساء) وأحاديث أخرى تمنحها الحق في أداء الصلاة بالمسجد؛ إذ روي أن النبي ﷺ قال: " لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مساجدَ اللَّهِ " (رواه البخاري).

يجوز للمرأة الذهاب إلى المسجد سواء أكان ذلك من أجل الاعتكاف أم أداء صلاة الجماعة أم حضور الدروس الدينية أم لاستفتاء أحد العلماء. وكل ما على المرأة هو احترام قدسية المسجد بارتداء الملابس اللائقة، والتخلي بالتواضع والحياء، وهما من الصفات التي يلزم على الجميع، رجالاً ونساءً، الاتصاف بها.

يمكن تقسيم الجدل الدائر في الوقت الحاضر إلى فئتين: المشكلة الحاضرة الغائبة الكامنة في الجهل الثقافي، ومشكلة ضيق بعض المساجد من حيث المساحة. أما الفئة الأولى: فبدهية ولا تحتاج إلى تفسير، من حيث إن هؤلاء الناس يجهلون تعاليم دينهم. وفي الحالة الثانية: لا تتوفر مساحة كافية في بعض المساجد الصغيرة حتى للرجال لأداء صلاتهم؛ فالإسلام يوجب على الرجل أداء الصلاة في المسجد، ولا يلزم المرأة بذلك، ومن الأحرى للنساء المسلمات السماح للرجال بأداء صلاتهم في المساجد التي بها ازدحام كبير والذهاب إلى مساجد أكبر ذات مساحة أوسع، أو العودة إلى تلك المساجد الأصغر في الأوقات التي يقل فيها الازدحام؛ حتى يُظهرن أكبر قدر من الاعتبار لإخوانهم المؤمنين. وهذا شائع في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، مثل: مصر، والتي خصصت للنساء أماكن للصلاة والتعلم في بعض المساجد الكبرى.

## 2- لقد استشهدت بأية الكتاب المقدس ذات الصلة الواردة في العهد القديم، حيث تُقدر نسبة قيمة المرأة بين 50% و60% من قيمة الرجل. ألا تشبه هذه النظرة المتدنية للمرأة نظرة الآيات القرآنية التي لا تمنح المرأة إلا نصف ميراث الذكر، كما جُعِلت شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل؟

ليس الأمر كذلك؛ فالقاعدة العامة هي أن نصيب الأنثى من الميراث هو نصف نصيب الذكر، لكن هناك استثناءات، كما في حالة الأم التي تأخذ نصيباً مساوياً لنصيب الأب. وللوهلة الأولى، إذا ما أخذت القاعدة العامة لمنح الرجل ضعف ميراث الأنثى بمعزل عن الأحكام الأخرى المتعلقة بالرجل والمرأة، بدت غير عادلة وغير منصفة، ولكي نفهم الأساس المنطقي لهذه القاعدة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الالتزامات المالية للرجل في الإسلام تفوق الالتزامات المالية للمرأة.

أولاً: يجب على العريس أن يهب عروسه هدية (مهرًا) عند الزواج، وتصبح هذه الهدية ملكًا خاصًا لها، وتظل كذلك حتى لو طلقها بعد ذلك، والعروس بدورها ليست ملزمة بتقديم أي هدايا لعريسها.

ثانيًا: يتولى الزوج المسلم مسؤولية إعالة زوجته وأولاده، ويشمل ذلك توفير المأكل والمسكن والملبس وغير ذلك من ضروريات الحياة. أما الزوجة؛ فلا يلزمها مساعدته في الإنفاق على الأسرة حتى لو كانت تعمل؛

فمالها ودخلها ملك خاص بها وحدها، باستثناء ما تقدمه لزوجها طواعية.

ثالثاً: يلزم على الرجل رعاية والديه، بينما لا يجب على المرأة ذلك، بغض النظر عن مدى ثرائها، ومن ثم، فإن إعطاء النصيب الأكبر من الميراث للرجل يرجع إلى أنه ملزم بإعالة غيره بهذا المال. أما المال الذي تحصل عليه المرأة من الميراث؛ فليس مشروطاً بشيء، وتستطيع إنفاقه بالكامل على ما تريده، أو إنفاقه في الأعمال الخيرية لمساعدة الآخرين.

أما فيما يتعلق بمسألة الشهادة؛ فصحيح أن شهادة المرأة تعدل النصف من شهادة الرجل، ولكن في حالة المعاملات المالية أو التجارية فحسب، حيث تتعذر شهادة رجلين. أما في بعض الدعاوى القانونية الأخرى، فإن شهادة المرأة هي الشهادة الوحيدة المقبولة في المحكمة، كما في قضايا العذرية والرضاعة، وما إلى ذلك. أما في الدعاوى الجنائية؛ فلا يجوز للمرأة الشهادة على الإطلاق وفقاً لجمهور الفقهاء.

وفيما يخص أهم شهادة في الإسلام -وهي شهادة راوي الحديث- فإن شهادة المرأة تحظى بالقدر نفسه من الأهمية التي تحظى بها شهادة الرجل، فلا أساس للدعاء بأن شهادة المرأة أقل وزناً نظراً لبعض جوانب النقص العقلي لديها، حيث لا يوجد في الإسلام أولوية تفوق حفظ الكتاب والسنة؛ وهي مهمة باشرت كثير من النساء المسلمات بنجاح وشرف على مدار التاريخ الإسلامي؛ إذ روت النساء الأحاديث النبوية الصحيحة عن رسول الله ﷺ، كالتي رواها الرجال، ولم يرد أي عالم مطلقاً رواية امرأة لمجرد أنها أنثى.

وينبغي أن نضع في اعتبارنا أن المرأة في اليهودية والنصرانية لا تتمتع بأي حق ديني للشهادة في أي مسألة قانونية على الإطلاق، وتستند جميع حقوق المرأة في الشهادة في المجتمعات المعاصرة إلى قوانين علمانية وليست دينية.

وهكذا، باختصار، لا تعني قضيتنا الشهادة والميراث أن المرأة تعدل نصف قيمة الرجل في نظر الإسلام، وإنما تقوم على الأدوار والالتزامات المختلفة التي تقع على عاتق كل منهما في هاتين المسألتين المنفصلتين.

### 3- على الرغم من أن المرأة في معظم الدول الغربية قد حصلت الآن على الحق في التصويت، فلماذا لم تحصل المرأة في عدد من الدول ذات الأغلبية المسلمة على هذا الحق بعد؟

تدور الإجابة عن هذا السؤال مرة أخرى حول فكرة "الدول المسلمة" المستندة في الوقت الحاضر إلى الثقافة أكثر من التزامها بالتعاليم الإسلامية. وبالنظر إلى الصدر الأول من التاريخ الإسلامي، نرى أنه عند اختيار الخليفة الثالث للمسلمين، أخذ الصحابي الشهير عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه على عاتقه استطلاع رأي كل من يعيش في المدينة المنورة بشأن الصحابي الأجدر بتولي الخلافة، وهذه العملية بالطبع جعلته يسأل كل امرأة تعيش في المدينة، فضلاً عن شريحة كبيرة من الشباب أيضاً، ونتيجة لجهوده، صرّح قائلاً: "ما تركت بيتاً من بيوت المهاجرين والأنصار إلا طرقتة فما رأيت أحداً يعدل بعثمان شيئاً، كلهم يفضلون عثمان رضي الله عنه".

وهذا يبيّن لنا أنه حتى النساء اللاتي وقرن في بيوتهن استُشرن في أمر الخلافة، فحرمان المرأة من حقها في التصويت لا يستند إلى أي دليل شرعي في الإسلام، بل هو مخالف لعمل الصحابة، والذي يُعد في حد ذاته

<sup>1</sup> ابن العربي، محمد بن عبد الله (دون تاريخ). العواصم من القواصم. القاهرة: مكتبة دار التراث.

#### 4- المواقف الإسلامية الخاصة بالمرأة وحقوقها جيدة من الناحية النظرية، ولكن لماذا لا تتمتع النساء في البلدان ذات الأغلبية المسلمة بالكثير من الحقوق؟

تجيب صيمة أشرف، طالبة في جامعة ستانفورد، عن هذا السؤال بأفضل إجابة في مقالها الحائز على جائزة والمُعنون: "تحطيم الأوهام: المفاهيم الغربية عن المرأة المسلمة" ( *Shattering Illusions: Western Conceptions of Muslim Women* )، حيث كتبت:

"منح الإسلام بتعاليمه الحنيفة الصافية النقية امتيازات للمرأة، ولم يفرض عليها قيوداً صارمة أو معايير مزدوجة، ولكن مع تقدم الزمن، أخذت حقوق المرأة المسلمة في التراجع، واليوم، نجد قلة من الدول المسلمة تلتزم بالنموذج الإسلامي في معاملتها للمرأة، ويمكن ملاحظة هذا الانحراف عن تعاليم الإسلام عند تقييم الحقوق التي تمتلكها المرأة في مختلف البلدان"<sup>1</sup>.

فلأسف، ما يراه كثير من الناس في الغرب هذه الأيام ليس إسلاماً صحيحاً صافياً، وإنما بقايا الثقافات المتخلفة التي نَحَت الإسلام جانباً في معظم القضايا والأمور الحياتية. وأتمنى مخلصاً أن تسترد المرأة التكریم الذي تستحقه كما أراد الله ﷻ؛ وذلك بالعودة إلى الفهم السليم للتعاليم الإسلامية، وسيرة الأجيال الأولى للإسلام، فهذا هو السبيل الوحيد الذي ستحقق المرأة من خلاله النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

<sup>1</sup> أشرف، صيمة (1997). تحطيم الأوهام: المفاهيم الغربية للمرأة المسلمة ( *Shattering Illusions: Western Conceptions of Muslim Women* ). مُقتبس من: <https://www.islamawareness.net/Women/shattering.html>

## لماذا تدخل الكثير من الأمريكيات في الإسلام؟

إعداد: جولي ساميا مير، دكتوراه في القانون وماجستير في الصحة العامة

تدخل آلاف الأمريكيات كل عام في الإسلام، وتقدير إحدى الدراسات أن نحو 7 آلاف امرأة كنّ من بين المهتدين الأمريكيين إلى الإسلام في عام 2000 الذين بلغ عددهم نحو 20 ألفاً، وتنتمي هؤلاء النساء إلى سلالات وأعراق وأوضاع اجتماعية واقتصادية متنوعة. والزعمة الشائع أن معظم النساء اللاتي يُسلمن إنما يفعلن ذلك لكونهن مخطوبات أو متزوجات من مسلمين، بيد أن المسلم يجوز له الزواج من النصرانية أو اليهودية، ومن ثم لا يلزم على المرأة الدخول في الإسلام حتى تتزوج من مسلم، وبالتأكيد، فإن كون المرأة غير ملزمة بالتحويل إلى الإسلام من أجل الزواج برجل مسلم لا يعني أنها لا تفعل ذلك.

تخرجت في كلية ليبرالية للنساء بالشمال الشرقي؛ وهي إحدى كليات "الأخوات السبع"، ومارست المحاماة لما يربو على ثماني سنوات، وتوليت منصباً بمكتب رئيسي للمدعي العام في المناطق الحضرية، ثم أجريت بحثاً علمياً في إحدى الجامعات الرائدة زهاء سبع سنوات. وقد ظن عدد من الأشخاص الذين التقيت بهم أنني بحكم مؤهلاتي العلمية ورجحان رأيي أسلمت بسبب زواجي من رجل مسلم، والحقيقة أنني لم أدخل في الإسلام من أجل رجل مسلم، بل وتشير الأدلة المتاحة في هذا الصدد إلى أن هذا السبب ليس شائعاً بين النساء الأخريات أيضاً.

إذن فما الذي جذبني أنا والعديد من النساء الأخريات إلى الإسلام؟ في حين أن الجانب الروحي مسألة شخصية، فضلاً عن اختلاف العوامل ذات التأثير الأكبر في قرار الشخص للتحويل، تظهر موضوعات مشتركة لدى سؤال الأمريكيين الذين تحولوا إلى الإسلام، ذكوراً وإناثاً، عن السبب الذي دفعهم إلى الدخول في هذا الدين. وعند الحديث مع هؤلاء، تبين أن بعض العوامل الرئيسية التي دفعتهم إلى التحويل إلى الإسلام تمثلت في القناعات الآتية: أن الإسلام دين منطقي، وأنه يحل مشكلات في دياناتهم أو معتقداتهم السابقة التي جعلت حياتهم في الماضي مريرة وغير مستقرة، وأنه لا يشجع الاتباع الأعمى، كما يلزم المسلمين بإعمال العقل لمعرفة الله معرفة يقينية، كما أن الإسلام أسلوب حياة متكامل قائم على توجيهات وقواعد واضحة، وأنه يروج للقيم التي انعدمت في المجتمع العلماني غير المسلم.

أما بخصوص النساء اللاتي يتحولن إلى الإسلام على وجه الخصوص؛ فإن أحد جوانب الاهتمام الأكثر إثارة للاهتمام يتعلق بالنساء اللاتي يبدأن في دراسة الإسلام بعمق بغرض التأكيد على مواقفهن السلبية إزاء الدين أو إثباتها، والتحقق من ادعاءات من قبيل: أن الإسلام يضطهد المرأة، ويحط من قدرها، ويحرض على العنف والتعصب والكرهية، ولكن المفاجئة غير المتوقعة أن هؤلاء النسوة يكتشفن بالدراسة المتأنية للإسلام عكس ذلك تماماً؛ فالإسلام لا يدعو إلى السلام والتسامح والمحبة فحسب، بل تحظى المرأة في الإسلام أيضاً بتقدير واحترام كبير، باعتبارها متساوية مع الرجل أمام الله ﷻ، ولها دور محوري وجوهري في الأسرة والمجتمع بصفة عامة، فضلاً عن أنهن يدركن أن المرأة أسهمت منذ بداية البعثة في انتشار الإسلام ونشر العلوم الإسلامية، وأن بعض علماء الإسلام الأوائل والأكثر تأثيراً كانوا من النساء، مثل: عائشة ؓ زوج النبي ﷺ، ويكتشفن أيضاً أن الإسلام سلب الضوء على نماذج نسوية ضربت أروع الأمثلة في التقوى والحكمة والكرامة.



كما تتوصل هؤلاء النسوة إلى حقيقة نبينا الحبيب محمد ﷺ، ويكتشفن زيف الافتراءات التي تُقال عنه ظلمًا وبهتانًا، فيجدن القرآن الكريم يصف النبي الكريم أنه {لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (سورة القلم: 4)، وأنه {أَسْوَأَ حَسَنَةً} (سورة الأحزاب: 21)، ثم يعلمن أن النبي قد بلغ أعلى درجات الكمال البشري؛ حيث كانت أفعاله تجسد الأخلاق الحسنة، وكان يعامل النساء باحترام ومودة وتقدير، كما أمر أصحابه وأتباعه بالتأسي والافتداء به.

رغم ما تتعرض له المرأة من الإهانة أو سوء المعاملة في البلدان ذات الأغلبية المسلمة، تدرك النساء المتحولات إلى الإسلام أن هذا الموقف أو السلوك تجاه المرأة ليس نابغًا من أصل الإسلام، ولكنه ناتج عن عوامل ثقافية، وتشويه متعمد للإسلام؛ لخدمة أغراض علمانية غالبًا، حتى وإن وقعت بعض المخالفات في البلدان القليلة التي تطبق الشريعة الإسلامية، فتلك حوادث وأخطاء فردية. ولا يجب أن نندهش كثيرًا من حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"، فمن الخطأ أن تتسرع في رفض الإسلام بسبب الممارسات الخاطئة التي يقع فيها الآخرون، في حين أنك بين عشية وضحاها قد تهتدي إلى هذا الدين.

بعد تفنيد المفاهيم المغلوطة السابقة حول الإسلام، تنظر النساء الأمريكيات اللاتي يدرسن الإسلام بعين ناقدة إلى واقعهن، ويبدأن في السؤال عن مفهوم "التحرر" و"المساواة"، ومدى نجاح نمط الحياة الأمريكي في تحقيق المبادئ التي أعلن عنها. وتُظهر الدراسات بصورة متسقة أن النساء في الولايات المتحدة يتقاضين أجرًا أقل من الرجال، وأن الغالبية العظمى من مئات الآلاف من حالات الاغتصاب والاعتداءات الجنسية التي تحصل كل عام في الولايات المتحدة كانت على أيدي الرجال ضد النساء، وأشارت الدراسات أيضًا إلى أن عنف الشريك الحميم ضد المرأة منتشر، وله عواقب وخيمة، وأن قيمة الجمال والشباب والجاذبية الجنسية غُلبت على قيمة التدين والأخلاق والاتزان والإسهامات المجتمعية. وعلى الرغم من أن الخلاصة من هذه الحقائق لا تعني أن أمريكا مفسدة أخلاقياً أو لا تمتلك قيمة حقيقية تقدّمها لدول العالم، لكنها تدل على أن الأمور ليست كلها مثالية في أرض تفيض لبنًا وعسلًا.

وفي التحليل النهائي، تكتشف العديد من النساء الأمريكيات أن الإسلام يحرّر عقولهن وأجسادهن وأرواحهن من أحجبة الجهل، ويوجههن إلى حياة متناغمة في هذه الدنيا، وإلى الانتقال في النهاية إلى جوار الله ﷻ في الآخرة. بيد أن الاهتداء يتجاوز حدود المنطق والتفسير، ولا يمكن للكلمات إلا التعبير عما يدور في خلدنا؛ فنور الإيمان هو هبة مباركة لا يمكن وصفها؛ إذ نالها عن غير استحقاق لتتير قلوبنا، فالحمد لله ﷻ على ما وهب، والشكر له على ما أعطى.

## العقيدة الإسلامية حول الحياة الآخرة

على الرغم من أن الإيمان بالحياة الآخرة يندرج ضمن الغيبيات، كما ورد في القرآن الكريم، فإن الله ﷻ لا يأمر المؤمن بـ"الإيمان الأعمى"، كما هو الحال في الأديان الأخرى؛ وإنما يقدم ﷻ أدلة منطقية في القرآن الكريم على كل ما يأمرنا بقبوله والإيمان به، قال الله ﷻ:

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (سورة المؤمنون: 115).

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} (سورة غافر: 58).

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (سورة الجاثية: 21).

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} (سورة ص: 27).

تدل هذه الآيات جميعها على أن السعي إلى تحقيق العدالة وتطبيقها شعور إنساني فطري موجود في جميع المجتمعات منذ فجر التاريخ وحتى الوقت الحاضر، وغالبًا ما يرتبط مستوى تحضّر أي شعب ارتباطًا مباشرًا بمدى تطبيقه للعدالة في مجتمعه؛ فكيف إذن الله ﷻ صاحب الكمال المطلق أن يجعل مصير الأبرار والفجار سواء؟

شواهد على البعث نراها كل عام:

قال الله ﷻ:

{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} (سورة النحل: 65).

{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (سورة الروم: 19).

شكّ أهل الريبة على مرّ الزمن كيف يبعثهم الخالق مرة أخرى للحساب بعد أن صاروا ترابًا وعظامًا نخرة؟! ويجيب الله ﷻ مرة أخرى عن هذه الأسئلة بإجابات منطقية، ونلاحظ إحداها بصورة مستمرة كل عام متمثل في موت الأرض كل شتاء، وإحيائها في الربيع، فهذا مثال على البعث والإحياء يشهده جميع الناس، وآية عظيمة من الله ﷻ.

## هل إعادة الخلق بهذه الغرابة؟

قال الله ﷻ: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} (سورة يس: 78-79).

تطرح الحجة المقنعة الواردة أعلاه سؤالاً عن السبب الذي يجعل البعث بهذه الصعوبة، في حين أن الله ﷻ هو الذي أوجد البشرية والكون بأسره من عدم، بل يُفترض أن تكون إعادتنا إلى الحياة أيسر عليه من خلال عناصر الخلق الفعلية، العظام أو التراب، مقارنة بالإيجاد من عدم، كما في الخلق الأول.

## دليل من عصور ما قبل التاريخ:

بيد أن الأدلة لا تتوقف عند هذا الحد، فالله ﷻ يسترعي انتباه خلقه على مستوى أعلى، وهو عالم الإدراك العلمي، ويعزز ﷻ الفكرة لأولئك الذين لا تزال تراوهم الشكوك بالآيات القرآنية المدعومة بالمعرفة العلمية. ويقول الله ﷻ أنه سيحيي البشر حتى لو صاروا حجارة، كما تدل عليه الآيات القرآنية التي يقول الله ﷻ فيها: {وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} (سورة الإسراء: 49-51).

لماذا يقول الله ﷻ للكافرين أنه سيبعثهم حتى لو صاروا حجارة؟ يأتي الجواب المذهل مع اكتشاف الحفريات.

تُعرَّف الحفريات في قاموس ميريام ويبستر (Merriam-Webster) على أنها: "بقايا أو أثر أو علامة لكائن حي من العصور الجيولوجية الماضية، والتي حُفظت في القشرة الأرضية". والحفريات من إحدى الوسائل القليلة التي يمكننا التعرف من خلالها على أي شيء عن الحياة في عصور ما قبل التاريخ، ويشير بعض الناس إلى عتبات من الديناصورات على أنها "عظام ديناصورات"، لكنها في الحقيقة ليست كذلك؛ إذ يستحيل أن تظل أي مادة عضوية على حالها دون أن يطرأ عليها تغيير لملايين السنين، ولذلك فإن العديد من القطع الأثرية التي تعود إلى العصور الماضية، وبقيت ليدرسها البشر، وتتلقفها أنظارهم- تكون في صورة أحجار أو أحافير.

كيف تتحول الأشياء إلى حجارة، أو تتحجر؟ بادئ ذي بدء، لم يتحجر سوى قدر ضئيل للغاية من الكائنات الحية في حياة عصر ما قبل التاريخ، حيث يجب أن تكون الظروف ملائمة تمامًا لكي تحدث هذه الظاهرة، ولا يتحجر أي جزء من جسم الكائن الحي سوى الأجزاء الصلبة: كالأسنان والمخالب والأصداف والعظام، بينما تُفقد عادةً الأجزاء الرخوة من الجسم، باستثناء حالات خاصة للغاية.

على وجه التحديد، سيموت الحيوان ويُدفن في الرمال أو التراب الذي سيستمر في التراكم على مدى بضعة قرون قادمة، ما يساعد في الحفاظ على العظام أو الهيكل بصورة جزئية، وفي تزويده أيضًا بالمعادن الشبيهة بالصخور في عملية تسمى "التمعدن"، وتُستبدل العظام أو الهياكل الأصلية كليًا بالمعادن على مدار ملايين السنين، وما يتبقى فهو نسخة من الهيكل الأصلي شبيهة بالصخور، وحتى إن تشابهت الأحفورة مع الجسم

الأصلي، فهي في الواقع صخرة.

اكتُشف مؤخرًا أن الكهرمان يحفظ كائنات منذ ملايين السنين؛ إذ يشكّل أكثر الأحافير مثالية في العالم؛ فهو عبارة عن حجر غير عادي يبدأ في صورة نسغ<sup>1</sup> متدفق من بعض أنواع الأشجار، وفي بعض الأحيان، تصبح الحشرات أو النباتات أو غيرها من الحيوانات الصغيرة عالقة في ذلك النسغ، وتبقى في حالة حفظ شبه مثالية ثلاثية الأبعاد، ويتحول الراتينج<sup>2</sup> في النهاية إلى الكهرمان الحجري على مدى ملايين السنين من التصلب والتحجر، ويمكن العثور عليه في مناطق نادرة حول العالم، حيث كانت الظروف ملائمة تمامًا لتكوّنه وحفظه.

ما علاقة كل هذه المعلومات إذن بالبعث؟ استصعبت الشعوب الكافرة التصديق بأن الله ﷻ سيبعثهم من التراب والعظام، لذلك بيّن ﷻ لهم أنهم حتى لو صاروا حجارة -الحجارة هنا أصعب في بعثهم منها مقارنة بالعظام الحقيقية باعتبارها مادة يُعاد الخلق منها- فهو قادر على بعثهم بسهولة، وتثبت الأحافير الحجرية المتبقية قدرته ﷻ على حفظ بقايا الحياة الماضية حتى في ظل أصعب الظروف.

فها هو مثال آخر على استخدام المعارف العلمية التي لم تُكتشف لما يزيد على ألف عام من نزول القرآن، ويُعد معجزة لي ولكم، يا شعوب القرن الحادي والعشرين، يخبركم الله ﷻ، خالق السموات والأرض، أنه عليم ببنيّتنا وتكويننا، وهو الذي يتوفى أنفسنا، وهو القادر على إحيائنا مرة أخرى. ومن رحمته الواسعة وعظيم فضله أنه يجيب عن كل الشكوك التي تساور العقول -كقضية البعث-؛ ليمنحنا كل فرصة للإيمان به ﷻ، والخضوع له، ومن ثمّ الفوز والفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة.

### هل الإسلام عقيدة حصرية؟

بالعودة إلى تعريف الإسلام الذي أوردناه في الفصل الأول، نجد أن الإسلام هو دين كل البشر الذين يخضعون ويذعنون لإرادة الله الواحد الأحد من أول الزمان وحتى نهاية الكون، وقد قال الله ﷻ عن هذه العقيدة: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (سورة آل عمران: 85).

كما قال ﷻ في السورة ذاتها:

{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...} (سورة آل عمران: 19).

إذن، لا شك أن الإسلام عقيدة حصرية، فقد بيّنت الآيات القرآنية السابقة، أن من يلقي الله ﷻ في الآخرة مؤمنًا بدين غير الإسلام فسيُخلد في العذاب، لكن ماذا لو عاش الإنسان ولم تبلغه رسالة الإسلام في حياته، ولم يكن هناك سبيل لمعرفة؟ أو أن رسالة الإسلام التي بلغت الناس -سواء من شخص مسلم أثم وضالّ أم كتاب مُعرض- كانت مشوّهة بدرجة كبيرة بتضمنها معلومات غير دقيقة أو مغالطات جعلت هؤلاء الناس يرفضون هذه الرسالة الزائفة، وليس الإسلام الحنيف؟ سيمتنح الله ﷻ هؤلاء الناس يوم القيامة، لكنهم أقلية صغيرة للغاية.

<sup>1</sup> سائلٌ يكونُ في الخليّة، كما يجري في أنساج النّبات لِتغذّيته.

<sup>2</sup> هو إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، ولا سيما الأشجار الصنوبرية.

كما يقول الله ﷻ في مواضع كثيرة في القرآن: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (سورة آل عمران: 182، وسورة الأنفال: 51، وسورة الحج: 10)، وورد عن النبي ﷺ قوله: "... وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنذِرِينَ..." (رواه البخاري).

ومن عدل الله ﷻ أنه لن يُحاسب المجانين، والذين يعانون من اضطرابات عقلية، وكذلك الأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم؛ لأن المساءلة في الإسلام تتطلب الفهم والعقل والتمييز، وهذه الأمور غير متحققة في حالة هؤلاء، وهكذا يفتح الله ﷻ أبواب الهداية لكل البشر. أما الذين لا تبلغهم هذه الهداية، ولا يملكون القدرة على البحث عنها بموضوعية بسبب المعلومات المغلوطة والمشوّهة؛ فسيعاملهم الله ﷻ بعدله في الآخرة.

ما يجعل الإسلام مختلفاً من حيث حصريته وتفردّه- هو أنه دين جميع المؤمنين، من أول جيل للبشرية حتى آخر جيل، وعندما ينظر المرء إلى الأديان الأخرى على سبيل المقارنة، يجد أن جميعها يربط مفهوم خلاص البشرية -إن وُجد- بشخص أو فكرة معينة ظهرت بعد فترة طويلة من نشأة العديد من الحضارات على الأرض.

فعلى سبيل المثال، يجب على الذي يؤمن بالنصرانية أن يقبل عيسى ﷺ مخلصه الشخصي حتى ينال الخلاص، بيد أن عيسى ﷺ بُعث قرب نهاية الزمان (وفقاً للمعتقدات النصرانية والإسلامية). ويتفق معظم الناس على أنه لو كان عيسى مفتاح الخلاص، لكان من المفترض أن يُبعث إلى الناس في بداية الخليقة، وليس قرب نهايتها؛ فهل يستقيم مع العدل والمنطق الذي يُظهره الله لنا دائماً أن يربط ﷻ الخلاص بأمر لم تتمكن غالبية البشر من إدراكه لأنهم عاشوا قبل أو أنه؟

**ماذا سيكون مصير الأشخاص الذين يعملون أعمالاً صالحة، لكنهم لا يؤمنون بالله ﷻ؟**

هناك من الكفار من يعمل أعمالاً صالحة من حيث إنها تحقق نتائج إيجابية للآخرين؛ كالأعمال الإنسانية أو الخيرية. وإن كانت هذه الأعمال حسنة في ذاتها، فهي ليست من الأعمال التي تقضي بهم إلى خلاصهم النهائي؛ فكيف تكون حالهم في الآخرة؟ يجيب الله ﷻ عن هذا السؤال في القرآن بقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (سورة هود: 15-16).

وتفسيرا لهذه الآية قال بعض أصحاب النبي ﷺ والتابعين ﷺ ما يلي:  
قال ابن عباس في هذه الآية: "من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاةً أو تهجداً بالليل، لا يعملها إلا لالتماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين".

وقال قتادة: "من كانت الدنيا همّةً وسدَمَةً وَطَلْبَةً وَنَيْتَةً، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاءً. وأما المؤمن؛ فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة".

يزعم هؤلاء الناس ومن على شاكلتهم أنهم يفعلون الخير، وهم يأبون الخضوع لله ﷻ والإيمان به والتزام

أوامره ونواهيته؛ فلا قيمة لأعمالهم، ولا ثمرة يجنونها منها، ولذلك يصفهم الله ﷻ في القرآن الكريم بقوله:

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} (سورة الكهف: 103-106).

يقول الله ﷻ في آيات كثيرة: إنه لن يضيع جزاء أي عمل صالح، ولذلك يجازي من لا يؤمنون به ﷻ ويجحدون الدين الذي ارتضاه ﷻ لهم في هذه الحياة الدنيا فحسب، وسيأتي هؤلاء الناس يوم القيامة، وليس لهم حسنة يجازون بها؛ لأنهم قد نالوا ثوابهم في الحياة الدنيا، وإنما سينالون جزاءهم لكفرهم بالله ﷻ، وعدم إخلاصهم في عبادته وحده (أي: أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ، لكنهم أشركوا غيره في عبادتهم، وذلك بطاعتهم أو توجيه الدعاء إليهم، ونحو ذلك).

**لماذا سيُعاقب أولئك الذين لا يخضعون لله ﷻ ولا يؤمنون به بالخلود في النار؟**

تساءل كثير من الناس، وحتى بعض المسلمين، لماذا يكون مصير الإنسان الذي يعيش بضعة عقود فحسب في هذه الدنيا الخلود إما في نعيم الجنة وإما في عذاب النار؟ وتتجلى الإجابة عن هذا السؤال عندما ينظر المرء إلى هذه المسألة من منظور النية، فقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله:

**"إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى..."** (متفق عليه).

فالذين عاشوا حياة تعجَّ بالإنكار والجحود، ولم يهتموا سوى بأنفسهم- كانوا سيظلون على هذه الحال لو قُدر لهم العيش ألف سنة أو أكثر، ولم تكن لديهم نية أبداً لفعل أي شيء مختلف عما كانوا مقيمين عليه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أولئك الذين خضعوا لعبادة الله ﷻ؛ فلو قُدر لهم العيش مليون سنة، لعبوده ﷻ أيضاً طوال تلك المدة.

فكما جاء في الحديث: **"إِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"**، فإذا لم تكن لدى المرء نية حقيقية لعبادة ربه وحده، طرد من رحمة الله يوم القيامة، وقُدِّف في النار خالدًا فيها، والعكس بالعكس.

يجب على المرء إعادة النظر في كل ما يفعله في حياته، ومن ثم تقيمه؛ فمن المثير للعجب أن يقضي بعض الناس بضعة أشهر في البحث عن الخيارات المتاحة قبل شراء سيارة قد لا يحتفظون بها إلا لسنوات معدودة، ولا يمهلون أنفسهم ساعة واحدة للنظر في المغزى من حياتهم وعلاقتهم مع ربهم الذي خلقهم. فقد نال المرء حظه من الحياة، وسيكتشف كثير من الناس في النهاية أنهم أفنوا أعمارهم في إرضاء شهواتهم وأهوائهم، وليس في سبيل عبادة ربهم وخالقهم وإرضائه.

إن تفاصيل الحياة الآخرة ودراستها من الأمور التي تتطلب التدبر في الإسلام، وقد تضمنتها الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولم يكن المقصد من هذه المناقشة الموجزة سوى سرد الأدلة التي تؤكد على حقيقة الحياة الآخرة، وإثبات أن مفهوم "الإيمان الأعمى" لا وجود له في الإسلام. وللإطلاع على مزيد من المعلومات عن وصف الجنة والنار في الإسلام، يُرجى الرجوع إلى المصادر الموصى بها في نهاية هذا الكتاب.

## حُسْن الخلق — طريقك إلى الجنة

أعد هذا الفصل المختصر للمسلمين وغيرهم، وقد جعلته تذكرة للمسلمين لعلنا جميعًا نستفيد منه، ويرشدنا إلى الأخلاق الحسنة التي تحلى بها النبي ﷺ، والتي تُعد في حد ذاتها أحد أفضل السبل وأنجعها لإظهار روعة الإسلام أمام الآخرين ودعوتهم إليه.

أما لغير المسلمين؛ فهذا الفصل يخدم غرضين، أولاً: يقدم نظرة مفصلة عن التعاليم العظيمة التي أتى بها الإسلام الحنيف في نطاق العلاقات الشخصية، وفي سياق تأكيده على بعض القيم؛ مثل: الصفح عن الآخرين، والإخلاص، والرحمة، والرفق، والصدق، واللين. ثانياً: يقدم دليلاً يسترشد به غير المسلمين الذين يتعاملون مع المسلمين في معرفة الطريقة التي ينبغي للمسلمين التعامل بها.

ومما يؤسف له أن العديد من الأشخاص الذين يأتون من بيئات مسلمة، ولا يعرفون أو يمارسون إلا القليل من تعاليم الإسلام، يتواصلون على نحو متزايد مع غير المسلمين، ويظن هؤلاء الناس من غير المسلمين أن هؤلاء الأشخاص يمثلون الإسلام من بعض الجوانب، ويحكمون على الإسلام بناءً على تصرفاتهم وسلوكياتهم؛ ولذلك، يوضح هذا الفصل لغير المسلمين التعاليم الإسلامية الصحيحة؛ حتى يحكموا على الدين بناءً على تعاليمه، وليس بناءً على سلوك بعض المسلمين.

ولا شك أن المنصفين والعقلاء لا يصدر عن الأحكام على الغالبية بناءً على تصرفات الأقلية؛ لأنهم لا يريدون أن يحكم على دينهم أو قوميتهم بالطريقة ذاتها، فعلى سبيل المثال: لا نحكم على الألمان بناءً على أفعال الحزب النازي، ولا يُحمّل المواطنون الأمريكيون العاديون مسؤولية اضطهاد الهنود الحمر أو العبيد الأفارقة وقمعهم.

وبالمثل، يظهر معظم النصارى صدمتهم من وحشية الحروب الصليبية أو محاكم التفتيش الأسبانية، وهذا هو المنطق نفسه الذي استخدمه الملاك الكبير محمد علي عندما سأله صحفي نصراني عن شعوره حيال اتباعه لدين إرهابيين؛ إذ رد ببساطة على الصحفي: وما شعورك أنت حيال انتماء هتلر لدينك؟

## نماذج من توجيهات النبي ﷺ في التحلي بالأخلاق

يرد العديد من الأحاديث المذكورة أدناه أيضاً في باب السنة النبوية، وأشجع المسلمين وغيرهم على دراسة المزيد عن القرآن الكريم والسنة النبوية حتى يتسنى لهم تطبيق الإسلام خُلُقًا وعملاً على النحو الأمثل، فالله ﷻ لا ينظر إلى عبادتنا إذا لم تقترن بالرحمة تجاه الناس والرفق بالحيوانات والبيئة من حولنا.

### حديثان عن حُسْن الخلق

1. عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنَسَائِهِمْ" (رواه الترمذي).
2. وعن أبي الدرداء ؓ أن النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ،

وإنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ" (رواه الترمذي).

حديث عن الترغيب في القناعة بما أوتيت

3. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم" (متفق عليه).

حديث عن أطيب الطعام

4. عن المقدام رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده" (رواه البخاري).

حديث عن أفضل الأعمال في الإسلام

1. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه "أن رجلاً سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" (متفق عليه).

حديث عن الصدقة والعزة والرفعة في الدرجات

2. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بغفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (رواه مسلم).

حديث عن الكبر

3. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس" (رواه مسلم).

حديث عن الأمر بالتيسير على الناس

4. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يسرّوا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا" (متفق عليه).

حديث عن فضل الحياء

5. عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحياء لا يأتي إلا بخير" (متفق عليه).

حديثان عن السماحة في المعاملات التجارية والاقتضاء

6. عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى" (رواه البخاري).

7. عن أبي مسعود البديري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً، وكان يأمر غلمانته أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بذلك منه؛ تجاوزوا عنه" (رواه مسلم).

حديث عن فضل أمر المؤمن

8. عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا



لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" (رواه مسلم).

#### حديث عن الإحسان إلى الأرملة والمسكين

9. عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ، وَكَالْفَائِمِ لَا يُفْتَرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطَرُ" (متفق عليه).

#### حديث عن الإحسان إلى الجار وحسن الضيافة

10. عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقْلُ خَيْرًا أَوْ لَيْسُكَتْ" (رواه مسلم).

#### حديث عن العلاقة بين الأخوة والإيمان

11. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ (أَوْ قَالَ: جَارِهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (رواه مسلم).

#### حديث عن ستر عورات الناس

12. عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَا يَسْتَرِ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (رواه مسلم).

يحدونا الأمل أن يحسن المسلمون توبتهم إلى الله صلى الله عليه وسلم بقلوب وجلة، وأن يجاهدوا إغواءات الشيطان؛ حتى يكونوا سفراء جديرين بحمل راية هذا الدين العظيم، ونماذج يُحتذى بها في الرحمة والإحسان والتسامح والصلاح، ودعاة ربانيين يأخذون بأيدي الناس إلى الفوز والهداية اللذين هما الثمرة المرجوة من عبادة الله صلى الله عليه وسلم وحده.

وأما الذين لم يهتدوا إلى الإسلام بعد؛ فنتمنى منهم التأمل في الأدلة والحجج المقدّمة في هذا الكتاب، ونذكّرهم أن هذه الحياة ما هي إلا منحة وفرصة ينبغي اغتنامها وعدم تضييعها، ونقول لهم: كيف تلقون ربكم بعد أن انقضت آجالكم في هذه الدنيا، وقد أفنيتم حياتكم كلها في السعي وراء أهوائكم ونزواتكم وشهواتكم، وأبيتم الخضوع والانقياد لعبادة الله صلى الله عليه وسلم؟ فسارعوا إلى العمل والنجاة قبل فوات الأوان، وإلا ستندمون على تفریطكم إلى الأبد.